

الشيطان
سادسهم



شامل سفر

الشیطان سادسهم

رواية

دار المکتبی

الطبعة الأولى

2018-1439

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه
بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير
أو الترجمة أو التسميد المرفي أو المسرع أو الاختزان
بالحاسبات الإلكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن
مكترب من دار المكتب.



دمشق - الشارقة - القاهرة

دمشق هاتف: 00963112248433، فاكس: 00963112248432، ص.ب. 31426

الشارقة هاتف: 0097165512262، فاكس: 0097165512264، ص.ب. 3309

Email: almaktabi@gmail.com

www.almaktabi.com

دار المكتب
للطباعة والنشر والتوزيع

الفصل الأول

«في الصفحة 273 من كتابك الأخير، خطأ لغوي فادح يا بروفيسور» ... المرسل: Paul Yaghan.
هذا ما قرأه أحمد نادر على شاشة هاتفه المحمول؛
بعد ما سمع الرنة الدالة على وصول رسالة نصية.

- يبدو أنها زوجتك .. زوجتك أليس كذلك؟! تطمئن عليك.

تجاهل أحمد كلام السيدة الفرنسية العجوز الجالسة بجانبه. اعتذر بلباقة أستاذ جامعي، قائلاً:
- آسف، إنها رسالة عمل.

قال الجملة الأخيرة بطريقة مَنْ يريد أن يَكُفَّ مُحَدِّثُهُ عن الكلام. استبدل نظارته بنظارة القراءة، ضغط على أيقونة الـ Chat وكتب: «أنا على متن طائرة

متجهة إلى باريس. لديّ مؤتمر». جاءه جواب البروفيسور Yaghan: «أقترح مراجعة الصفحة 273». كانت هذه هي المرة الأولى التي يذكر فيها Paul الرقم 273 مرتين متتاليتين في سياقٍ واحد، منذ أن التقى بأحمد نادر في عام 1996 ... إدراج ذلك الرقم في أي سياقٍ لغوي مباشر أو ضمني، كان كافياً كي يفهم أحمد ما الذي يعنيه Paul: يجب أن أراك في أقرب وقت ممكن. وأما أن يتكرر الرقم مرتين، فلا بد أن هنالك شيئاً ما ...

لم يترك Paul لأحمد وقتاً طويلاً للتفكير في الرد، فأرسل يقول: «أفكر في قضاء بضعة أيام في باريس. ربما أراك هناك». تفكّر أحمد ملياً .. فكتابه الأخير قد صدر منذ أكثر من سنة ونصف، وقد أرسل لـ Paul نسخةً منه كالعادة. ثم إن الصفحة ذات الرقم المذكور تقع في أواخر الكتاب حيث مسرد المراجع، ومن غير

المعقول أن يهتم Paul لأمر خطأ مطبعي في اسم مرجع ما ... واضح أنه يلّمح للرمز المتعارف عليه بينهما أيام زمان، ولكن بعد كل هذه السنوات! ... ما الذي يجعل صديقه يقرر قطع كل تلك المسافة من أمريكا إلى باريس لكي يلتقي به؟! ألم يكن بالإمكان حل الموضوع بمكالمة هاتفية مثلاً. قال في سره: «هذا هو Paul الذي لم يتغير منذ عرفته» ...

لم يكن Paul Yaghan عميلاً لدى الـ FBI، ولا أحمد نادر يعمل في مكتب مكافحة الإرهاب، فكلُّ منهما باحث وأستاذ جامعي في الفيزياء الفلكية. أمضى الرجلان مع بعضهما في الولايات المتحدة خمس سنوات؛ كأستاذٍ مشرف على طالبٍ دراساتٍ عليا يعدُّ رسالتَي الماجستير والدكتوراه أولاً، ثم كزميلين، وبعد ذلك كصديقين. توطدت العلاقة بينهما إلى درجة أن فارق السن الذي يزيد قليلاً على

العشر سنوات، وفارق الخبرة العلمية، بالإضافة إلى
فوارق أخرى، ذابت كلها في دفء حرارة الحقيقة التي
كانت تنبعث في آخر كل حوارٍ بينهما؛ تحتكُّ فيه
جزيئات الأفكار الخبلى بالجديد.

تلك الحوارات اليومية لمدة خمس سنوات، جعلت
Paul وأحمد يُثبتان مقولةً جديدة؛ مؤداها أن الصداقة
بين حاملي فكرين مختلفين أمرٌ واردٌ الحصول، حتى لو
كانت درجة برودة الجليد الفاصل بينهما في البداية
هي الصفر المطلق 273.15 تحت الصفر ... فهو
سيدوب تدريجياً إلى أن يصل إلى نقطة التوازن.

ومنذ يومٍ فاصل في تاريخ العلاقة بين الرجلين،
يومَ وردت في حديثهما فكرة الذوبان التدريجي لجليد
التباعد الفكري، في أحد مطاعم نيوجرسي ...
وضحكا آنذاك إلى درجة أن رواد المطعم صاروا
ينظرون إليهما باستغراب .. منذ ذلك اليوم اتفقا، من

باب المزاح، على جعل الرقم المذكور رمزاً متعارفاً
عليه بينهما؛ معناه: اترك ما في يدك وتعال فوراً.

- هل خدمة الإنترنت جيدة، سيدي؟

أخرجه صوتُ المضيفة من تأمله، فأجاب:

- نعم، شكراً.

قالت السيدة الفرنسية بإنكليزية مكسرة؛
مخاطبةً المضيفة:

- هل أستطيع أن أكلم ابنتي في مونيبيليه؟

تبادل أحمد والمضيفة ابتسامة خفيفة. فهمت
المضيفة مرادَ أحمد، فقالت للسيدة المستنة بلطفٍ
فرنسي مميز:

- أنا متأكدة من أن الجنتلمان الجالس بجانبك
سيساعدك في ذلك.

أشرق وجه السيدة التي نظرت صوب أحمد وكأنه
أحد أبنائها، وقالت:

- أوه .. حقاً ! هل أستطيع التكلم مع Claudette ؟
- بكل سرور (قال أحمد) .. ألدك عنوان بريدها
الإلكتروني؟

وبينما كانت الأم الطيبة تبحث في حقيبتها عن ورقة ماء، أوماً أحمد للمضيضة بأن كل شيء على ما يرام، فانصرفت مودعةً إياه بابتسامة شكر.

فتح أحمد حاسوبه المحمول، طلب إضافة Claudette .. ثم أرفق بطلبه رسالة توضيح ... «معك Prof. Nader من على متن طائرة متجهة إلى باريس. السيدة والدتك بجانبني، وهي تود محادثتك. أرجو تشغيل الكاميرا».

كانت الدقائق الخمس والعشرون التي أمضتها السيدة الطيبة وهي تحدث ابنتها، وتداعب أحفادها بلفتات وجهها الحنون المشتاق، أشبه ما تكون بموسيقى تصويرية ... بدأت صاحبةً بعض الشيء، ثم

هدأت رويداً رويداً عندما بدأت أذنا أحمد بالاعتیاد عليها. وجعله مشهد الجدة وأحفادها يشعر برضى كبير. أرجع أحمد مسند كرسیه إلى الخلف قليلاً، أغمض عينیه في حركة استسلامٍ أمام الذکريات التي بدأت تَفِدُ إلى وعیه كتيارٍ ماءٍ دافئ ...

التقى أحمد نادر بالبروفيسور Paul Yaghan لأول مرة في مكتب هذا الأخير، والكائن في مؤسسة متخصصة بأبحاث الفضاء تابعة لجامعة أمريكية مرموقة. كان أحمد شاباً واعداً، نال درجة BS في الفيزياء بدرجة امتياز. لم يتردد والده الحاج أبو أحمد، رجل الأعمال الخليجي الناجح، في الموافقة على تحقيق حلم ابنه في السفر إلى أمريكا للتخصص العميق في فيزياء الفلك. ترددت أم أحمد في بادئ الأمر، وأشفقت من فراق ابنها وخافت عليه. غير أن أخاها الشيخ عبد القادر، وهو أستاذ جامعي من أكابر

علماء دمشق في الفقه الإسلامي، ساهم إلى حد كبير في إقناعها بالموافقة .. وهكذا كان.

كان لقاءً من الصعب أن يُنسى. لا سيما أن أحمد لم يذهب إلى مكتب Paul لوحده، بل برفقة واحدٍ من أصدقاء أبيه المقربين؛ وهو رجل غربي ذو مال ونفوذٍ عابرٍ للمقارت، تربطه بالحاج أبو أحمد علاقاتُ تجارية دولية.

دارت المحادثة بأكملها بين Paul والرجل النافذ، وأحمد صامت، مع أن المحادثة الغربية كانت تتعلق به وحده ...

- بروفيسور Yaghan .. أقدم لك أحمد نادر.

- أهلاً .. ماذا بإمكانني أن أقدم لكما ؟ (أجاب Paul باقتضاب).

- أحمد سيحضّر لرسالة الماجستير في فيزياء الفلك.

- وإذن ؟

- لا بد أنك اشتقت للتدريس يا بروفيسور.

- بمعنى ؟

- عملك البحثي أقل كثافةً هذه الأيام.

- أبحاثي مستمرة بغضّ النظر عن الوتيرة (قالها Paul وقد بدأ يغضب).

شعر الرجل النافذ بتململ Paul فمارس فوقيّته قائلاً:

- أظن أن شاباً نابغاً مثل أحمد لن يجد مشرفاً أفضل منك على رسالتيه في الماجستير.. والدكتوراه.

- ودكتوراه أيضاً .. جيد أني غير متزوج.

- طيب .. افترض أنك متزوج، وخصّص الوقت الإضافي لهذا الشاب الذي يهمني أمره بشكل شخصي.

- المؤسسة مليئة بالعلماء، فلماذا أنا ؟

- لأنني أريد ذلك.

- عفواً ؟!

- بإمكانك أن توافق فأكون سعيداً.

- وإذا لم أوافق ؟

- وقتها لا أظن أن أحداً سيكون سعيداً.

آنذاك .. وافق Paul على وجود ذلك العربي في محيط عمله، على مضض. وعلى الرغم من أن العجرفة والتهديد الضمني كانا السمة الغالبة على كلام الرجل النافذ، فقد توارى بين سطور تلك المحادثة الغريبة مستوى آخر خفي لم يلحظه أحمد يومها.

تحدث Paul مع الثري المتعجرف الذي يُعتبر أحد أهمّ مضخات تمويل الأبحاث، وكأن الموضوع برمته يتلخص في شاب مدلل أتى ليمضي بضع سنوات في أمريكا، كي يُكتب حرف (د) قبل اسمه في آخر فترة دراسته، ثم يعود إلى بلاد الجمال والخيّام ويمارس اللاشيء ... مجرد علاقات عامة لا أكثر.

ولعل أحداً من الرجال الثلاثة؛ الثري الذي ضغط، والعبقري الذي لم يكبر الموضوع، والشاب الصامت ... لعل أحداً منهم لم يخطر على باله ولا لثانية واحدة، أنه كان طرفاً في واحدٍ من الحوارات التي يَغْفُلُ عن توثيقها المؤرِّخون، لأنهم ببساطة .. لا يدرون بها.

- شكراً جزيلاً أيها الشاب الطيب (قالت السيدة العجوز).

تناول أحمد حاسوبه المحمول من أمام السيدة، وهمَّ بإقفاله. غير أن رسالةً أخرى جاءت من Paul: «سأصل إلى باريس بعد يومين. أرسل لي عنوان الفندق الذي يُعقد فيه المؤتمر».

الفصل الثاني

أمريكا - نيوجرسي

كان Paul مختاراً كيف يصنف نفسه؛ هل هو كهل؟ أم أن أوائل العقد الخامس من العمر بدايات الشيخوخة ... بيد أن الحيوية التي طالما شعر بها، جعلته يضرب عرض الحائط بكلا الاحتمالين .. شيء ما في داخله كان ما يزال شاباً.

كثيراً ما تندرست إستر، سكرتيرته الخاصة، بالقول أن البروفيسور Yaghan يتداوى بالتي كانت هي الداء؛ فهو عندما يريد أن يستريح من عناء القراءة البحثية، يستلقي على أريكة .. ويقرأ كتاباً آخر.

«إنها تبالغ كعادتها» ... قالها في سرّه وهو يتابع توضيب دفاتر ملاحظاته وحزم ما تبقى من حاجياته الخاصة. كانت إستر قد قامت كالعادة بالجزء الأكبر من العمل قبل سفرها إلى باريس، وبقيت بضع دفاتر

وأوراق صغيرة مبعثرة. لم ييأس بسرعة، حاول تصنيف ما تبقى، لكنه استسلم في آخر المطاف وقرر أن يأخذ استراحة قصيرة.

دأبت خياله صورة إستر وهو يفكر: «قدّمي استقالتك وتعالى معي .. فتوافق دون تردد ... اسبقيني إلى باريس وابحثي لنا عن بيت مناسب، فلا تسأل كثيراً. يا لها من امرأة .. تلك القطعة الشرسة».

أدار مفتاح تشغيل النظام الصوتي، فصدحت موسيقى كلاسيكية تناغمت مع حديثه الداخلي. عدّل درجة الصوت، ثم توجه نحو لوحة فنية، كلاسيكية هي الأخرى .. أزاحها قليلاً، لفظ جملة فتّح الخزانة كي يلتقطها نظام الأمان المحوسب، ثم نظر باتجاه عدسة مسح البصمة العينية؛ كي يتمكن النظام من المطابقة، ففتّح الباب ... على أرضية الخزانة، كان حاسبٌ لوحي يقبع وحيداً.

لم يتصل Paul بشبكة الإنترنت من خلال ذلك الحاسب اللوحي أبداً. وفي حقيقة الأمر كان عدد الملفات المخزنة فيه محدوداً للغاية، لكن أكبرها حجماً وأكثرها أهمية بالنسبة للبروفيسور، تم حفظه تحت اسم: 273.

وبما أن أهم ملاحظات Paul ونتائج البحثية الأكثر حساسيةً، والتي لا يعلم بها أحد، أُدرجت في ذلك الملف، فقد أدخل على البرنامج الخاص الذي يفتح الملف المذكور تعديلات أمنية مضبوطة للغاية. بين زحمة الصور وملفات الفيديو، تواجدت صوراً لأوراق ملاحظات مدونة باليد ومسحوبة على المساحة الضوئية قبل أن يتم إتلافها وإحراق بقاياها.. هذا فضلاً عن ملفات صوتية تؤثّق نقاشات دارت في ما مضى؛ بعضها كان حافلاً لدرجة يصعب معها تدوين ملاحظات عنها باليد، فجرى تسجيلها

وحفظها، تماماً كما تم حفظ باقي المعلومات، ثم نقلها من وسائط التخزين القديمة إلى الحاسب اللوحي عندما ظهر هذا الجيل الجديد من الأجهزة.

فتح Paul ملفه الهام وبدأ بالجزء الأول ذي العنوان اللافت: «That poor arab ذلك العربي المسكين» .. وبدأ بالقراءة، لا لكي يستريح من القراءة البحثية كما تقول إستر، بل لسببٍ هو الأكثر أهميةً في حياة عالمٍ كوني قرر في لحظةٍ أن يتوقف ليعيد حساباته.

تاريخُ الجزء الأول يشير إلى يومٍ من أيام العام 1997، أي أنه متأخر عن تاريخ لقائه الأول بأحمد نادر بما يزيد قليلاً عن عامٍ كامل ... أكثر من ثلاثمائة وستين يوماً تفنّن خلالها Paul في إذلال أحمد وتسليّ بالسخرية منه .. ليس في ذهنه الآن عبارةً

أكثر تهذيباً صالحةً لوصف أسلوبه في معاملة ذلك الشاب آنذاك.

أحمد في ذلك الوقت لم يكن أكثر من عبءٍ إضافي بلا معنى، اضطر Paul للقبول به على كاهله كي لا يُغضب ممولاً متعجرفاً يضخ الملايين كل سنة في عروق المؤسسة التي يعمل بها.

تناول Paul جهاز التحكم عن بعد .. خفّض صوت الموسيقى قليلاً ... وبدأ في قراءة أسطرٍ كان قد كتبها منذ حوالي عقدين من الزمن.

كتبَ آنذاك:

«اتصلتُ به البارحة من المكتب في الواحدة والنصف ليلاً. كنتُ قد قدّرت تقريباً المدة الزمنية التي سيستغرقها للوصول إلى بيته، وأضفتُ إليها بضع دقائق أخرى توقعتُ أنه خلالها سيكون قد خلع ملابسه وارتدى على فراشه منهكاً .. بعد يومٍ طويل تعمّدتُ فيه أن أستنفذ طاقاته بالكامل. سألتُه بهدوءٍ

متعمّد عمّا يفعل، فأجابني بهذيب أنه وصل للتو ويحاول أن ينال قسطاً من الراحة. تهذيب ذلك الرجل يثير استغرابي؛ فلو أنني سألتُ شخصاً أمريكياً السؤال نفسه في ظروف مشابهة، لكان الجواب جملةً تهكمية في أحسن الأحوال ... تُرى هل يتحمل كل تصرفاتي المجحفة بحقه، فقط لأنه يريد أن يُمضي الفترة الباقية بسلام؟! .. أم أن هنالك ما هو أكثر من ذلك؟!

ولما قلتُ له أنني أودُّ مناقشته في أمرٍ ما يتعلق بالعمل، وأصررتُ أن يأتي إليّ فوراً، قاد سيارته لمدة ساعة ونصف فوصل إلى المكتب حوالي الثالثة صباحاً! لقد نجح في الامتحان الثاني إذ أثبت لي أن تهذيبه ليس شكلياً وحسب.

إلا أن الغريب تماماً، أنني عندما أخضعته للامتحان النهائي لتلك الليلة، وقلتُ له أنني متعب وسأؤجل النقاش ليوم غد، نجح بامتياز ... لم يغضب أو يتذمر، واكتفى بالقول أنه سيبحث عن أريكة في المكتب لينام عليها ساعتين أو ثلاث كي يباشر عمله صباح الغد.

أكتبُ هذه الكلمات وأشعر بالذنب تجاه هذا الشاب الذي يريد فعلاً أن يتعلم. كما أنني أشعر شعوراً غريباً آخر لا أفهمه تماماً؛ ففي أعماقي شيء من السرور لأن تهذيبه هزم رعونتي.

لا أعرف لماذا يذكّرني أحمد بجديتي Mary .. لطالما كانت أسئلتني لها عن حقائق الحياة تتسم بقدر مشابه من الرعونة .. ولطالما جاءت أجوبتها في نفس هدوء أحمد ورصانته تُرى هل بالغنا في وضع كل العرب في تصنيف واحد؟!».

أغلق Paul الجهاز اللوحي، نظر إلى الساعة .. كان الوقت متأخراً كفاية لكي يأوي إلى الفراش وينال قسطاً من النوم، بعد يومٍ طويل من التحضيرات للسفر، لكن النعاس أبقى إلا أن يجافيه .. «هل كان من الضروري أن أرسل أبرع مُعالِجَة للأرق إلى باريس قبلي؟!». شغل جهاز التلفاز .. تنقّل بين بضع محطات، ثم توقف عند واحدة منها تبث نشرة أخبار. لم يكن

في الأخبار من جديد فعلاً؛ بضع قصص للاضطرابات التي تعمّ العالم، فتجعل البشرية تبدو وكأنها أصيبت بوباء عالمي اسمه فقدان التركيز الجماعي ... في آخر النشرة ورد الخبر التالي:

«صرّح الناطق الرسمي باسم الشرطة المحلية أن عالم فيزياء الفلك جوزيف راجيف الذي ذاع صيته منذ فترة بنشره لمقالة علمية أثارت لغطاً كبيراً، وُجدَ في شقته وقد فارق الحياة. لم تُظهر التحقيقات الأولية ما يدل على جريمة قتل، إلا أن الشرطة ترجح أن راجيف قد أقدم على الانتحار لأسباب تتعلق باضطرابات نفسية».

هرع Paul إلى الطاولة الخشبية التي كان قد وضع عليها جهازه اللوحي، فعّل خاصيّة البرنامج الأمني الخاص، ثم حدد للبرنامج المدة الزمنية التي إذا مضت دون أن يسجل دخوله إلى نظام تشغيل الجهاز، يقوم البرنامج بالاتصال آلياً بشبكة الإنترنت ومن ثم

بإرسال الملف 273 إلى عددٍ كبير من الجهات العلمية والإعلامية، ونشره على مواقع الشبكة الأكثر تصفحاً في العالم.

وبعد أن تأكد من ضبط الإعدادات، فتح الملف وأضاف جملةً واحدة:

«لقد قتلوا جوزيف راجيف».

الفصل الثالث

باريس - أحد الفنادق

مؤتمر الإعجاز العلمي في القرآن والسنة

أسوأ احتمالٍ يتوقعه شخصٌ مهذب يتوجه إلى قاعة محاضراتٍ بدأت فيها المحاضرةُ فعلاً منذ دقائق ... هو صرير الباب. صحيحٌ أن الفندق الذي يُعقد فيه المؤتمر، والذي قصده Paul فورَ وصوله إلى باريس، ليلتقي فيه بأحمد، فندقٌ فخّم لا يُتوقع أن يهمل العاملون فيه تفصيلاً مثل تزييت مفاصل الأبواب، إلا أن البروفيسور الذي يحترم التقاليد العلمية كان قلقاً من هذه المسألة على بساطتها.

كان بإمكانه طبعاً أن ينتظر انتهاء المحاضرة، لكنه اتجه نحو القاعة بشكلٍ لا شعوري. ربما حرّضت فيه علمانيّته الفضول لمعرفة ما الذي يقوله المسلمون

عن العلم، أو أنه أحب أن يفاجئ أحمد بوجوده داخل القاعة كنوع من الدعاية.

فتح Paul الباب بهدوء، تنفس الصعداء إذ لم يصدر صوت صرير، ثم انسل نحو أقرب كرسي فارغ .. وضع سماعات الترجمة الفورية على أذنيه .. أزعجته قليلاً لكنهُ المترجم الذي كان ينطق الإنكليزية بلهجة بريطانية صرفة. وبدأت عيناه تبحثان عن أحمد بين الحضور حتى عثر عليه ... «بقي أن يلتفت السيد أحمد نادر كي يلحظ وجودي».

تشاغل Paul لبرهة عن موضوع المحاضرة على أمل أن يلتفت أحمد، لكن مصطلحاً علمياً وردَ على لسان المحاضر بالإنكليزية؛ رددهُ المترجم كما هو، شدّ انتباهه: Solar Apex مُستَقَرُّ الشمس.

بدأ المحاضرُ في تفسير الآية 38 من سورة يس في القرآن الكريم: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾،

ثم أورد جملةً أخرى؛ هي التعريف العلمي الذي
تعتمده وكالة الفضاء الأمريكية NASA لشرح مفهوم
مستقر الشمس:

The Solar Apex is the direction toward which the
sun and the solar system are moving.

مستقر الشمس هو الاتجاه الذي تتحرك نحوه الشمس
والمجموعة الشمسية.

تمت Paul بصوتٍ خفيضٍ جداً وكأنه يضيف
تعليقاً علمياً على كلام المحاضر: «نقطةً تتحرك
الشمس مع كواكبها باتجاهها، بزاويةٍ تميل تقريباً 10
درجات جنوب غرب نجم النسر ... فلترقد روحك بسلام
يا جوزيف».

لم تكن المعلومات التي يُوردها المحاضر غريبةً
عن Paul، لا لأنها في صميم اختصاصه العلمي
وحسب، بل لأنها شغله الشاغل حتى في الأوقات
التي يقضيها خارج العمل. ولعل هذا ما جعله يشرّد

قليلاً عن المحاضرة ويترك أفكاره تسرح كما يحلو لها.
ثم إن حاجته للنوم بعد السفر، ساهمت في جعله
يغيب عمّا حوله ... عاد Paul بذاكرته إلى الوراء أكثر
من ثلاثين سنة؛ إلى الزمن الجميل .. إلى أيام دراسته
الثانوية وأحاديثه مع جدته الحبيبة Mary.

عندما سأله أبوه: «لماذا تريد أن تدرس علوم
الفضاء؟»، أجاب Paul الذي لم يتجاوز آنذاك
السابعة عشرة إلا بقليل:

- أحاول أن أعرف كيف سيعود.

سأل الأب مستغرباً:

- مَنْ تعني؟

أجاب Paul مباشرةً:

- السيد المسيح.

وقتها لم يكن بإمكان الأب أن يتابع نقاشاً من هذا النوع، غير أن والده زوجته التي يناديها الكل بـ (الجدة Mary) كانت مؤهلة تماماً لهكذا نوع من المحادثة.

كان Paul أقربَ أحفادِ الجدة Mary إلى قلبها، ولطالما أمضيا فتراتٍ طويلةً وهما يتحادثان. وكامرأةٍ متدينة، شكّلت أسئلةُ Paul المحرّجة التي تطال مناطق حساسةً على صعيد العقيدة الدينية، مجالاً خصباً لإجاباتٍ كانت الجدة تختارها بتؤدة وعناية .. إلى درجة أن مشاعر إعجاب حفيدها بثقتها بنفسها ... اختلطت في أعماقه بشيءٍ من الغيرة. كثيراً ما غبطها Paul -وأحياناً حسدها- على اليقين الذي يكسولغتها ومفرداتها، وعلى طريقة حديثها المتزن. وعندما بدأت عدوى البراعة في اختيار المفردات تنتقل من الجدة إلى حفيدها، وبدأ هذا

الأخير يكتسب بعض البراعة المشابهة والمُبَشِّرة
بتحوله القريب إلى نِدِّ لجدته ... غيّرت العجوزُ من
استراتيجيتها.

ربما شعرت Mary باقتراب تهاوي آخر حصونها
اللغوية، فصار كلامها أكثر مباشرةً. تخلّت السيدة
البريطانية الأصل عن عراقية إنكليزيتها البالغة
الفصاحة .. تناست شكسبير .. وحاولت أن تُحَيِّدَ
أصولَ مُعْتَقِدِها الديني العميق الذي لم تُفصح عنه
أبدًا، والذي كان في يومٍ ما أقرب ما يكون إلى مُعْتَقَدِ
Arius آريوس المصري .. ثم جعلت كلامها شبيهاً
بكلام الأمريكيين المباشر.

وعلى الرغم من أن إجابات الجدة Mary على
أسئلة حفيدها الغالي دلّت باستمرار على إيمانٍ عميقٍ
وراسخ، إلا أن أسئلة Paul كانت تزداد إحراجاً في كل
مرة. كان عَطَشُ الشابِّ للمعرفة يرتوي بعد كل

محادثة، لكن لمدةٍ محدودةٍ فقط، لأن أجزاء هامةً من الصورة كانت تبقى ناقصة .. وكأنه أراد دوماً تجميع باقي أجزاء الـ Puzzles بالكامل دون نقص. باختصار ... كان الفتى يريد أن يعرف كل شيء بخصوص كل شيء.

وفي الفترة التي تلت تقدّمه إلى امتحانات الثانوية العامة، عاش Paul حالةً شعورية وعقلية امتدت لأسابيع؛ كان خلالها يشعر أنه على مفترق طرق. فقراره بدراسة علوم الفلك، أو بتغيير المجال إلى شيء آخر، كان قراراً واجبَ الاتخاذ - لا بسرعة - بل بالثقة الكافية التي تُشعره حقيقةً بأنه سيفعل تماماً ما يريد فعله.

في تلك الفترة، ازداد اقتراب أسئلة Paul لجذته من مناطق عظيمة الحساسية، وأحياناً شديدة الغموض.

شعر Paul آنذاك وكأنه يقود قارباً صغيراً في
البحر قُبيل الغروب، والشمس تهبط في الأفق بهدوءٍ
مخيف .. وليس للفتى من هادٍ إلا صوت الجدة Mary
الذي يأتيه بالإرشادات ... وكأنه همسٌ قادمٌ من
أعماق الوعي البشري.

- جدتي .. هل سيعود المسيح ؟

- سيعود.

- أين ؟

- على جبل الزيتون؛ قالوا.

- قالوا ؟

- قالوا.

- وكيف نتأكد ؟

- لن نستطيع ذلك إلا إذا ...

- إلا إذا ماذا ؟

- ليس بعدَ العينِ أين.

- (يصمت Paul).

- ما لك ؟

- أتساءلُ عن الوقت .. متى ؟

- الربُّ أرحمُ بكثيرٍ من أن يفاجئنا بذلك دون تمهيد.

- أتعنين .. أنه أرسل لنا علامات على أنه قادم.

- المخلوق .. الإنسانُ المخلوقُ عبداً ضعيفاً .. محدود.

إنه يحتاج إلى علامات وتمهيد من ربّه.

- قلتَ ذلك منذ قليل.

- ماذا قلتُ ؟

- قلتُ أن المسيح أرسل لنا علامات على أنه قادم.

- لا .. لم أقل ذلك.

- بلى.

- فكّر في ذلك إلى أن نتحدث غداً .. قُمْ إلى طعام

العشاء.

ضجّت القاعة بالتصفيق، فانتبه Paul من حلم اليقظة، ونظرَ صوب أحمد الذي كان قد لاحظ وجوده فقام متجهاً نحوه ... تصافحا، سأله أحمد على الفور:

- ما القصة .. لقد شغلت بالي؟

قال Paul شيئاً لم يفهمه أحمد بسبب صوت التصفيق، فاضطر لتكرار الجملة بصوتٍ أعلى:

«سنتحدث لاحقاً .. حياتي في خطر».

الفصل الرابع

باريس - أعلى برج إيفل

تفكر أحمد جيداً في ما سمعه .. واحترم Paul
بدوره فترة الصمت المتوقعة، فصمت هو الآخر
منتظراً ردة الفعل الأولية من صديقه الذي وافق على
ترك باقي محاضرات اليوم كي يستمع إليه.
لم يصبر أحمد على التفكير طويلاً، فسأل بقلق
باد:

- هل أنت متأكد ؟

- جميع الدلائل تشير إلى ذلك. لقد كنا مخطئين .. كلنا
يعرف أن الشمس سوف تتوقف في يوم ما. ولأنه ثبت
لنا - نظرياً على الأقل - أن هذا التوقف لن يحدث
قبل عدة ملايين أخرى من السنين، لم يكلف أحد

نفسه عناء البحث عن نَمَطٍ ما يمكن أن ينتظم
التغيرات التي تؤثر في طول المدة الزمنية المذكورة
فتجعلها تختلف، طولاً أو قِصَراً. أو على الأقل، لم
يبحث أحدٌ بشكل جدّي عن ذلك النمط المُحتمَل.
في حين كنتُ أبحث عن سياقٍ ما .. في آكامٍ من
الظواهر التي تبدو، لأول وهلة، غير منتظمة.

- أحييك يا بروفيسور، هذا فتحٌ علميٌّ من الطراز
الرفيع. لكنني مذهول .. ولا أخفي عليك أنني شعرتُ
بالخوف وأنا أستمع إليك. هل لي أن أعرف منذ متى
وأنت تعمل على هذه الأبحاث ؟

- منذ أيام حواراتنا في بداية دراستك معي بالولايات
المتحدة ... وقتها أذهلتني عندما ذكرت لي أن القرآن
أخبر عن أن الشمس تجري وليست ثابتة .. وأنها في
النهاية ستتوقف وتستقر.

- وفوجئتُ بمدى تطابق ذلك مع الاكتشافات العلمية
الفلكية.

- تماماً .. وبصراحة، شَغَلْتُ بالي آيَةُ ثانية من القرآن كنت قد ذكرتها لي، تقول ما معناه .. وما أدراكم أن يوم القيامة بعيد؛ وكأنه سؤال استنكاري.

- (يتلو بالعربية آخر الآية 17 من سورة الشورى):

﴿وَمَا يَذِّرُكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ ... سأحاول ترجمة المعنى ..

- أعرف المعنى، فقد سبق وأخبرتني به ...

- المهم ..

- المهم أن في هذه الآية إشارة زمنية إلى قرب الوقت المنتظر، لا إلى بُعْدِهِ ... وهذا ما جعلني أعيد النظر في قضية التوقيت المتوقع لتوقف الشمس ...

والمفاجأة الأكبر أن النتائج التي توصلت إليها، لا تشير فقط إلى قصور معلوماتنا الفلكية، بل إلى خلل خطير في منهجية البحث لم ينتبه إليه أحد ... نعم، إثباتاتنا تقول بشكل واضح لا لبس فيه أنها ستتوقف

يوماً ما، ولكن ليس بعد ملايين السنين كما كنا
نظن، وهنا المشكلة المركزية.

أخرج Paul من جيبه بطاقة ذاكرة حاسوبية
صغيرة، ودفع بها إلى أحمد قائلاً:
- افتح حاسوبك المحمول واقرأ محتويات هذه.

وبينما انشغل أحمد بقراءة الخلاصة البحثية،
أخذ Paul يتأمل معالم باريس التي بدت له غريبةً
بعض الشيء .. فالمقهى الشهير الكائن في أعلى برج
إيفل يقَدِّم ميزة الرؤية البانورامية للمدينة من مكانٍ
شاهق الارتفاع، لكن Paul لم يكن مشمولاً بذلك
الاستهداف التسويقي إن صحَّ التعبير؛ كان قد اعتاد
على مناظر بانورامية إلهية أكبر بكثير وأكثر اتساعاً:
السماء.

«يا إلهي» .. (قالها أحمد مشدوهاً). لم يعلق Paul
فقد كان يعلم مدى خطورة دلائل المعادلات والأرقام
الموجودة أمام ناظرَي صديقه، فتركه يكمل.
أشار البحث بوضوح مُثَبَّتٍ علمياً إلى أخطاء في
منهجية الأبحاث التي قالت بطول المدة الزمنية
الفاصلة بين الزمن الحاضر والوقت المتوقع لتوقف
الشمس. فالعقل البشري ليس قوةً كاملة ومطلقة،
إنه محكومٌ بما تلاحظه الحواس البشرية أولاً، وبما
تسجله أجهزة الرصد ثانياً، ثم بطريقته في معالجة
المعلومات للوصول إلى النتائج، وكلٌّ من هذه العناصر
الثلاث من الوارد جداً أن يخطئ. وأفادت خاتمة
الخلاصة البحثية بأن توقف الشمس من الممكن
والوارد جداً أن يكون أقرب مما ذكرته الأبحاث
السابقة، بل إن من الممكن أن يكون قد اقترب
كثيراً. واعتمد البروفيسور Yaghan في استنتاجه هذا،

على اكتشافه لِسِيَّاقٍ نمطيٍّ من التغيّرات الكونية،
أثبت أنه بات يؤثر في الفترة الأخيرة بشكل واضح
باتجاه اقتراب موعد التوقف، الأمر الذي يمكن أن
يتسارع بشكلٍ دراماتيكي في أي لحظة.

- ما الذي يحصل للجهاز! .. (قالها أحمد بصوت مرتفع
قليلاً).

- اهدأ .. هذا فيروس من صنعي أنا؛ وضعته في بطاقة
الذاكرة وبرمجته حسب المدة الزمنية المتوقعة
لانتهاكك من القراءة. عندما ينتهي جهازك من إعادة
الإقلاع، سيكون ملف الخلاصة البحثية قد انمى
كلُّ أثر له من البطاقة ومن جهازك. ولكن زيادةً في
الحيطة، أعطني البطاقة.

- لماذا كل هذا الحرص ؟

- ألم أقل لك إن حياتي في خطر.. لا أريد أن تكون أنت كذلك.

- أوضح يا Paul .. فما قرأته يكفي لجعل حياتي في خطر.

بدأ Paul يحكي القصة من البداية .. وردت في حديث الأستاذين تفصيلات كثيرة؛ منها ما يمكن تأجيله إلى وقت لاحق ... إلى أن وصل السرد إلى الجزء المتعلق بـ جوزيف راجيف.

- وكأنه هندي ... (تساءل أحمد عندما سمع الاسم).

- أمريكي من أصول هندية. هاجر أبواه إلى أمريكا وأنجباه هناك .. كان شاباً رائعاً، وعالمًا ممتازاً .. ومنذفعاً أيضاً.

- كان ! ..

- وجدتہ الشرطة مقتولاً في شقته، وقالوا أنه انتحر ..
لكني أعرف الرجل جيداً؛ وهو ليس من النوع الذي
يمكن أن ينهي حياته بيده .. لقد قتلوه يا صديقي.

- وما علاقته بموضوعنا ؟

- كانت أبحاثه على صليّة وثيقة بأبحاثي، وقد باح لي
بكثير من نتائجه، ونصحته ألا ينشر شيئاً أو يتكلم
مع أحدٍ غيري في هذا الموضوع ريثما تؤكّد النتائج
النهائية، ولكن ماذا أقول .. اندفاع الشباب.

- هل تطابقت نتائجه مع وجهة نظرك ؟

- مائة بالمائة، باستثناء أنني قطعْتُ أشواطاً أبعد مما
توصل إليه، لأنني ببساطة بدأت البحث قبله بسنوات.
ولكنه كان على الطريق الصحيح، ولو أتيح له أن يتابع
لوصل إلى المرحلة التي وصلتُ إليها دون شك.
- وهل نشر شيئاً ؟

- هذا ما تسبب بمقتله على ما أظن ... لقد أرسل مقالةً إلى مجلة علمية معروفة، وكان المقال أكثر من رائع ومحتواه محكم وغير مسبوق، فلم تتردد المجلة بنشره ... وبدأت المصائب تتوالى على رأس المسكين.

- كيف ؟

- ضجة إعلامية، أو بالأحرى حملة إعلامية منظمة ضده. وكأن جهة نافذة وقوية لم تكن تريد أن يتحول الموضوع إلى رعب عالمي ... فقامت بتجنيد عدد كبير من العلماء للظهور على القنوات الإعلامية ونقض وجهة نظر راجيف. والمشكلة أن حجج أولئك المرتزقة كانت واهية، فالغالبية الساحقة من المشاهدين غير مختصين ومن عامة الناس، فتكلم المهرجون كما يحلو لهم ... ولا يخفى عنك مدى تأثير التوابل الإعلامية إذا ما أضيفت إلى طعام فاسد؛ لقد جعلوا من المسكين أضحوكة وسخروا منه بكل

الطرق الممكنة .. رسموا له صورةً في أذهان الناس
وكأنه فقيرٌ هندي من المنبوذين يدور في الشوارع
وينادي بأعلى صوته أن يوم القيامة بات وشيكاً ...
فقط كي يبرروا فيما بعد أنه انتحر.

- وتعتقد أنه قد قُتِلَ ؟

- ليس عندي أدنى شك في ذلك.

- قد يكون تأثر بما يُقال عنه في الإعلام، وانتحر فعلاً.

- مستحيل، أنا أعرف ذلك الشاب جيداً. في آخر
اتصال بيننا قال لي حرفياً أنه سيتابع العمل على
أبحاثه، وسيسعى لإثبات وجهة نظره مهما كلف الأمر
.. بدا لي متماسكاً، وكان كلامه متزاناً للغاية.

- إذا كانوا يراقبونه فلا بد أنهم علموا بأنه أخبرك.

- لقد أخذتُ هذه النقطة بعين الاعتبار. بل إنني، في
بدايات نقاشاتي معه، شككتُ فيه شخصياً أن
يكون مدفوعاً من جهةٍ ما، فلم أقل له أي شيء عن

أني أنا أيضاً أبحث في نفس الموضوع. ورحل الشاب وهو لا يعلم أننا على نفس الخط.

- يبقى الخطر قائماً.

- تماماً، ولهذا أردتُ رؤيتك بأسرع ما يمكن.

- تريد مني أن أشاركك العمل في متابعة البحث، أنا جاهز. أمهلني بضعة أيام فقط كي أرتب أموري.

- لا .. ليس هذا تماماً.

- وإنما ؟

- أحمد، اسمعني جيداً .. لم أقدم استقالتني وأقطع كل هذه المسافة فقط من أجل ..

- (مقاطعاً إياه باستنكار) .. قدمت استقالتك !

- افتعلتُ خلافاً مع المدير حول مسألة تافهة تتعلق بطلب تمويل إضافي لمشروع بحثي تعمّدتُ أن أجعل فكرته تبدو ترفاً علمياً؛ بشكلٍ أضمنُ به رفض المشروع .. وبالغث في تقدير قيمة التمويل ... رفضوه

طبعاً، فتظاهرتُ بأني مستاءٌ جداً. ثم قدمتُ استقالي
فقبلوها بسرعة.

- لم تتغير يا Paul .. لم تتغير.

- ليس هذا كل شيء .. لقد نقلتُ مدخراتي المالية
بالكامل إلى هنا، وكلفتُ سكرتيرتي التي أقنعتها
بالاستقالة هي أيضاً، باستئجار بيتٍ في الريف
الفرنسي هنا، كي أفرغ.

- Paul ... تتفرغ لأي شيء؟ لستُ أفهم.

- اسمع .. أنا متعب للغاية، ولم أنم جيداً ليلة البارحة
.. اعتذرُ عن حضور باقي فعاليات المؤتمر، ونذهب
لعندي.

- (مقاطعاً): الوقت متأخر. لماذا لا تمضي الليلة في
الفندق حيث أقيم .. الغرفة مزدوجة ... ثم إنني لم أُلْقِ
بعدُ محاضرتي في المؤتمر، وموعدها غداً في الثانية
عشرة ظهراً .. تستمع إلى المحاضرة ثم أعتذرُ عن

حضور باقي الفعاليات كي أتفرغ لك .. لن أقبلَ أعذاراً ..
هيا، فالفندق قريب.

- موافق، على أن نستيقظ باكراً .. سأخذك أولاً إلى
مكانٍ لا تعرفه في باريس، ثم نذهب إلى المؤتمر.

سارعَ أحمد إلى مناداة النادل كي يدفع الحساب،
حسب العادة العربية، فابتسم Paul قائلاً: «وأنت أيضاً
لم تتغير يا صديقي» .. همَّ أحمد بقول شيءٍ ما، إلا أن
رنين هاتفه قاطعه.

استغل Paul الفرصة ودفع الحساب مشيراً إلى
صديقه بحركة دعابة مؤداها أنه سبقه هذه المرة.
لكن أحمد الذي كان يتحدث مع المتصل بالعربية،
كان وجهه قد تغيرَ وبدا عليه الانزعاج وهو يضبطُ
طبقةَ صوته ... وكأنه يتحدث باحترام مع شخصٍ
أكبر منه سناً.

- هل كل شيء على ما يرام ؟ (سأله Paul).

- أمرٌ عجيب وخطير .. هذا والدي، وقد أخبرني أن أحد أصدقائه اتصل به لينبهه أن هواتفنا الفضائية ربما كانت مستهدفةً بمحاولة اختراق بهدف التنصّت. أنت تعرف أصدقاء أبي.

- تنصّت ! .. أنت لم تستعمل هاتفك خلال جلستنا.

- هنا المشكلة .. صديقه الذي يملك شركة اتصالات كبرى، وكلُّ خطوط هواتفنا تتبع لها، قال أنهم أبطلوا محاولة تنصّت فائقة الدقة هدفها الاستماع لما يدور في محيط الجهاز، حتى لو كان في غير حالة اتصال. انشغل بال الوالد وسألني عما أفعله حقيقةً في باريس .. تصوّر!

أجاب Paul بِلَكْنَةِ أمريكية محلية:

Welcome on board, my friend.

الفصل الخامس

هل يصل الحرص على كتم الحقائق إلى حدّ قتل إنسان؟! مَنْ المتضرر من نشر رؤية علمية جديدة تتعلق بأمرٍ يهمُّ البشرية جمعاء، حتى لو كانت في طور المناقشة الأولية؟ هل هنالك مَنْ يريد للنوع البشري أن يبقى مخدّراً تائه العقل؟

سببت هذه الأسئلة دَوِيّاً مزعجاً في أرجاء عالم أحمد الداخلي فقلقلت هدوءه .. على الرغم من أنه ظلّ صامتاً تقريباً طيلة الطريق من وسط العاصمة الفرنسية إلى البيت الريفي، برفقة صديقه في سيارة أجرة.

البروفيسور Yaghan هو الآخر، مارس نفس النوع من الصمت الظاهري، وهو يتأمل معالم الريف الباريسي عبر نافذة السيارة. صَجَّتْ في داخله

تساؤلاتٍ أعمق مما كان في ذهن صديقه الذي لم يسمع بعدُ كلَّ ما في جعبته .. ولم يتشكَّل لديه، حتى اللحظة الراهنة، تصوُّرٌ أولي عن شكل لوحة الـ Puzzles التي كان Paul يحاول تجميع أجزائها منذ سنوات.

- لديك مُعجبون يا بروفيسور (قال أحمد مشيراً بيده إلى مكانٍ على جانب الطريق).

التفت Paul إلى حيث أشار أحمد، فلمَح لافتةً كُتِبَ عليها اسمه بخط اليد وعُلِّقَتْ على بوابة بيتٍ قديم بطريقة مرتجلة. عرف خطَّ يدِ إستر، فأمر السائق بالتوقف، نقدَهُ أجرَةً باهظة كما هو متوقع ... «هذه باريس» .. ثم ترجَّل وأحمد من السيارة.

- ألا تعرف العنوان؟! (سأله أحمد مشيراً إلى اللافتة).

- ليس بدقّة .. إستر سافرت قبلي بأيام وأعدت كل الترتيبات.

- إستر ..

- سكرتيرتي ومساعدتي الشخصية منذ أعوام.

اللمسة الأنثوية في ترتيب أي مكان، لا تخفى على رجل؛ خصوصاً إذا كانت المرأة التي قامت بالعمل مديرة عواطفه .. يعرفه فوراً، ويتغزل به قلبه كأنه يتغزل بها، حتى لو لم تنبس شفتاه بكلمة. لم تنس إستر أن تضع بعض نباتات الزينة على جانب الباب، على الرغم من أن الحديقة المحيطة بالبيت القديم كانت حافلة بأنواع متعددة من الزروع .. مهملة، نعم ... لكن حفرة صغيرة على مسافة قريبة دلّت على أنها بدأت أيضاً بالتحضير للمساهمة بزرع ما في الحديقة. وأما الترتيبات الأهم فكانت في الداخل.

نظر أحمد إلى غرفة الاستقبال بطريقة تختلف تماماً عن طريقة Paul الذي كان مذهولاً ... ففي ركن

من الغرفة وُضِعَتْ أريكةٌ حديثة شديدةُ الشبه
بأريكة القراءة الخاصة به، وكأن الذي صمّمها
حَرَصَ على نقل أدق التفاصيل.

حتى بعض الأمور الصغيرة التي لا يلقي الرجال
لها بالاً في العادة، بذلت المرأةُ الخبيرة جهدها لكي
تجعل من إضافتها إلى المكان ... وترتيبها في أماكن
شبيهة بمواضعها في غرفة جلوس Paul بمنزله في
أمريكا، نوعاً من التخفيف من غربة المكان .. نوعاً
من الحميمية التي تتقن كلُّ امرأةٍ حكيمة فنَّ الإيحاء
باستمراريتها ما دامت العلاقة التي تربطها بِرَجُلِها
مستمرةً هي الأخرى.

بعضُ صورٍ لها تاريخ .. وشهاداتٌ مؤطرة عُلِّقَتْ
على الجدار .. وفنجان القهوة الأمريكية في مكانه
تماماً حيث يضعه Paul عادةً على المنضدة الصغيرة إلى
جانب أريكة القراءة ... وابتسامة مشفوعة بعطرٍ

حفظته حواسُ العاشقِ عن ظهر قلب .. النتيجة:
عناقٌ حار وقبلة طويلة تختصر كلاماً كثيراً.

تَمَعَّرَ وجهُ أحمد، وَغَضَّ بصره ريشما ينتهي
الترحيب .. انتبه الحبيبان إلى أنهما ليسا لوحدهما،
فانبرى Paul للقول:

- إستر .. هذا أحمد نادر صديقي .. أحمد، أقدم لك
إستر.

«أهلاً بك يا بروفيسور»، قالتها إستر دون أن تُمَدَّ
يدها بالمصافحة .. «أتوقع أنك لا تصافح» .. ردَّ أحمد
باختصار: «أهلاً».

«متى وجدتِ وقتاً لكل هذا؟»، سألها Paul وهو
يداعب خصلات شعرها .. نظر أحمد إلى ساعته
وكأنه يلَمَح إلى ضيق الوقت المتبقي للمحاضرة،
فانتبهت إستر من طرفٍ خفي .. «إذا أردتما شيئاً، فأنا
في الحديقة»، قالتها وانصرفت.

الأولويات المحددة سلفاً لا تتطابق دوماً مع ما يُلحَّ على الذهن. ففي حين كان أحمد متلهفاً على الاستزادة من نتائج صديقه في موضوع اقتراب الوقت المتوقع لتوقف الشمس، كان Paul يتحرق شوقاً لمعرفة المزيد عن أمورٍ أخرى. وهذا متوقع، فـ Paul الذي أمضى سنواتٍ من عمره وهو يدرس العوامل المؤثرة على طول المدة الفاصلة بين الزمن الحاضر وتوقيت بدء الكارثة، صار الموضوع بالنسبة إليه نوعاً من تحصيل الحاصل، وكأنه استسلم لفكرة أنها ستتوقف سواء استطاع إثبات أن توقفها قريب أو قريب جداً. وأحمد الممتلئ بثقافته الإسلامية بالآيات الكريمة وبالأحاديث الشريفة عن أشرار الساعة، والذي نشأ وحوله خاله عبد القادر وزملائه وتلاميذه من طلبة العلم ... كانت الغيبات المتعلقة بأحداث آخر الزمان بالنسبة إليه أيضاً، أموراً ستحدث سواء

استطاع لَمْ شتاتِ المعلومات المتعلقة بها في ذهنه
ضمن سياقٍ منتظم، أم لم يستطع.
وعندما باح كُلُّ منهما للآخر بمكنون نفسه،
واتضح اختلافُ الأولويات التي تُلحُّ في الأذهان، صار
لزماً حَسْمُ المسألة بتوحيد صفرٍ للقياس ...
قال أحمد:

- هل تستطيع أن تؤكد لي بشكلٍ قاطع، أن توقُّفها
قريبٌ زمنياً ؟

- لا .. كل ما أستطيع أن أوَّكده حتى الآن، هو أن
تقصيراً كبيراً قد أُخلَّ بالأبحاث التي تناولت عوامل
التأثير على تلك المدة الزمنية .. سَمَّه يوماً على الحرير
إن شئت.

- لقد أثبتت ذلك حسبما أطلعتني عليه في الخلاصة.
ولكني أريد أن أعرف أكثر .. هل حاولتَ تحديد المدة
الزمنية؟

- طبعاً .. وما أزالُ أعمل على ذلك، ولكن هنالك ما هو أهم.

- لأول مرة في حياتي أرى أمريكياً مهووساً بنظرية المؤامرة أكثر منا نحن العرب .. ما قصتك مع أولئك الذين لا يريدون للعالم أن يعرف ... يا صديقي قد يكون راجيف انتحر فعلاً .. قُتِلَ عَرَضاً .. لِصٍّ ما حاول سرقة فقتله.

- أنت الذي أوحيت لي بأن هنالك ما هو أكثر أهمية.
- كيف ؟

- حسناً .. جلسة عَصْفِ ذهني وتبسيط للأمور ..
هل ستتوقف الشمس ؟
- ستتوقف.

- إذا كانت ستتوقف غداً، أو بعد تريليون سنة .. هل تستطيع البشرية مجتمعة أن تُطيل هذه المدة، أو هل تستطيع أن تجعلها أقصر ؟
- لا.

- الآن .. هل يمكن أن يكون للبشر تأثيرٌ ما على الأحداث التي تقع (قبل) توقف الشمس؟
- أيضاً لا.

- بلى، يمكن.

- كيف؟

- باختلاق ظروفٍ مُهَّدة لما يُظَنُّ أنه سيحصل.
- أَوْضِحْ.

- لنفترض أننا، أنا وأنت .. كُلُّ مِنَّا عائلةٌ كبيرة في مدينةٍ ما .. معتقداتنا الدينية متباينة، وبيننا خلافات .. لكن ما يُوحِّدنا أن كلاً مِنَّا يعتقد بأنه مهما تناحرنا على الآراء أو على المصالح .. ففي النهاية، سيأتي رجلٌ إلى هذه المدينة وينصر طرفاً مِنَّا على الآخر أنا أقول أنه سينصرني .. وأنت تقول أنه سينصرك.

- أكمل.

- وكلُّ مِنّا يعتقد أنه على حق ... السؤال: خلال فترة الانتظار، أي ريشما يأتي ذلك الرجل .. ما الذي يفعله الطيّبُ مِنّا .. وما الذي يفعله الشرير ؟
- كلُّ واحدٍ مِنّا سيحاول كسبَ مزيدٍ من الناس لطرفه.
- كلامك صحيح، لكن تنقصه التفاصيل.
- ومنك نستفيد.

- هل لدى الطيّب عادةً، ما يخفيه ؟

- مبدئياً، لا.

- والشرير ؟

- سيخفي سيئاته والمصائب التي قام بها.

- يا صديقي، لقد بدأت تفهمني .. اسمعني جيداً، فعندي مداخلة طويلة حسب الترتيب الزمني الذي يعتقد به أتباع الديانات الثلاث: اليهودية والمسيحية والإسلام؛ فإن عودة السيد المسيح إلى الأرض ستكون (قبل) نهاية العالم. وبصراحة، فأنتم

تقولون أنه سيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع
الجزية وأنكم ستنتصرون ... ونحن المسيحيون نقول
أنه سينصرنا عليكم؛ أنتم البرابرة المتوحشون الذين
تقطعون الأيدي وترجمون الناس بالحجارة حتى الموت
... واليهود يقولون أنه سينصرهم على البهائم جميعاً،
أي علينا وعليكم ... حتى الآن لا شيء تحت
الطاولة، والكل يجاهر بما يعتقد .. صحيح؟

- صحيح.

- التمايز بين الطيب والشرير، يبدأ عندما يحاول
أحد الأطراف أن يخفي شيئاً .. أو أشياء ... إلى درجة
أنه على استعداد للقتل والذبح كي يخفيها، فيكون هذا
الطرف قطعاً هو الشرير.

- دون شك.

- وأما الطيب .. فصحيح أنه يحاول - مثل الشرير -
كسب الناس إلى طرفه، وذلك عبر الحجة والإقناع،

وأحياناً التسويق ... لكنه صريح .. علي .. واضح، لا يخفي شيئاً.

- وهذا صحيح أيضاً.

- سؤال مركزي .. بتقديرك، هل ذلك الذي قتل راجيف .. سواء كان شخصاً أو جهةً متنفذة أو أية مصيبة سوداء أخرى .. هل قتله فقط كي يخفي موضوع قرب توقف الشمس بِحَدِّ ذاته ... أم أنه قتله كي لا يثير بلبلة تفتح عليه باباً لن يستطيع إغلاقه ... كيف، ومتى، وما الذي سيحدث قبل ذلك .. وبعد ذلك ... هل كانوا يحاولون إخفاء حقيقة موجودة علناً على صفحة الإنترنت الخاصة بـ NASA مع فارق واحد هو المدة الزمنية المتوقعة، أم أنهم خافوا من سقوط أحجار الدومينو تبعاً حتى تصل إليهم ؟

- كاستنتاج نظري .. هم خافوا من انهيار أحجار الدومينو.

- أحجار الدومينو هذه .. ليست من صُنِعَهم .. ليسوا هم مَنْ قاموا بِصَفِّها بهذا الترتيب. لكنهم ببساطة يعرفون أن تساقطها تَباعاً سيوصلُ إليهم .. سيكشفهم .. سيكشف شيئاً ما مخفياً عن الناس.

- وَمَنْ الذي صنعها ؟

- الله.

- لا تؤاخذني، لكنكم أحياناً عندما تقولون: God، إنما تَعنون الـ..

- لا .. لا .. بل أعني الله الخالق. ثم .. توقف لو سمحت عن مخاطبتي وكأني ملحد.

- طيب ... وأحجار الدومينو ؟

- أحجار الدومينو هي الأحداث؛ أحداث آخر الدنيا ..
الأشراط الكبرى .. التي تُسَمُّونها أنتم حَبَّات السُّبْحَةِ
التي إذا انفطرت عقدُها، تتالت تَباعاً وسرعة.

- إذن هم يحاولون تأخيرَ ما لا يستطيعون تأخيرَه.

- لن أستطيع تخمين ما يحاولون إخفاءه، أو تأخيرته، أو حتى إبطاله إذا استطاعوا .. إلا إذا فهمت طبيعة أحجار الدومينو، وطريقة اصطافافها، ونمط تتاليها، وتوقيت سقوطها ... عندها فقط أستطيع أن أفهم .. أن أعرف الإجابات على كثير من الأسئلة.

- اعذرني ولكن .. أنتم أيضاً لديكم نسختكم الخاصة، إذا صحَّ التعبير.

- واليهود لديهم نسختهم الخاصة أيضاً ... لكن السؤال الذي طالما أرَّقني: مَنْ مِنَّا الذي لا يُخفي شيئاً أبداً .. مَنْ مِنَّا الواضح والصريح والعلني .. مَنْ مِنَّا الذي يستحق أن أجعله مصدرَ معلوماتي الموثوق الذي أستقي منه، فأفهم ؟

- وهل عرفتَ الإجابة ؟

- عرفتها عندما قُتِلَ راجيف .. فمن المستحيل أن تكونوا أنتم الذين قتلوه.

- والدليل ؟

- لأن بحثه يزيد وجهة نظركم إثباتاً .. من الممكن أن تدعموه، لا أن تقتلوه.

- من إذن ؟

- لستُ أدري .. لكنهم قطعاً .. قطعاً .. يدينون بدينٍ ما .. بِمُعْتَقِدٍ ما .. لا علاقة له ببناء، ولا بكم، ولا باليهود.

- مع تحفُّظي على بعض أجزاء كلامك، إلا أنه يبدو منطقياً.

- أنا أعرف جيداً موقفكم من اليهود .. دَعْنِي أتابع.
- تفضّل.

- أياً كان الشيء الذي حاول قاتِلُو راجيف أن يخفوه، فهو يقع زمنياً في الفترة التي (قبل) توقف الشمس .. أو أن له علاقةً بشيء ما .. بمصيبةٍ ما .. تقع قبل توقُّفها.

- وهكذا ؟

- وبما أنني أعرف أدق التفاصيل المتعلقة بأحداث آخر الزمان حسب الروايتين اليهودية والمسيحية، فإن أركان دراستي المقارنة، إذا صحَّ التعبير، لن تكتمل إلا إذا تداركتُ النقص .. أي: إلا إذا فهمتُ ما الذي تقولونه أنتم المسلمون.

- ولهذا أتيتُ بي إلى هنا.

- فعلاً .. والآن يا صديقي، ما رأيك أن نتخذ قراراً بالآلا نفكر بشكلٍ طفولي؟

- ما الذي تعنيه ؟

- لِنَدْعُ موضوعَ الشمسِ للنهاية .. لأننا إذا بدأنا به، فسنكون كمن يمسك برواية ليقرأها بادئاً من الفصل الأخير .. دعنا نفتح الكتاب كما ينبغي؛ من المقدمة.

- هاتِ ما عندك.

- اسمع .. بما أن كلامكم عن الشمس صحيح ..
- (مُقاطِعاً): ليس كلامنا.

- آسف .. بما أن ما ورد في القرآن عن الشمس
صحيح، فماذا لو كان الباقي كله صحيحاً؟

- يا صديقي أنا أقدر الظروف التي تمر بها، والتي
اكتشفت منذ دقائق أني والبشرية جمعاء نمر بها،
ولكننا كمسلمين معتقدون اعتقاداً يقينياً بأن الباقي
كله صحيح. بل إن واحداً إذا لم يصدق بآية واحدة من
القرآن الكريم، يصبح كافراً.

- لستُ أتحدث هنا عن القرآن فقط، بل عن كلام
محمد.

- (بالعربية): صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

- هل تتذكر كم تناقشنا خلال وجودك في أمريكا
عن آخر الزمان ونهاية الحياة على الأرض، وكيف
كنتُ .. عذراً .. أسخر وأتندر؟

- وهل يُنسى ذلك؟!

- كنت أدون وأوثق كل حرفٍ نطقت به.

- (ممازحاً): ألم تصورني أيضاً ... لم أعرف أنك تعمل في المخابرات.

- لا .. ولكني رجل عِلْم ... ويتوجب عليّ كما تعلم ألا أغفل احتمال أن تكون أيُّ معلومةٍ لها حظٌّ من الصحة. ثم إن ما كنت تُورِدُهُ من معلومات كان خطيراً ومُطابقاً لاكتشافات علمية ... السماء عندما تصبح وردةً كالدهان .. والظلمات الثلاث التي يمر بها الجنين البشري ... إلى آخر ما هنالك. إلا أنني لم أكن أتوقع ..

- ماذا ؟

- لم أكن أتوقع أنني بعد سبعة عشر عاماً سأصل إلى نتيجة مفادها أن الأمر أصبح أقرب إلينا مما نتصور .. أحمد صدّقني أنني أشعر وكأنني أستيقظ من حلم يقظةٍ طويل، كنتُ خلاله أمارس اللاشيء، ثم صحوْتُ

فجأة على وَفْع مفاجأة هزت كياني. هذا شعوري الآن،
وكأصدقاء يجب أن تساعدني.

- أنت تعرف جيداً أنني جاهز لأي طلب. وسأقولها لك
كما تقولونها أنتم الأمريكيان: ما الذي تريده مني
تحديداً؟

- نحن في الصيف، وتستطيع أخذ إجازتك السنوية
من الجامعة، أليس كذلك ؟
- بلى.

- أريد أن تمضي كل إجازتك السنوية معي هنا ... في
باريس .. بعيداً عن الجامعة والأبحاث والطلاب، كي
أفهم.

- ما الذي تريد فهمه بالتحديد ؟
- أريد أن تعيد عليّ سردَ كلِّ التفاصيل التي وردت في
الدين الإسلامي عن علامات آخر الزمان؛ أعني ..
بالتفاصيل المملة مهما كانت صغيرة.

- والغاية ؟

- أريد أن أُخْضِعَ كل ما سأسمعه منك لميزان العلم،
تماماً كما فعلتُ مع قصة توقف الشمس .. لكن
بالمشاركة معك؛ أي أننا سنعمل على ذلك سوياً.

- أنت لم تُجِبْ عن سُؤالي. ما قصدتهُ هو: لماذا ؟ .. لماذا
تريد أن تسمع مني أموراً سبق لي أن أخبرتكُ بها، وكنتَ
تسخر منها.

- لأنني بدأتُ أشك أن على هذا الكوكب مَنْ لا يريد
للحقائق الكبرى أن تظهر للعلن وتعرفها البشرية
جمعاء.

- نظرية المؤامرة مرة أخرى .. ما القصة يا صديقي .. هل
أصبتُك بالعدوى ؟!

- أولئك الذين حوّلوا راجيف إلى مسخرة ثم قتلوه
عندما لم تُجِدِ نفعاً محاولاتهم لإسكاته .. هم على ما
أظن نافذون جداً، بدليل محاولتهم لاختراق جهازي

الحاسوبي مرتين، على الرغم من كل أنظمة الحماية .. ثم

لا تَنْسَ قبول استقالي دون تردد .. فما جوابك ؟

- ليست هذه أول مرة أوافقك فيها على شطحاتك العلمية .. موافق طبعاً.

- جيد .. لديّ اقتراحٌ حول النقطة التي نبدأ منها، بعد أن نعود من محاضرتك.

- لا تطلب مني أن أبدأ بالأشراط الصغرى فهي كثيرة، وإذا بدأنا بها فستستغرق وقتاً طويلاً.

- إذن أسألكَ عنها كلما ذكرت شيئاً منها .. أفضل

البدء بالأشراط الكبرى ... وبما أني أذكر جيداً أن

الترتيب الزمني للأحداث الكبرى ليس واضحاً

بالكامل في نصوصكم؛ حسبَ ما أخبرتني أيامَ زمان

.... فلماذا لا نبدأ من الحدث الأقدم زمنياً ؟ من

الحدث الأقدم والأكثر أهمية ؟

- ألا وهو ؟

- أريد أن أسمع منك ثانيةً، قصة ذلك الراهب المسيحي.

- الراهب بحيرى، أو سرجياس كما تسمونه، هنالك أقوالٌ تُشكِّكُ بقصته .. لعلك تعني ورقة بن نوفل.

- لا هذا ولا ذاك .. أريدك أن تُقصَّ عليَّ مرةً ثانية قصة الراهب الذي رأى الأعورَ الدجالَ رأيَ العين، وتحدّث إليه ... الراهب المسيحي .. ماذا كان اسمه ؟
- تميم.

- ماذا ؟

- تميم .. تميم الداري، رَضِيَ اللهُ عنه وأرضاه.

الفصل السادس

صَمَّتْ إِسْتِرَ أَصَابِعَهَا وَهِيَ تُسَوِّي التُّرَابَ الْمُشْبَعَ
بِالماء حول ساق النبتة .. ضغطت بِرَاحَتَيْهَا على الطين
بعناية، وحرصت على كتم الهواء عن الجذر. خطر لها
لوهلة أَنْ تسقي بِمزيدٍ من الماء، لكنها عَدَلَتْ عن
الفكرة .. «هذه الفصيلة تتحمل قِلَّةَ الماءِ وملوحته».
وقفت تتأمل نتيجة العمل قليلاً، ثم استدارت
وتوجَّهت نحو الداخل.

في الحَمَّام، كانت درجة حرارة الماء في السَّخَّان قد
بلغت حدًّا مناسباً. انتظرت ريثما يمتلئ الحوض
المصمم على طرازٍ قديم، ثم أخذت تنهياً للاستحمام.
علاقة المرأة بِجسدها، لا يفهمها كثيرون. إنها
تجسِّدُ لِمَدَى التوافق مع الذات، وأحدُ تجلِّياتِ مدى
فهم المرأة لهويتها الحقيقية. فمجرد اعتبار الجسد

عنواناً أُوحد للهوية، إنما هو بداية النهاية؛ إذ لا يعود
للأدمية مكانٌ في المعادلة. وعندئذٍ يبدأ الانحدار ...
من مرحلة السلعة القابلة للبيع والإتجار، بشكلٍ
مباشر أو غير مباشر، ثم التدرج نحو احتقار الذات،
فالانهيار أخيراً إلى حضيض كراهية الذات والآخرين
والدنيا بأسرها.

وسواءً كان سببُ ذلك الظنُّ الخاطيء، سوءَ تربيةٍ
من الصغر، أو مصادر مشوّهة للمعارف؛ من قبيل
تراث الثروات النسائية الشعبية التي يتم تناقلها من
جيلٍ لآخر، أو حتى معتقدات فاسدة تَبُّتْ في ذهن
طفلةٍ بريئة أن «هذا قَدْرُكَ وَقَدْرُكَ» .. فإن النتائج على
صعيد المجتمع ككل، كارثية.

بَيَدَ أَنَّ المصيبة الأكبر، أن يتمَّ إيهامُ هكذا امرأةٍ
وصلتْ إلى حَدِّ مَقْتِ كُلِّ شيءٍ، بأنها إذ تبيع جسدها
وتُبِيحُه، إنما تخدم قضيةً كبرى. عندئذٍ يصل

التناقض إلى ذروته .. «كيف تكون كلُّ هذه الدناءة مهمةً نبيلةً وعظيمةً؟!».

تأمّلتُ إستر انعكاسَ صورةِ جسدها على المرأة ..
بدا وجهُها وكأنه لا يُعبّرُ عن شيء؛ جمودٌ باردٌ لم تُفْلِح
حرارةُ الماءِ التي بدأت تشيعُ في غرفة الحَمّام، في أن
تغيّر منه شيئاً. أَلَيْسَتْ القسوةُ والبرودةُ من علائم
الموت ؟! .. تلك كانت حالةُ قلبِ إستر.

وبدا الاهتمامُ، كما هي العادة، بأدقّ التفاصيل،
عنايةً وتحضيراً، لكن بشكلٍ آليٍّ وكأنه تَكَرَّارٌ لا
رُوحَ فيه. «التظاهر المستمر بالحب لا يتحوّل إلى حُبٍّ
حقيقيٍّ، ولو بعد ألف سنة» .. دفعت الفكرة التي
خطرت لها، بمزيدٍ من الدَّعْكِ العنيف لأطرافها،
وكانها تنتقم.

«خالتي Claire»، همستُ إستر في داخلها ... تُرى
هل تدري امرأةٌ خبيرةٌ حَفِظَتْ مفرداتِ الحُضِيضِ

عن ظَهْرِ قَلْب، أنها فيروس؟! وهل خطر لها يوماً أن
الطفلة الصغيرة التي طالما استمعت لمحاضراتها في
الحمام، أنها ستتحول يوماً إلى مُحاضرة في جامعةٍ
مترامية الأطراف اسمُها المتداول: المجتمع .. واسمُها
الحقيقي: بيتُ الدعارة الكبير.

حتى Paul لم ينتبه يوماً، طيلة تلك السنوات، إلى
تلك النظرة .. إلى التعبير الذي يأبى الوجهُ البشريّ إلا
أن يرسمه ولو من طرفٍ خفيّ ...

شيءٌ ما أشبهُ بمزيج من القرف من الذات
والقرف من الآخر. والمشكلة أنه قرُفٌ معنويّ،
فالروائح التي تلتقطها الأنوفُ كُلُّها زكيّةٌ، والبياضُ
ناصعٌ والنظافةُ على أتمّ ما يكون .. بينما السّوادُ
القاتمُ في الداخل.

حتى الحركات والكلام، تصير مع الزمن متقنة
الأداء، إلى درجة أن Paul كثيراً ما كان يغيب عن

الدنيا، فكانت تلك النظرة، التي تخاف إستر من أن يلتقطها وعي صاحبها ولو لثانية، تغيب عنه هي الأخرى.

إستر التي لم يَقُلْ لها أحدٌ أبداً، لا في طفولتها ولا أثناء مراهقتها، أن جسدها عنصرٌ واحدٌ فقط من كيانه، وأنَّ ذاتها لا تتلخص في مجرد جسد .. لم تكن تعرف فعلياً لِمَن تتزيّن ... هل تتجمل لـ Paul، أم أن دخول رجلٍ جديد إلى الساحة قد جعل منه هدفاً محتملاً؟!

«جهّزي غرفةً لأحمد. سيقوم معنا لفترة» ... حتى رسائل Paul إليها عبر الجوّال، تأخذ شكل أوامر معطاةٍ إلى جارية ... «أجهّز له غرفته ! .. بقي أن يقول لي: قومي على خدمته كما ينبغي».

تُرى هل سينظر إليها أحمد مثل صديقه؛ على أنها مصدرٌ إشعالٍ ثم آلةٌ إطفاء، لا أكثر ولا أقل؟

«إلى متى؟» تساءلت وهي تضع اللمسات
الأخيرة ...

«هل يمكن أن أركل بِقدمي، في يومٍ ما، كلَّ أكاذيبِ
خدمة القضية الكبرى، وأستعيدَ ما تبَقَّى من كرامتي،
هذا إذا بَقِيَ منها شيء ... أم أنَّ العرب مُحَقُّون في
أمثالهم .. دخولُ الحَمَام ليس كالخروج منه».

الفصل السابع

لم يُضِع الأستاذان وقتاً بعد عودتهما من محاضرة أحمد في المؤتمر. أخذ كُلُّ منهما حماماً سريعاً بعد أن دَلَّت إستر الضيف على غرفته، ورافقت Paul إلى غرفتهما المشتركة، ثم عاد الرجلان للاجتماع في غرفة الجلوس.

قِلَّةٌ قليلةٌ جداً من سكان هذا الكوكب، كانت على علم بأن نقاشاتٍ تدور في بيتٍ ريفيٍّ قديم بضواحي باريس، إنما كانت أولَ حوارٍ علميٍّ يتناول، بشكلٍ جادٍ، نهايةَ الحياةِ على الأرض ... عددُ أفرادِ القِلَّةِ المذكورة لم يكن يتجاوز عددَ أصابع اليد الواحدة.

كان أكثر من سبعة مليارات إنسان يمارسون حياتهم اليومية الاعتيادية، دون أن تدري غالبيتهم

بأن الغاية العظمى من الخلق قد اقتربت جداً، وبشكل متسارع، من مرحلة ظهور حقائقها الكبرى واضحة جليّة؛ لا لبس فيها ولا غموض.

«إن كتاباً وَرَدَتْ فيه حقائق علمية بهذا الوزن، لم تتمكن البشرية من التحقق منها إلا في القرن العشرين، لا يُعَقَّلُ أن يكون من تأليف بشر ... يستحيل أن يكون قائل هذا الكلام عربياً أمياً، وُلِدَ في صحراء السعودية منذ أكثر من أربعة عشر قرناً»

طالما ألحَّت هذه الفكرة على ذهن Paul، فباح لأحمد بأجزاء منها وأضمر أخرى ...

«بل إن كلام نبيهم مع أصدقائه، ومع الناس عموماً، يُخَضِّعون رواية نُصُوصِهِ لِمِيزَانٍ علميٍّ شديد الدقة، لم تعرفه أيُّ حضارة سابقة .. ثم إذا فرضنا

جدلاً، أنه نقلَ معلوماتٍ كونيَّةً عن غيره من البشر،
فلماذا لم يَقُلْ ذلك الـ (غير) تلك المعلوماتِ الخطيرة
وينسب المجدَ العلميَّ أو الغيبيَّ لنفسه ١٩؟».

أخذَ أحمد بيِّد Paul وهما يُبحران في محيط علوم
الحديث الشريف، ودرجاتِ الثقة بالرواية، وعلم
الجرح والتعديل. ووَصَلَ الذهولُ بِـ Paul إلى درجة أنه
اقترح جدياً على أحمد أن يحاولا وضعَ خوارزميةٍ
رياضية يتم تلقينها للحاسوب، بحيث يمكن أتمتة
علم الرجال. ثم أُجِّلَت الفكرة، لأنها تحتاج إلى جهدٍ
مؤسسي ووقتٍ طويل، لكن Paul أضافها كملاحظة
إلى الملف 273.

مشاكلُ ترجمةِ مصطلحات علوم الحديث، لم
تكن شيئاً يُذكر أمام ترجمةِ كلماتٍ من نوع آخر، هي
تلك التي تتواجد أحياناً بين ثنايا بعض النصوص
القديمة مما لا يَسْهُلُ ترجمته فوراً للإنكليزية، حتى

أن أحمد كان كثيراً ما يضطر إلى رواية معنى النص بشكل يقربه من الفهم المباشر... بعض النصوص التي اشتملت على قصص الأمم السابقة، أو على أحداث تاريخية.. اضطر أحمد إلى سردها بكلمات سهلة على شكل حكاية، مع الحرص طبعاً على عدم تغيير المعنى.

كان مجال الحركة أمام أحمد واسعاً، فقط فيما يتعلق بالحديث الشريف، الذي يُسمَح بنقل فحواه معنىً، دون الالتزام بكلمات النص الأصلي. وأما آيات القرآن الكريم، فكان يلجأ بخصوصها إلى الاستعانة بكتبٍ مُعتمدة قام مترجمون ثِقَاءٌ محترفون بنقل معانيها، فضلاً عن ترجمات التفاسير ومقالات الإعجاز العلمي وأبحاثه.

وعلى الرغم من أنها جلسة العمل الأولى، إلا أنها استمرت لساعات طويلة ... ولم تنقطع إلا عندما أعدت إستر طعاماً، ومارست سُلطتها في جَعْلِ

الرَّجُلَيْنِ يتوقفان عن النقاش أثناء تناوله، بشكلٍ شبه إجباري.

حتى في فترة الاستراحة بعد الغداء، كان سؤال واحد طرحه Paul، كافياً لمعاودة النقاش بنشاطٍ أكبر ... وكأنه لم يتوقف.

- إذن سينزل على تلك الـ .. ماذا سمَّيَتْها ؟

- المئذنة الشرقية، أو المنارة الشرقية إذا أردت.

- في دمشق ؟

- صحيح، وما لكَ تقولُها هكذا ؟

- لا أبداً .. أعني ...

- ماذا ؟

- يعني ليس على جبل الزيتون في إسرائيل ؟

- بما أننا متفقان على أنه سيعود، دَعْنَا الآن نترك

موضوع المكان، أو نؤجل الحديث عنه .. سواءً نزل في

فلسطين أو في دمشق، فهو بكل الأحوال، سيعود ..
عليه السلام.

- كلما ذكرت المسيح تقول: عليه السلام، لماذا؟

- لأنني مؤمنٌ به.

- (ممازحاً): هل نذهب إلى الكنيسة لتعلن اعتناقك

المسيحية؟

- أنا جادٌ في ما أقول.

- كيف؟

- كمُسْلِم، إذا لم أؤمن بأن المسيح عيسى ابن مريم
رسولٌ من الله تعالى، يكون إيماني ناقصاً.

- حقاً؟

- طبعاً .. حتى أننا يجب أن نؤمن بكل الرُّسُلِ دون
تفريق.

- كأنك تُلَمِّحُ إلى أننا لا نؤمن بمحمد.

- (بالعربية): صلى الله عليه وسلّم ... It's your choice.

- بمعنى؟

- لَكَ مطلق الحرية في أَنْ تَؤْمِنَ بِهِ أَوْ لَا تَؤْمِنَ.
- ولكن بعد الآية التي تعطيني هذه الحرية في
قرآنكم، تأتي الآية التالية مباشرة لتقول أَنَّ الذي لَا
يُؤْمِنُ سيدخل جهنم.

- صحيح .. لأنه من غير المعقول أَنْ يَضَعَكَ اللهُ أَمَامَ
خِيَارَيْنِ كَبِيرَيْنِ يتوقف مصيرُكَ على اختيارِكَ الحُرِّ
لواحدٍ منهما، ثم يترك لعقلك الذي خلقه فيك
محدوداً، أَنْ يختار ثم تتحمَّل مسؤولية اختياره، دونما
توجيهٍ إلهيٍّ ودون ترشيده.

- التوجيهُ إجبارٌ.

- بل هداية.

- كيف؟

- لنفترض أَني وضعتُكَ على مفترقِ طرقٍ، أَمَامَ طَرِيقَيْنِ
لَا ثالثَ لهما، وتركتُكَ لَكَ حرية الاختيار تاماً، فأيهما
ستختار، وعلى أي أساس؟

- أَفَكَّرُ .. أَغْمِلُ عَقْلِي، وَأَحْسِبُ الاحتمالات. وعندما ترجح كفة أحد الاحتمالين، وأرى أنه أقرب إلى الصواب، أتخذه.

- فإذا وجدت في آخر الطريق الذي اخترته بعقلك، سداً يمنعك من المتابعة، أو هاويةً سحيقة .. مَنْ ستلوم؟

- سألوم نفسي، لأنني لم أكن دقيقاً في حساباتي.

- وما هي الاعتبارات التي شككت قرارك؟

- كل ما هو موضوعي.

- تعني: كل ما هو محسوس؛ مرئي ومسموع .. إلخ.

- لا .. وكل ما هو معقول على صعيد الرياضيات المجردة.

- وخارج حدود العقل؟

- يا أحمد، لا شيء خارج حدود العقل .. المسألة مسألة وقت فقط.

- ماذا تعني ؟

- أعني أن الذي لم أعرفه الآن سأعرفه لاحقاً، أو
ستعرفه أجيالٌ تأتي بعدي وتستفيد من تجربتي.

- قبل أن تتوقف الشمس .. أم بعد توقفها ؟

- لِنَعُدْ إلى العمل.

- لا .. أولاً، هذه لم تكن استراحة. ثانياً، أليس العقلُ
والرياضيات اللذان تتحدث عنهما، هما نفسيهما اللذان
جعلانا نظن، نحن والبشرية كلها، كل تلك السنوات أن
توقفها بعيدٌ جداً. ثم تَبَيَّنَ لنا، وَلَكَ تحديداً، أننا
واهمون؟!

- بلى.

- Paul .. أنا لا أضغط عليك. أنا خائف مثلك.

صمتَ الصديقان لبرهة؛ مُحاولَين ترتيبَ أفكارِهما
... ثم قال أحمد وكأنه يطرح السؤالَ على نفسه:

- كثيرون يعرفون أن قناعاتنا العلمية عُرْضَةٌ لتغييرٍ
مُرْعِبٍ كهذا .. ولكن كم عددُ الذين يعملون شيئاً ما
بهذا الخصوص ؟

أجابه Paul :

- أنا وأنت وراجيف .. وإذا أضفنا مساهمة إستر،
بِصْنَعِهَا لهذا الطعام الرائع ... لا يتجاوزون عددَ
أصابع اليد.

الفصل الثامن

في جزيرة غير معروفة

نظر السيد Watcher إلى ساعته، كان عقرب الدقائق يقترب من إتمام مهمته في إنهاء دوام العمل لهذا اليوم الصائف من شهر آب ... قال في نفسه:
- المواعيد هنا مقدسة.

جال Robert Watcher ببصره في أرجاء الحديقة الواسعة المحيطة بالقصر، وقعت عيناه على النقاط الأساسية بسرعة. ولما تأكد من أن كل شيء على ما يرام، عاود النظر إلى ساعته.

كانت الخامسة إلا خمس دقائق عندما سمع صوت الـ speaker الخاص بالباب الرئيسي يرن بنغمة طلب الدخول المتعارف عليها. التفت إلى الـ speaker المشابه القريب إليه والمعلق على جانب الباب الخشبي

الفخم، أدخل الرقم السري بسرعة، واستمع إلى
المكالمة القصيرة:

- من الزائر؟

جاء الجواب كما هو معروف بالضبط؛ بجملة
عادية ليس فيها أي اسم.

التقط الحاسوب طبقة الصوت، بالتزامن مع قيام
جهازٍ متطورٍ يسمح بعض العلامات البيولوجية
الفارقة، على الرغم من المسافة الفاصلة بين البوابة
الحديدية الضخمة وزجاج السيارة المفتوح ... ثم سُئِلَ
السؤال التأكيدي:

- هل هنالك موعد؟

لم يكن لصيغة الجواب الثاني علاقةً بالسؤال،
لكنها جاءت كما ينبغي تماماً، فبدأت البوابة
الحديدية تُفتح .. في الوقت الذي كانت فيه السيارة قد
فُحِصَت عن بُعد وبشكلٍ كامل.

عندما وصلت السيارة إلى مكان وقوف Watcher بجانب باب القصر، كان عقرب الساعة يطابق الخامسة إلا دقيقتين تماماً. نزل Watcher الدرجات القليلة، مدّ يده إلى مزلاج باب السيارة، وفتح الباب بطقوسية بروتوكولية ليس فيها أي مبالغاة.

حتى طريقة (الجنّلمان) وهو ينزل من السيارة، لم تتغير منذ زمنٍ بعيد ... يلامس أسفل العكاز الباهظ الثمن الأرض قبل قدي حامله، ثم القدمان بالخذاء الذي كان ثمنه يساوي ثروة صغيرة أيام شباب Watcher، ثم التحية المعتادة:

- مساء الخير Robert.

- مساء الخير سيدي.

أوصل Robert السيد إلى الصالة التي ضمت باقي المجتمعين. انسحب بهدوء وأغلق الباب. ضغطت

أصابعه مجرّص على أزرار الجهاز المعلق جانب باب الصالة من الجهة الخارجية، ثم توجه نحو الخارج.

منذ أن تقرر أن يعمل Robert في هذه الجزيرة، نشأت لديه عادةٌ شخصية .. عبارة عن لازمة حركية ظلّ يمارسها لسنوات حتى كادت أن تصبح حركةً لاإرادية. يمشي بتؤدة باتجاه باب القصر، يغمره سرورٌ داخلي بممارسة شيءٍ ما خارج حدود البروتوكول المعتاد .. ليس خارجه تماماً، وإنما شيء خاص به، به Robert وحده ... يضغط بإبهامه على السبّابة مرتين، ثم مرة واحدة على كلّ من أصابع يده، وصولاً إلى الإصبع الخامس، ويتمتم: «لقد اكتمل العدد».

في صالة الاجتماعات الفخمة، جلس خمسة رجال ... وفي لحظةٍ ما من حوارهم، وبعد أكثر من ساعتين من الأخذ والرد، كادت الفروقات في وجهات النظر أن تأخذ منحىً خطيراً ...

X1: لن ينشر شيئاً .. أؤكد لكم.

X2: وكيف تفسر استقالته وسفره إلى أوروبا؟

X1: خائف .. لقد رأى ما الذي حلَّ بالأحمق الثاني.

X3: هذا هو الحل.

X2: سنثير الشكوك. عالمان وبنفس الاختصاص،

وليس بين الحادثتين وقتٌ كافٍ ... لا.

X1: لن يجرؤ على قول أي شيء .. وإذا تكلم،

سأصنع منه شخصيةً كوميدية يسخر منها الكوكب

بأكمله أكثر مما سخر من ذلك الهندي الأحمق .. ثم

سيُنسى بعد شهرٍ أو اثنين.

X2: هذه تصفية؛ بشكلٍ ما .. قتلٌ معنوي .. سيكون

الأمرُ واضحاً جداً، وكأنه عملٌ هواة لا محترفين ...

أتريد أن تجعل منه غاليلىو آخر؟!

X3: غاليلىو مع شيءٍ من التعديل .. اسمعوا مني.

X4: كيف؟

X3: غاليليو .. لكن بدون الاتفاق الذي عقده مع الكنيسة .. يعني غاليليو أحمق؛ يدفع حياته ثمناً لإرضاء غروره العلمي.

X4: تعني مثل راجيف؟

X3: بنكهة مختلفة .. دعوها لي وسترتاحون.

X2: لماذا لا نخترع له محيطاً علمياً من بعض أمثاله؛ نختارهم بدقة .. ويكون ولاؤهم لنا مضموناً .. يتسللون إلى حياته .. فلا يعود يشعر بالوحدة، وعندها يبدأ بالبوح .. وننتظر حتى نعرف كل ما في ذهنه، وبعد ذلك نقرر؟!

X1: وجهة نظر معقولة.

X4: سيبقى خطرُ ثرثرتِه الزائدة عن الحد قائماً .. الخطرُ قائمٌ من الآن ... إنه يبوح أحياناً ببضع كلمات.

X5 (بعد ما استمع جيداً): .. هذا جيد ... عُذْ إلى فكرة المحيط العلمي لو سمحت.

X2: يجب ألا نحرّمه من محيطٍ علمي يستطيع فيه أن يجد صدئاً لنقاشاته وكلامه .. إذا ظلّ يحدث نفسه طويلاً سيصل إلى نقطة الانفجار وسيتكلم كيفما اتفق. هؤلاء الناس عادةً، يُعانون من الشعور بالغربة .. الناس موجودون حولهم، لكن لا يفهمونهم.

X5: بمعنى؟

X1 (مُقاطِعاً): بمعنى أنه سيتحول إلى Chaplin بمحض إرادته.

X5: دعه يكمل.

X2: بضع أشخاص حوله، يوحون له بأنهم على نفس خط التفكير .. فيحتضنهم في البيت الريفى الذي استأجره .. وستصلنا التفاصيل أولاً بأول.

X3: في هذه الحالة سنكون نحن الذين نكبّر عصابة الكلاب ... بأيدينا.

X4: دعونا نرجع إلى أصل المسألة .. لو كان كلامه صحيحاً 100٪، ما هي النتائج المتوقعة ؟

X5: متوقعة ! ... لن يكون هنالك أحد كي يتوقع شيئاً.

X1: كأنكم بدأتُم تصدقونه .. ماذا لو أن كلامه كان صحيحاً، نظرياً فقط؟!

X3: نظرياً سيثير فوضى لا تنقصنا .. وعملياً ينبغي إسكاته نهائياً.

X5 (بسخرية خفيفة): وماذا ستفعل بعد إسكاته ؟ .. تتوب مثلاً.

X3 (متجاهلاً الجملة الأخيرة): هل نسيتُم كم كلفتنا تلك الأبحاث ؟!

X4: على ذكر التكلفة .. باستثناء مصائب الأسهم التي

ستحصل .. هل فكرتم بحسابات المصارف ؟

X2: ستكون 1929 أخرى .. صدقوني ... باستثناء

أنها ليست من صُنْعنا.

X5 (بجزم .. وكأنه يريد حسم المسألة): حسناً ..

تصويت .. محيط علمي حوله من تدبيرنا ؟

(أغلبية = نعم).

X5: المدة ؟

X2: إلى أن نعرف كل ما يدور في رأسه.

X1: ما قصة ذلك العربي الذي معه ؟

X5: إنهم يعرفون ذلك منذ أكثر من 1400 سنة ...

هل تريد أن أحدد لك رقم الآية ؟

X3 (بسخرية مضادة): ما رقم الآية لو سمحت ..

عسى أن أتوب.

X4: ما يزال شاباً، وخبرته لا تتجاوز خبرة راجيف.

وأما Yaghan فأخطر بكثير.

X5: تصويت مرة أخرى .. هل يكفيك ذلك العربي

كمحيط علمي كي ييوح ؟

(إجماع = نعم).

الفصل التاسع

«هذه المرة الثانية التي تضعيني فيها على الانتظار،
يا آنسة» ... قالها Paul وقد بدأ صبره ينفد. أجابت
عاملةُ الهاتف بِحِرْفَةٍ لطيفة:

- لدينا ضغط عمل استثنائي اليوم يا بروفيسور. ثوانٍ
وسيكون البروفيسور هاينز معك.

لم تَظَلْ فترةُ الإنصات إلى النعمة السخيفة هذه
المرة ... أتاه صوتُ صديقه:
- Paul .. مضى وقتٌ طويل.

- كيف حالك ؟

- مشغول كالعادة. كيف أستطيع أن أساعدك ؟
- باختصار .. ما هي أقصى مسافة يستطيع أن يقطعها
قاربٌ شراعيّ انطلق من شرقي المتوسط في حوالي
العام 600 للميلاد ؟

أطلقَ الدكتور هاينز ضحكةً قصيرة، ثم قال:

- ما قصتك يا Paul، هل قررتَ أن تدرس اختصاصاً جديداً؟

- مجرد سؤال.

- مجرد سؤال! .. هذا حالكَ دائماً ... اسمعْ؛ لديّ ملفٌ بحثٍ هام جداً حول هكذا موضوع. سأرسله لك.

- شكراً مايك.

- سلّم لي على قطتك الشرسة.

- سأفعل.

أغلق Paul سماعة الهاتف. فعَل أيقونة بريد الإلكتروني، وانتظر برهةً ... الدكتور مايكل هاينز رجلٌ لا يؤخّر عملاً أبداً. أصوله الجرمانية تلعب دوراً كبيراً في جعله ماكينّة عملٍ متعددة المهام تكاد لا تتوقف. فما إن وصلت رسالتهُ إلى Paul حتى تعجّب هذا الأخير من حجم الملف المرفق. «هل هذا بحثٌ

واحد؟» تساءل Paul. كان ملفُ ال Zip-Folder يحتوي على ثلاث وعشرين بحثاً علمياً في مجال التاريخ الملاحي البحري؛ معظمها من تأليف د.هاينز المختص في المجال المذكور، والباقي بإشرافه.

ضغط Paul على أيقونة Reply وكتب: «أنا مدين لك بنصف طن من البيرة». جاءه الجوابُ بسرعة:
«Any time, my friend»

الحسابات الملاحية البحرية، كانت موضوعَ بحثٍ شَغَلَ جزءاً من وقت Paul، على هامش جلساته مع أحمد الذي كانت له، هو الآخر، بحوثٌ يقوم بها منفرداً. فقد تمّ تقسيم العمل بحيث تسير الدراسات المنفردة بشكلٍ متناسق مع الخطة العامة للبحث، ثم تتم مناقشة النتائج وتوثيق نقاط التوافق ونقاط الاختلاف ومعالجتها ... لكن مساءً هذا اليوم بالذات، بدا مختلفاً.

خرج الكلامُ الدائر بين الأستاذين عن دائرة الفيزياء والحسابات، لِيَدْخُلَ في دائرةٍ أوسع بكثير، جعلتُ الحديثَ يطول، حتى تَعَبَ الصديقان وباتا محتاجين إلى استراحة ... اقترح Paul أن يسمعا بعض الموسيقى، فقال أحمد: «لديّ اقتراحٌ آخر».

في خلفية حياة أحمد نادر، هنالك جانبٌ لا يعرفه Paul .. كانت الحاجةُ أم أحمد قد عَوَّدَت أبنائها وبناتها، أيامَ طفولتهم، على سماع القصص التي تروونها لهم قبل النوم.

وعلى الرغم من أن كثيرين يعتبرون ذلك نوعاً من الأمور العادية، إلا أن كثيرين من أعظم روائي العالم وكتابه، شكّلت حكايا الأمهات والجذات بالنسبة إليهم، أساسَ التفاعل الوجداني مع القَصِّ .. مع روعة الحكاية، ثم مصدرَ إلهامٍ فيما بعد، لِصُنْعِ الحكايات وإعادة إنتاجها.

لم يكن أحمد بصدد قَصِّ حكايةٍ خياليةٍ على
مسمع صديقه .. بل كان يريد نقل خبرٍ صحيح
لأحداثٍ جرت فعلاً ... قال Paul :
- هاتِ .. أُنحِفْنَا.

- أَلَسْتَ تقرأ كتاباً آخر عندما تريد أن تستريح من
القراءة البحثية؟!
- هذا صحيح.

- ما رأيكَ في سماع قصة ؟ .. أعني ... كيف أقولها ..
اسمع: استلقِ واهداً .. أغمض عينيك، وتخيّل أنك
تسمع كتاباً صوتياً.

- (ممازحاً): ستحلل شخصيتي؟

- بل سأترك لعقلِكَ الباطن مهمةً تحليلِ أحداثِ
القصة .. سأعيدُ على مَسْمَعِكَ ما جرى ... واطرُك أنت
لِخَيَالِكَ حريةَ تَخَيُّلِ الأشخاص والأماكن جاهز ؟

الفصل العاشر

البحر الأبيض المتوسط

في وقت ما بين العامين 580-630 م

الإبحارُ على متن سفينةٍ شراعية، مهما يكن هدفه، ومهما تكن تحذيراته وحساباته دقيقةً، مغامرةٌ نحو المجهول .. فالبحرُ متقلبُ الأحوالِ كثيرُ المفاجآت. لكنه أيضاً، أشبهُ ما يكون بالحياة؛ لا شيءَ فيها يحدث مصادفةً. والعبثيةُ - دون شك - وهمٌ اخترعه البشر.

أن تدور مثلُ هذه الأفكار في ذهن إنسانٍ ما، جالسٍ في بيته أمام المدفأة، وحوله زوجته وأولاده، أمرٌ طبيعي. وأما أن تخطر في بالِ قبطانٍ سفينةٍ يصارع الأمواج العاتية منذ ما يقرب من ثلاثين يوماً، فذلك أمرٌ عجيب، لكنه وصفٌ دقيق لحالة القبطان تميم، في اليوم الذي بدأت فيه أحداثُ هذه القصة.

تَمَسَّكَ تَمِيمٌ الدَّارِيَّ بِحَاقَّةِ السَّفِينَةِ مُحَاوَلًا
الاحتفاظ بتوازنه .. جَرَّبَ أَنْ يَرَى شَيْئًا مَا فِي الْأَفْقِ،
فَلَمْ يُفْلِحْ. كَانَ مَسِيحِيًّا مُؤْمِنًا، يَعْرِفُ أَنَّ فِي مَكَانٍ مَا
مِنَ الْعَتَمَةِ وَالضَّبَابِيَةِ الَّتِي تَرَاهَا عَيْنَاهُ، نَوْرًا يُوقِنُ قَلْبُهُ
أَنَّهُ بَانْتِظَارِهِ. وَبِمَا أَنَّ الْاِسْتِسْلَامَ كَانَ مُفْرَدَةً غَيْرَ وَارِدَةٍ
فِي قَامُوسِ إِيْمَانِهِ، فَقَدْ جَعَلَ لِقَلْبِهِ رُبَّانًا وَاحِدًا فَقَطْ
... الْعَقْل.

وَأَمَّا بَاقِي الرِّجَالِ مِنَ الْبَحَّارَةِ الْفِلَسْطِينِيِّينَ،
وَالَّذِينَ كَانُوا مُعْظَمُهُمْ أَبْنَاءَ عَمُومَةٍ لِتَمِيمٍ مِنْ قَبِيلَةِ
(لَخْم)، فَقَدْ أَدْمَنُوا التَّعَبَ حَتَّى صَارَ جُزْءًا مِنْ
طَبِيعَتِهِمْ.

كَانَتْ ثِقَةُ الْبَحَّارَةِ بِالْقِبْطَانِ لَا تَقْتَصِرُ عَلَى خُبْرَتِهِ
الْبَحْرِيَّةِ فَقَطْ، بَلْ تَتَعَدَّاهَا إِلَى إِيْمَانِهِمْ بِهِ كَرَاهِبٍ ..
فَتَمِيمٌ عَالِمٌ بِالَّذِينَ الْمَسِيحِيِّ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ قِبْطَانًا.
وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ اعْتِيَادِهِمْ عَلَى الْمَصَارَعَةِ الْيَوْمِيَّةِ، إِلَّا

أن الموج هذا اليوم قد ارتفع أكثر من السابق، مُنذراً
بجولةٍ أشدَّ ضراوةً مع العملاق الهائج.

شدَّ تميم قبضةً يده اليمنى على الحافة، مسح الماء
عن وجهه يُيسراه، وعاودَ النظرَ إلى الأفق. وكأنيَّ
قبطانٍ متمرّس، تابعَ مراقبةَ أداءِ البحّارة، فيما ظلّت
عيناه، كلما سنحت له الفرصة، تبحثان عن اليابسة.
غير أنّ مكاناً ما من عقله ظلّ مشغولاً بما يمكن أن
يكون وراء كل هذا الصراع.

لطمت موجةٌ عاليةٌ وجهَ تميم الذي لم يغلق
عينيه في الوقت المناسب. وبعد بضعة ثوانٍ، صاحَ
البحّارُ الذي تسلّق الصاري للمراقبة؛ وقال شيئاً ما
غيرَ مفهوم، ثم وقع فارتطم جسده بسطح السفينة
المتمايلة، وانزلق حتى اصطدم بريلةٍ ساقِ تميم وكاد
أن يوقعه.

- ماذا قلتَ .. (صاح تميم).

وبالكاد سُمِعَ صوتُ البَحَّارِ المصابِ يقول:

- اليا بسة .. هناك.

فتح تميم عينيه بِتَحَدٍّ وعاود النظرَ إلى الأفق،
فَلَا حَ له على البُعْدِ شيءٌ كأنه جزيرة ... ثم ضاقَ
العملاقُ الغاضِبُ ذرعاً باللعبة الخشبية الصغيرة
المتقافزة على ظهره. كانت موجةٌ جديّةٌ واحدة كافيةٌ
لإفهام الجميع بأنَّ كلَّ ما مضى كان مزاحاً. مالت
السفينةُ ميلاً شديداً، وبدأت بعضُ القطع الخشبية
بالانفصال عن جوانبها والسقوط في الماء. ولَمَّا انهارَ
أحدُ الصواري، اتخذ تميم قراره الحاسم ...
- إنها ستقلب .. انجوا بأنفسكم.

وبدأ البحَّارةُ يقفزون إلى الماء. صارع بعضهم
للوصول إلى ألواحٍ تناثرت هنا وهناك، وسبح آخرون
بكل قواهم لمجرد الابتعاد عن جسم السفينة؛

خوفاً من ضغط الماء الهائل الذي سينجم عن انقلاب السفينة وبدء غرقها.

صاح أحد الرجال: «أيها السيد المسيح» .. أراد تميم أن يقول شيئاً، لكن صوت انقلاب السفينة طغى على الأسماع وزلزل القلوب. وبدأت السفينة تغرق.

التفت تميم بصعوبة نحو الجزيرة .. كانت ما تزال بعيدة، فصاح في الرجال بأعلى صوته مُشيراً بيده: «إلى هناك .. إلى الجزيرة».

وشرع الجميع بالسباحة بكل ما تبقى من قواهم .. بكل إيمانهم، وبكل حرصهم على الحياة. وبعد ساعاتٍ بدت وكأنها أعوام، وصلت أجسادهم المنهكة إلى شاطئٍ رملي، تهاووا عليه واحداً تلو الآخر.

جال تميم ببصره في أرجاء الجزيرة التي استطاع الوصول إليها مع ثلاثين رجلاً من بحارته. لم يكن

أحدٌ منهم يعرف أين هم بالتحديد، ولا اسمَ هذه الجزيرة الغربية.

كانت الشمس قد بدأت بالميل نحو الغروب، وازداد الجوُّ غموضاً ورهبة. لم يرَ أحدٌ من البحّارة المتعبين إنساً على الساحل. ثم تشجّع أحدهم وتوغّل قليلاً نحو الأحراش، ولمّا بدا أنه سيغيب عن الأنظار، حاول رفيقٌ له أن يثنيه عن عزمه، وهمّ بأن يناديه .. لكن صوتاً فاجأ الجميع:

- يا إلهي .. ما هذا؟!

تراكض الرجال باتجاه صوت رفيقهم. كان الرجل واقفاً وكأنه متجمّد؛ ينظر إلى شيءٍ ما بذهول. اقتربوا منه بحذر .. عيناه ثابتتان لا يرفّ له جفن، ويداه مسبلتان لا تتحركان. وخلال ثوانٍ قليلة، انتقلت عدوى الذهول إلى الجميع عندما رأوا ما رآه. كان أمراً غريباً لم يشاهد أيُّ منهم مثله في حياته .. حيوانٌ

ضخم من نوع غير معروف؛ دابَّةٌ يكسو الشعرُ
جسمَهَا من أوله إلى آخره، حتى أن بعضهم لم يعرف
رأسها من ذيلها. وقطع الصمت صوتَ تميم:
- ويلك ما أنتِ!؟

في هذه اللحظات كادت قلوبُ الرجال تقفز من
حناجرهم .. صدر صوتٌ من جهة ذلك المخلوق
الغريب؛ صوتٌ قريبُ الشبه من أصوات بني البشر إذ
يتحدثون. كانت الجملة واضحة لا لبس فيها، وقد
سمعها الجميع، غير أن الصوت لم يكن بشرياً تماماً
.. كان مزيجاً غريباً مثيراً للخوف. ولم يعد البحارةُ
يعرفون؛ هل هم في حلم أم في حقيقة. ولكن الوقت
لم يكن كافياً لكثيرٍ من التأمل أو التحليل .. لقد
نطقت الدابَّةُ:

- أنا الجساسة.

- يا ربّاه .. إنها تتكلم (قال أحد البحارة).

- الجساسة ! .. (تساءل تميم).

جاء الجوابُ هذه المرة بشكلٍ أوضح .. نفس الصوت لكن بنبرة أكثر تعبيراً:

- هنالك مَنْ هو بِشَوْقٍ لِسَمَاعِ أخباركم .. هناك في الدير.

- لا بد أنها شيطانة .. (همس رجلٌ خائفاً).

وارتجفت قلوبُ الرجال الذين كانوا منذ ساعتين فقط، يعاركون الأمواج العاتية بكل شجاعة. وبدأ تميم أن الموقف لا يحتمل الأخذ والردّ. كان علمه الواسع بالدين المسيحي وقلبه العامر بالإيمان قد جعلاً منه شخصيّة قيادية تتقن فنّ اتخاذ القرار في المواقف الصعبة ... فالجملةُ الثانية التي نطق بها ذلك المخلوق، موجيّةٌ يحلّ مبدئي ... الدير. التفت القبطانُ إلى رجاله قائلاً بحزم:

- هيا .. دعونا نرى ما قصة ذلك الدير.

في ذلك الوقت، بعد حوالي ستمائة عام من ولادة السيد المسيح عليه السلام، لم يكن البشر يتوقعون مشاهدة ظواهر خارقة للعادة .. وإن حصل ذلك فلم يكن ليؤخذ إلا على محمل الهرطقة أو السحر. كانت الذاكرة البشرية ما تزال تحتفظ بالحقيقة الساطعة .. المعجزات للأنبياء فقط، دون غيرهم من البشر. وأما أن يحصل شيء غريب كهذا الذي حصل، وفي جزيرة غير مأهولة ولا معروفة، فلا بد أن لذلك دلالة ما.

ربما كانت بعض تلك الأفكار تتدافع في ذهن تميم وهو يمشي على أرض الجزيرة، والرجال من خلفه يسرون سَيْرَ مَنْ هُمْ ذاهبون إلى معركة ... وأوراق الشجر تتكسر تحت أرجلهم مُصْدِرَةً إيقاعات غير متناغمة ...

لم يكن تميم مضطراً للإلتفات وراءه كي يرى الترقبَ البادي على وجوه رجاله؛ أصوات أنفاسهم

كانت تفي بالمطلوب ... «هل يمكن أن يكون
للصمت كل هذا الضجيج؟».

وتوالت المشاهدُ أمام أعين السائرين متشابهةً
رغم اختلافها؛ فالاهتمام بهدفٍ محدد يشغلُ عمّا
سواه .. الدير ... هذا ما كان الجميعُ يبحث عنه، وليس
الأشجار الضخمة بتداخلاتِ أغصانها الجميلة
والمخيفة أحياناً ...

ثم ذلك المقطع الصوتي الذي حفظته الذاكرة؛
صوتُ الدابة وهي تتكلم، والاسم الغريب الذي قدّمت
به نفسها إلى الرجال المشدوهين ... كل ذلك حوّل
جمالَ أصواتِ الغابةِ وهمساتِ طيورها إلى خلفيةٍ
موسيقية تصُلحُ لفيلم رعب قصّته مبنيةٌ على أحداثٍ
واقعية.

وبعد مَسِيرِ ساعةٍ أو نحوها، ظَهَرَ في الأفقِ بناءٌ
يشبه القصر. وتشكَّك الرجالُ في كونه ديراً؛ فقد

كانت هنالك اختلافاتٌ في طريقة البناء. ثم ثبتت
الرؤيا ...

- ها هو الدير.. (صاح أحدهم).

وتسارعت الخطوات على الرغم من التعب
والقلق؛ يزيدُ من اندفاعها ذلك المجهول الذي ينتظر
في الداخل.

عندما دخل الجميعُ إلى البناء القديم؛ يتقدمهم
تميم، وأخذوا يبحثون .. بدا المكان خالياً، تتردد في
جنباته أصداً تأتي من الخارج ... غير أن صوتاً خافتاً
متكرراً بنفس الطريقة والنغمة، بلغَ أسمعَ البحارة.
لم يكن ذلك الصوت واضحاً، لكن جهته دلّتهم
على مصدره إنه القبو.

- لننزل .. (أمرَ تميمٌ رجاله).

انعكس وهجُ نارِ المشاعل الجدارية على وجوه
الرجال وهم يهبطون بتؤدةٍ على الدرج المُفضي إلى

القبو، فبانَ التَّجَهُُّمُ على الوجوه القلقة. وبعد بضعة درجات، بدأ وضوحُ الصوتِ يتزايد شيئاً فشيئاً كلما اقتربوا من نهاية الدرج .. صوتٌ أجش متحشرج تتخلله قرقراتٌ سلاسل حديدية.

في الأسفل، على أرض القبو القديم .. اتضح الأمر ... سجينٌ ضخْمُ الجثَّةِ غريبُ الشكل مقيَّدٌ بسلاسل حديدية ضخمة تربط يديه برجليه. كان يصرخ .. يصرخ وَيَنْفِضُ رَأْسَهُ؛ مُحَاوِلاً بقوةِ جذعِهِ أَنْ يَنْتَزِعَ معصَمِيهِ من قيدٍ ثَقِيلٍ يبدو عُمرُهُ مئاة السنين.

امتزجت رائحةُ عفونةِ المكانِ برائحةِ المستعمرات التي شكَّلتها الجراثيمُ على جسد السجين وشعره الأجدع ... كان عَرَقُ جَبِينِهِ يَسِيلُ مِنْ منبت شعره، فَتَكْرُجُ حَبَّائِهِ على الأحرف العربية الثلاث المكتوبة على جبينه .. ك .. ف .. ر ... ثم تُتَابِعُ سَيْرَهَا، دون أن يتمكن جَفْنُ العينِ مِنْ إيقافها، فَيُحْرِقُ مِلْحَهَا بؤبؤً

العين، وَيُضْطَرُّ التَّعْيُسُ للهدوءِ ثَوَانٍ معدودة ريثما
يُطَبِّقُ جَفَنَهُ فوق عَيْنِهِ الوحيدة .. ثم يرفعُهُ بسرعة على
أمل أَنْ يَخْفَ شعورُهُ بالحرقة. وأما العَيْنُ الأخرى، فلم
يكن يؤثر بها العرق .. كانت أشبه بِحَبَّةٍ مِنَ العنب،
فَسَدَتْ وَيَبِسَتْ، وانغَلَقَتْ على بعضها البعض حتى
التَحَمَّتْ أَجْزَاؤُهَا بالكامل.

رفع السجينُ الأعور رأسه نحو تميم ورجاله .. لم
يَبْدُ على وجهه أنه فوجئ بمجيئهم ... انتفض انتفاضةً
عنيفةً وهو يصرخ بصوتٍ يكاد يشقُّ الأذان، مُحَاوِلًا
الإفلات .. دون جدوى. ثم إنه هداً قليلاً ونظر نحو
الرجال لبرهة .. تأكَّد تميم خلالها من الأحرف
العربية الثلاث التي كانت واضحةً؛ وكأنها دُمِغَتْ
على جبين السجين الأعور دمغاً يشبه ما يُفَعَّلُ
بالبهائم إذ تُدْمَغُ عليها علاماتُ فارقةٍ بحديدٍ محمى
على النار.

قرأ واحدٌ من البحّارة بتؤدة:

- ك .. ف .. ر (ثم قرأها متصلةً) .. كُفّر! .. كافر!

فوجئ تميم بقراءة البحّار الذي كان الجميعُ يعرف أنه أُمِّيٌّ لا يعرف القراءة والكتابة .. التفت نحوه ... كان طبيعياً تماماً؛ لم يَبْدُ عليه أيُّ تَغَيّرٍ، فقد قرأ وكأنه يتقن القراءة منذ زمنٍ بعيد. حتى تعبيرات وجهه لم تختلف .. نفس القسمات الهادئة الوديدة، ونفس طيبة القلب ونبْل الأخلاق المعروفة عنه فبدأت ذاكرة تميم تعمل بسرعة.

وكرجلٍ دينٍ متمكّن، بدأ تميم يتذكّر تحذيراتٍ كان قد قرأ عنها .. تحذيراتٍ صادرةً عن رجلٍ لا يكذب .. تحذيراتٍ نَبَّهَ إليها المسيحُ عليه السلام؛ تماماً كما نَبَّهَ إليها كلُّ نبيٍّ من الأنبياء. لكن رجلاً آخر من البحّارة قطع الصمت الذي لم يَدُم إلا دقيقةً أو دقيقتين ... قال البحّار مخاطباً السجين:

- ويحك .. ما أنت ؟!

جالّ الأعورُ بعينه الوحيدة بين وجوه الرجال، إلى
أن استقرَّ نظره على تميم .. وكأنه عرف أنه قائدهم، أو
توقع ذلك ... صمتَ قليلاً ثم أجاب:

- سأخبركم مَنْ أنا .. ولكن قولوا لي أولاً، مَنْ أنتم؟

أُجيبَ على سؤالِ السجين باختصار .. السفينة ..
هيجان البحر .. وصولهم إلى الجزيرة، ثم الدابة التي
تتكلّم .. وإخبارها عمَّن ينتظرهم في الدير. كان الجميعُ
بانتظار إجابته هو .. بانتظار أن يعرفهم عن نفسه.
لكنه تابع الأسئلة:

- أخبروني عن نخل بُيُسان؟

استغرب تميم .. مَنْ هذا الذي يعرف مدينةً تقع
في الغور الشامي بين حوران وفلسطين؛ يسأل عمّا
اشتهرت به من كثرة أشجار النخيل ... لم يترك
القبطانُ لأحدٍ من الرجال حريةَ الإجابة، فاستلم دقّة

الحديث .. أراد أن يستوثق من مدى معرفة الأعور
بما يسأل عنه، فأجاب على سؤاله بسؤال:
- عن أي شيء في بيسان تسأل؟

ردّ الأعور قائلاً:
- أسألكم عن نخلها .. هل يُثمر؟

وتوالى الأسئلة .. الأعورُ يسأل، وتميم يجيب

.....

- نعم .. يُثمر.
- أمّا إنه يوشك أن لا يُثمر ... أخبروني عن بحيرة طبرية؟
- ما لها؟
- هل فيها ماء؟
- هي كثيرة الماء.
- إن ماءها يوشك أن يذهب .. أخبروني عن عين زغر؟

- عن أي شأنها تستخبر؟
- هل في العين ماء .. وهل يزرع أهلها بماء العين؟
- هي كثيرة الماء، وأهلها يزرعون بمائها.
- أخبروني عن نبي الأميين؛ ما فعل؟
- قد خرج من مكة ونزل يثرب.
- هل قاتله العرب؟
- نعم.
- كيف صنع بهم؟
- ظَهَرَ على مَنْ يليه من العرب، وأطاعوه.
- قد كان ذلك؟
- نعم.
- أما إنَّ ذاك خيرٌ لهم أن يطيعوه ... والآن سأخبركم عني ..
- إني أنا المسيح ...
- انفجرت الكلمات من فم تميم انفجاراً وهو
- يقاطع الأعورَ قائلاً:

- خستت .. بل أنت المسيخ؛ أنت الأعور الدجال.

لم يجد الأعور الدجال ما يردُّ به على الحقيقة التي
نطق بها تميم، فتظاهر بأنه لم يسمعها وتابع قائلاً:

- وإني أوشك أن يؤذن لي بالخروج فأخرج، فأسير في
الأرض، فلا أدع قرية إلا هبطتها في أربعين ليلة؛ غير مكة
وطيبة، فهما محزمتان عليّ كلتاهما، كلما أردت أن أدخل
واحدةً منها؛ استقبلني ملكٌ بيده السيف مصلاً يصدني
عنها، وإنّ على كل نقب منها ملائكة يحرسونها.

قال الراوي .. وعلى الرغم من أن أحداً - حتى
الآن - لا يعرف على وجه التحديد إلّا ما انتهت
المحادثة بين تميم والأعور الدجال، ولا كيف عاد
الرجال من تلك الجزيرة الغربية إلى ديارهم سالمين ..
غير أن الأكيد الموثق، هو أن تميم بن أوس بن خازجة

الداري، وبعد أحداث هذه القصة، سافر إلى المدينة المنورة؛ تحديداً في السنة التاسعة للهجرة، أي في عام 589 للميلاد .. وأعلن إسلامه.

روى تميم القصة الغريبة التي عاش أحداثها .. رواها وقد رضي الله عنه وأرضاه، للصادق المصدوق الذي ما ينطق عن الهوى؛ لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

في ذلك اليوم .. جمَعَ سيدنا محمد ﷺ الناس بالطريقة المعروفة .. نادى المنادي: الصلاة جامعة. وبعد الصلاة، جلس ﷺ على المنبر وهو يضحك ثم قال لهم: «لَيَلَزَمَ كُلُّ إِنْسَانٍ مُصَلَّاهُ»، ثم قال: «أتدرون لِمَ جمعتُكم؟»، قالوا: الله ورسوله أعلم. قال ﷺ: «إني والله ما جمعتُكم لِرغبةٍ ولا لِرهبةٍ، ولكن جمعتُكم لأن تَمِيماً الداريَّ كان رجلاً نصرانياً، فجاء، فبايعَ، وأسلمَ، وحَدَّثني حديثاً وافقَ الذي كنتُ

أَحَدُكُمْ عَنِ الْأَعْوَرِ الدَّجَالِ. حَدَّثَنِي أَنَّهُ رَكِبَ فِي سَفِينَةٍ بَحْرِيَّةٍ مَعَ ثَلَاثِينَ رَجُلًا مِنْ لَحْمٍ وَجَذَامٍ، فَلَعِبَ بِهِمُ الْمَوْجُ شَهْرًا فِي الْبَحْرِ، ثُمَّ أَرْفَعُوا إِلَى جَزِيرَةٍ فِي الْبَحْرِ، حَتَّى مَغْرَبِ الشَّمْسِ، فَجَلَسُوا فِي أَقْرَبِ السَّفِينَةِ، فَدَخَلُوا الْجَزِيرَةَ، فَلَقِيَتْهُمْ دَابَّةٌ أَهْلَبُ كَثِيرِ الشَّعْرِ، لَا يَدْرُونَ مَا قُبْلُهُ مِنْ دُبُرِهِ مِنْ كَثَرَةِ الشَّعْرِ، فَقَالُوا: وَيْلَكَ مَا أَنْتِ؟ فَقَالَتْ: أَنَا الْجَسَّاسَةُ. قَالُوا: وَمَا الْجَسَّاسَةُ؟ قَالَتْ: أَيُّهَا الْقَوْمُ، انْطَلِقُوا إِلَى هَذَا الرَّجُلِ فِي الدَّيْرِ؛ فَإِنَّهُ إِلَى خَبْرِكُمْ بِالْأَشْوَاقِ».

تابع ﷺ حديثه والناس - ومنهم تميم - يستمعون؛ ينتبهون إلى التطابق الكامل في أدق التفاصيل .. ذلك التطابق بين خبر غيبي سمعوه سابقاً من نبيهم الصادق، ويسمعونه منه الآن للمرة الثانية؛ بعد أن جعل الله منهم رجلاً عايش تلك الجزئيات عياناً ومشاهدة، وجاء ليرويها.

طَعَنَ ﷺ بِعَصَاهُ فِي الْمَنْبَرِ وَقَالَ: «هَذِهِ طَيِّبَةٌ، هَذِهِ
طَيِّبَةٌ - يَعْنِي: الْمَدِينَةُ - أَلَا هَلْ كُنْتُ حَدَّثْتُكُمْ
ذَلِكَ؟». قَالَ النَّاسُ: نَعَمْ ... فَقَالَ ﷺ: «فَإِنَّهُ أَعْجَبَنِي
حَدِيثُ تَمِيمٍ أَنَّهُ وَافَقَ الَّذِي كُنْتُ أُحَدِّثُكُمْ عَنْهُ،
وَعَنِ الْمَدِينَةِ وَمَكَّةَ، أَلَا إِنَّهُ فِي بَحْرِ الشَّامِ، أَوْ بَحْرِ
الْيَمَنِ، لَا بَلَّ مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ مَا هُوَ، مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ
مَا هُوَ، مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ مَا هُوَ» ... وَأَشَارَ بِيَدِهِ الشَّرِيفَةِ
إِلَى الْمَشْرِقِ.

الفصل الحادي عشر

«تصبحون على خير» ... قالتها إستر وكأنها تشير إلى أحمد و Paul؛ بلسان الحال أن: تابعوا نقاشاتكم التي لا تنتهي، فقد تعبْتُ منها ومنكم.

عادةً .. يصعب على مدمِنٍ يشاهد جرعةً سعادتهِ تمضي بعيداً دون أن يحاول استبطائها أو اللحاق بها. غير أن Paul في هذه الليلة بالذات، أجاب ببساطة: «أحلاماً سعيدة يا عسل».

مشت إستر بثناقلٍ متعمِّد نحو غرفة النوم. انتظرت أن تسمع جملةً إضافية، لكنها لم تسمع سوى صوت Paul يتابع حديثه السابق مع أحمد قائلاً: «إذن حوالي 600 ق.م؛ قلت لي» ... ثم إجابة أحمد: «تقريباً».

أغلقت إستر باب غرفة النوم، وصدى الجملة يتردد في داخلها: 600 ق.م فتحت المرأة الخبيرة

دُرج زينتها .. أخرجت جهازاً لوحياً اتصلت من خلاله بالإنترنت. دخلت إلى موقع إباحي وسجلت دخولها باسم المستخدم: urgneed ، ثم أدخلت كلمة المرور، وكتبت رسالةً إلى الـ Admin قالت فيها: «أريد شراء كود الـ Download لجميع الأفلام، وهذا رقم بطاقة الائتمان خاصتي». جاءها الجواب بعد أقل من دقيقة: «رقم الكود الخاص بك هو: att1929».

بعد أن سجلت خروجها من الموقع، دخلت فوراً إلى موقع للألعاب التفاعلية، وكتبت رسالةً خاصة للـ GM تقول فيها: «أضعك التنين في att1929 فأين أجده؟» ... جاء الجواب: «تجدينه في هذا الرابط ...».

عندما فتحت الرابط، ظهرت على شاشة جهازها اللوحي صورة الغرفة التي يجلس فيها Paul وأحمد في بثٍّ فيديوي مباشر ... استمر لبضع ثوانٍ، ثم اختفى لتظهر مكانه على الشاشة كلمة واحدة: Done.

في مكانٍ ما على إحدى الجزر، قطع خمسة رجالٍ
محدثتهم .. ضغط واحدٌ منهم على زر جهازٍ موضوع
أمامه وقال: «Robert .. يمكنك المغادرة الآن» ...
أجاب Robert Watcher: «حسناً سيدي».

ضغط الجنتلمان على زر جهاز التحكم،
فأضاءت شاشةٌ ضخمة من أحدث طرازٍ تم اختراعه
حتى الآن ... ظهر Paul وأحمد؛ في بثٍّ فيديويٍّ مباشر
... سكنَ الجميعُ وأنصتوا.

كان Paul قد وصل إلى مرحلةٍ من النقاش،
جعلته يسأل سؤالاً استنكارياً:

- هل تريد أن تقنعني بأن شيئاً مما تسمّونه
الإسرائيليات لم يتسلل إلى قصصكم وكتب
أخباركم؛ في زمنٍ لم يكن فيه طباعة ولا أرقام
متسلسلة للكاتب ISDN ١٩!

- ما أودُّ تأكيدَه لك هو أن نظاماً لرواة الأخبار؛ يُنقِصُ من أسهم أحدهم إذا شوهدَ مرةً يأكل في الشارع .. أو إذا قيل عنه أنه ينسى ... هو نظامٌ غايةٌ في الدقة والإحكام .. إيماننا النَّقْلِيُّ يا بروفيسور ليس أعى .. بل هو عقليٌّ أيضاً.

- لا تحدثني وكأنني ملحد .. كل ما هنالك أنني أريد أن أثبت مما تقول .. ثم أقدم لك مفاجأتي الصغيرة.

- ألا وهي ؟

- محاضرة تفاعلية.

- متى ؟

- غداً .. تصبح على خير.

سارعت إستر إلى إقفال جهازٍ لوحيٍّ آخر كان في يدها .. وضعتَه في مخبئه ... ثم استلقت في الفراش ... كان جسدها قد اتخذ - لا شعورياً - وضعيَّة اعتادت عليها منذ سنوات.

الفصل الثاني عشر

أصدر القِرْشُ الغاضب صوتاً مرعباً .. فتح فمه الأزرق الضخم، وهجم بسرعة فائقة باتجاه المسكين الذي كاد الأدرينالين أن يخرج من عينيه الجاحظتين .. فلم يملك هذا الأخير إلا أن يشدَّ يديه الواهنتين على الخشبة التي يتمسك بها، ويصرخ بأعلى صوته: «يا يسوع المسيح».

كاد الفك السفلي للقِرْش أن يهوي على المسكين المرتعد .. غير أن موجةً ضخمة أنقذته في اللحظة الأخيرة ... عدة أطنان من الماء الغاضب هو الآخر، ارتفعت لعلوِّ أمتارٍ في الهواء ثم هبطت بقوة .. فانفلتت خشبة الخلاص من يديه، وغرق تحت أطنان المياه عدة أمتار، مبتعداً عن القِرْش الضخم ... ضغط الماء المالح المتدفق إلى فمه وأنفه، ضغطاً شديداً على

وعيه .. حاول أن يفتح عينيه .. لكنه فقد السيطرة على كل شيء. وبثوانٍ قليلة، صار جسده مستسلماً تماماً لمياه المحيط؛ يتهدى في أعماق ظلماتها مرتخياً بالكامل .. يدها ممتدتان إلى جانبي جسده، ورأسه منحني إلى أسفل .. وجسده يغرق ببطء.

وجاء صوتها .. صوتها الذي يعرفه تماماً، لكنه هذه المرة كان غريباً ومختلفاً .. كان هدوء صوتها أقوى من ضغط الماء الهائل على أذنيه، فاخترق أطنان الماء حتى سمعه قلبه .. فتح المسكين عينيه بصعوبة .. كانت المرأة الرائعة بشعرها الفضي ووجهها المطمئن، تتهدى داخل المياه بثوبها الأبيض الطويل .. وتشير بيدها .. «Paul إنها هناك ... هناك». حاول أن يقول شيئاً .. فازداد تدفق الماء إلى جوفه .. وأتاه من أعلى صوتٌ دفعةً ثانية من أطنان مياه المحيط، تقترب بسرعة من فوقه ... صرخ ثانية: «جدتي ماري».

أجفلت إستر من صوت Paul الذي كان يهذي
تحت تأثير الكابوس .. وضعت يدها بحنو على جبينه،
وأيقظته بهدوء: «Paul ... حبيبي» ... انتفض جسد
Paul بشدة جعلت إستر تلجأ إلى الحل الأنثوي الأكثر
تأثيراً .. احتضنته بحنان بالغ، وضمت رأسه إلى
صدرها .. وتمتعت في أذنه: «إنه مجرد حلم .. مجرد
حلم».

تسللت رائحة إستر إلى مكن إدمانه .. وساندها
لملمس صدرها على وجهه، فبدأ Paul بالاستيقاظ ...
كررت إستر بصوت دافئ: «أنت معي. أنت بخير».

انتظرت قليلاً حتى يهدأ، ثم سألته:

- كل هذا الرعب من الجدة ماري!

أجابها:

- لا .. بل هي التي أنقذتني.

الفصل الثالث عشر

شغل Paul الشاشة الكبيرة، فظهر عليها عرض توضيحي كان قد أعدّه بعد دراسة تفصيلية للأبحاث التي أرسلها له د.هاينز ... الشريحة الأولى زرقاء اللون؛ لم يكن فيها إلا رسم رمزي Vector لجزيرة صغيرة ... وجملَةٌ واحدة فقط: «non sense».

تبسم أحمد قائلاً:

- إذن أنت غير مقتنع بقصة تميم من الأساس.

- على العكس تماماً .. ولكن الذي لست مقتنعاً به، هو كيف ظلت هذه الجزيرة خفية على بني البشر كل هذه المدة؛ على الرغم من التقنيات الحديثة للأقمار الصناعية وغيرها.

- بالمناسبة .. مثل هذه الاعتراضات لا تأتي من طرفكم وحدهم، بل إنَّ بيننا - نحن المسلمين - من يقول مثل ذلك.

- تذكرتُ .. لقد قلتُ لي مرةً أن منكم من يعتبر الخوض في مثل هذه الأمور لا يزيد في الإيمان ولا يُنقِصُ منه.

- وبنفس الوقت يا صديقي، فإنَّ عَدَمَ ذِكْرِ الأَعْوَرِ الدِّجَالِ على المنابر .. أعني في خُطَبِ المساجد .. إشارةً إلى اقتراب موعد ظهوره، حسب بعض النصوص وعموماً أنت تستغرب كيف بقيت تلك الجزيرة خفيةً إلى الآن .. وإذن ؟

- إذن .. إنَّ عوامل إخفائها ليست فيزيائية؛ بالمعنى الدقيق للكلمة.

- لعلَّكَ تعني: خَفَاءَ مكانها.

- لا .. بل إخفاءها المتعمَّد.

- أوضِّح.

- طيب .. سأبدأ القصة منذ البداية. لقد قرأتُ أبحاثاً في القياسات الملاحية البحرية أولاً؛ في محاولة لمعرفة المسافة التقريبية التي يمكن لقارب شراعي متوسط، أو سفينة صغيرة، أن يقطعها انطلاقاً من شرق المتوسط .. وذلك كحدٍّ أقصى يتناسب مع كمية المؤن والمياه الصالح للشرب وبقية العوامل المؤثرة.

- ولماذا شرق المتوسط تحديداً ؟

- ألم تقل لي أن تميم فلسطيني ؟

- بلى .. لكن هذا لا يعني بالضرورة أنه قد بدأ رحلته تلك، انطلاقاً من وطنه الأم ... من المحتمل أن يكون قد انطلق من مرفأ آخر، في وسط رحلة ذات مقاطع.

- ممكن .. ولكن بدون مؤشرات تاريخية تدلُّ على نقطة الانطلاق، فليس بين يديّ إلا الافتراض المبني على أنه قد انطلق من وطنه.

- سأقبل بذلك كفرضٍ نظريٍّ ... تابع.

- ثم إنني صرفتُ النظر عن البحث المكاني .. مؤقتاً فقط. فبما أنه من المستحيل - علمياً - تحديد نقطة غرق السفينة ؛ على اعتبار أنه لم تَرِدْ أي إشارة في أي نصٍّ من النصوص حول ذلك ... فمن المستحيل بالتالي تحديد موقع أقرب جزيرة لنقطة الغرق يمكن الوصول إليها سباحةً أو في قوارب نجاة ... وبناءً على ذلك أُجِلْتُ البحث في عنصر المكان .. وبدأتُ أبحث في الزمن.

- كيف ؟

- الأهم بالنسبة إليّ الآن .. أن هنالك جزيرة ماء، في بحرٍ ما .. يقيم فيها مسخُّ أعور ودجّال، محبوباً مقيّداً ... إلى أن يتم إطلاقه .. إلى الوقت الذي سيتم فيه إطلاقه ... وهذه هي النقطة التي فكرتُ فيها؛ توقيت الإطلاق ...

- ربما تعني: توقيت الانطلاق.

- لا .. لا .. بل: الإطلاق ... يعني أن يُطْلَقَ سراحه
أحدًا ما .. هل في لغتي شيء ما غامضٌ بالنسبة إليك؟
- مجرد ملاحظة .. ظننتُ أنك أخطأت التعبير ... ولكن
ما الذي تعنيه بأن أحدًا ما سيقوم بإطلاقه ؟

- هذه هي النقطة المحورية يا صديقي .. اسمعني ...
طلما أن الأرض كلها اكتُشِفَتْ، فليس عندي أدنى
شك في أن أحدًا ما .. جهةً ما .. وصلت إلى تلك
الجزيرة في وقتٍ ما من التاريخ وعرفت ما الذي يوجد
فيها .. وبما أننا لم نسمع عن ذلك أو نقرأ عنه، فهذا
يعني شيئين: أولاً أن الذي وصل إلى هناك قد بذل
جهوداً كبيرة كي يُبقي اكتشافه هذا طي الكتمان ...
وثانياً أنه سيطر على تلك الجزيرة سيطرةً تامة.

- صار لدينا عنصر ثالث في المعادلة ... المكان؛ مكان
التواجد .. الزمان؛ زمان الانطلاق الذي تصرُّ على
اعتباره إطلاقاً متعمّداً ... ثم هوية الذي أخفى اكتشافه
للمكان ... عنصر ثالث بشري.

- تماماً .. وعندما يتدخل العنصر البشري في أي معادلة، فعلينا أن نحاول فَهْم المصالح ... الآن .. تلك الجهة التي وصلت إلى الجزيرة وسيطرت عليها، لا بد أنها متنقذة وذات سلطة من نوع ما ... ولكن بكل الأحوال، إما أنها طيبة أو شريرة .. الاحتمال الأول مرفوض عقلاً؛ لأنها لو كانت حريصةً على مستقبل البشرية، لكانت أعلنت اكتشافها أولاً، ثم عملت على إيجاد حل ...

- والاحتمال الثاني أنهم شريرون ... وإذن ؟
- في هذه الحالة .. يجب أن نسأل أنفسنا سؤالاً في غاية الأهمية .. ما هي مصلحتهم في الإبقاء عليه رهينَ محبسه ؟

- بما أنه أكبر فتنةٍ ستصيب البشرية، فهو إذن ورقة رابحة في يد أي جهةٍ يهْمُها أن تَصِلَ البشرية إلى مرحلة الفساد الكامل.

- تماماً .. بدأنا نبث على نفس الموجة .. لأنك أخبرتني مرة؛ في إحدى نقاشاتنا القديمة أيام زمان .. أن انطلاقه هو بداية مرحلة الشر العميم، والتي تليها مرحلة الخير العميم.

- واذن ؟

- واذن، وحتى نفهم .. يجب أن نحاول فهم طبيعة ربح تلك الورقة .. هي رابحةٌ بالنسبة إليهم .. ولكن كيف ؟

- هات .. أتخفني.

- الشريحة التالية فيها الجواب على ما أظن.

سكت Paul برهةً .. ضغط على زر Next فظهرت الشريحة التالية. كانت خلفية الشاشة بيضاء هذه المرة، وبدون صور .. إلا أن ما فاجأ أحمد هو أن إحدى الجملتين المكتوبتين في تلك الشريحة، كانت باللغة العربية.

الله هو مُسَبَّبُ الأسباب

That makes sense

تأمل أحمد الشريحة بصمت .. ثم سأل:

- ما الذي تريد قوله ؟

- أولاً يجب أن أعترف بأن الجملة المكتوبة بالعربية، نقلتها عن إحدى محادثاتنا القديمة ... يومها انفعلت خلال الحوار، إلى درجة أنك كتبت هذه الجملة بالعربية بشكل لا شعوري على السبورة البيضاء .. ثم شرحت لي معناها.

- وثانياً؟

- ثانياً هذه الجملة هي الجواب على السؤال الأكثر أهمية: ما هي العلاقة بين العناصر الثلاث ... مكان الجزيرة، توقيت الإطلاق، ثم مَنْ سيطلق سراحه ...

بل إنها تجيب على سؤال آخر هام: لماذا سيطلقون
سراحه طالما أنه بهذه الخطورة ؟

- لحظة ... من أساسيات العقيدة عندنا أن

- أن الله هو خالق أفعال الناس؛ أي أنه هو الفاعل
الحقيقي.

- أرى أنك قرأت جيداً في الإسلام.

- قرأته من خلالك .. بالأحرى: قرأته جيداً.
ولكن بعض الإجابات على تساؤلاتي أتتني من خلال
تميم.

- كيف ؟

- أحمد .. نحن علماء ... وطالما أنه لا وجود للصدفة
ولا للعبثية ولا للفضى في الأكوان، إلا في أوهام
الجهلة طبعاً .. فبالتالي لا وجود لها في الظواهر ذات
الطبيعة الاجتماعية والتاريخية أيضاً وعلى الرغم
من اختلافي أنا وأنت حول معبودنا ... فالسؤال الذي

يجمعنا .. السؤال الذي يوحدنا .. هو: لماذا سمح المعبود
لواحد من عباده أن يرى - بأمر عينه - المسيح
الذَّال بعد أكثر من ستمائة عام من ولادة المسيح
الحقيقي .. ولماذا سمح له أن يراه في البحر؛ على جزيرة
... ثم لماذا التقينا أنا وأنت لنناقش هذا الأمر بعد
أكثر من أربعة عشر قرناً ١٢

- ليس عبثاً.

- اسمع .. لقد أمضيتُ أكثر من أربعين عاماً وأنا أظن
أن هذا وغيره، ما هو إلا عبث ... كنتُ وجودياً بعض
الشيء، وملحداً في أكثر الأحيان إلى أن بدأت
أبحاثي تقترب من قضية سير الشمس إلى مستقرها ..
وعندئذٍ اختلفت معايير كلها.

- هذا ما عنيتُهُ عندما قلتُ لي: ماذا لو أن باقي كلامكم
كان صحيحاً .

- تماماً.

- لقد تشعّب حديثُنا.

- الشريحة التالية ستعيّدنا إلى المسار الصحيح.

ارتعد أحمد من مرأى الشريحة التالية .. كانت عملاً فنياً من الطراز الفاخر؛ وضع فيه Paul كلّ ما يعرفه من معلومات عن التصميم الجرافيكي ... بدت النتيجة النهائية وكأنها Poster لفيلم رعبٍ يمزج الخيال العلمي بعقائد الحضارات القديمة.

تنحّ Paul على طريقة الأساتذة الجامعيين، قبل أن يقول:

- بروفيّسور نادر .. اسمح لي أن أقدم لك .. عرش الشيطان.

الفصل الرابع عشر

انتهت جلسة المنافسة الداخلية اليومية، كما هي العادة، دون أن يعرف أحدٌ من الثُعساء الذين هَدَّ التعبُ قِواهُم؛ مَنْ مِنْهُمْ نَالَ رِضا الزعيم حقاً، فَمَضَوْا وقد ازدادوا تعباً على تعب، وتركوه كالعادة .. وحيداً.

«حمقى» .. قالها Lucifer بعد أن غادروا ... «قَدَّرِي أن أتعامل يومياً مع أغبياء .. وآخرين أكثر غباءً يستجيبون لهم. حتى ذريتي، لا أُمَلِّ لي في واحدٍ منهم. وأما ذريته .. ذريتهُ ذلك الذي هو سَبَبُ شِقَائِي، مِنْ يَوْمِ رَفَضْتُ السجودَ له، فَمِنْهُمْ مَنْ هُوَ أَقْرَبُ إِلَيَّ .. إِنْهُمْ يبتكرون، أَكْثَرُ مِنْ أَوْلَئِكَ الخَنَاسِينَ الَّذِينَ كَانُوا مِنْذُ قَلِيلٍ يَتَبَاهَوْنَ بِإِنجَازَاتٍ تافهة .. أيا باباً مفتوحاً للتوبة، متى تُغْلَقُ؟! كم أَشْتَهِي أن أعيش، ولو لبضعة أيام، دون أن أرى ساجداً. مُتَعَبٌ أنا، كما هي حالي دائماً. يا لَيْتَنِي سجدْتُ وانتهت القصة. ها هي ذريتهُ تسجدُ كُلَّ يَوْمٍ

فيزداد رصيدهم .. يا حقدُ ازدَدُ .. يا حقدُ لا تَمُ. الطين!
... الطين!! .. ألسْتُ أعلى؟! .. ها قد صار لي عبّاد. لا
صَيْر؛ ففي الدرك الأسفل مُتَّسع .. هناك .. حيث لن
ينفعني وإياكم تناكرُنا. فَسَقْتُ ولم أُعَدْ، ومنهم مَنْ عاد،
وَمَنْ يعودُ فيزيدي رَهَقاً .. شَطَنْتُ حتى التصق بي
الاسمُ .. يا غَيْظِي الذي لن تُمَكِّنَ مِنِّي فتقتلني - ويا
لَيْتَكَ - أَحِبُّكَ وأكرهُكَ».

يدخل شيطانٌ من المَرَدَةِ ... يقول:

- خادِمُكَ يطلب الإذن.

- أُعْطِيَتْهُ .. قُلْ.

- تَمَّ الأَمْرُ.

- فَصِّلْ.

- كَبُرَتْ رؤوسُهم، وجاهروا بالتطاول على ساداتهم

الإنسيين الخمسة.

- وما فَعَلَ الخمسة؟

- تَوَعَّدُوا.

- قَوْلًا ؟

- بَلْ وَفِعْلًا.

- أَمْرُكَ أَنْ تُقْصِلَ.

- كَثُرَ مَا لَهُمْ وَمَا لَهُمْ، حَتَّى مَا عَادَ هُنَاكَ مَا يُسْرَقُ،
وَسَجَدْتُ لَهُمُ الرِّعْيَةَ.

- عَبَدُوهُمْ ؟

- كَادُوا .. إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ.

- وَبَعْدُ ؟

- وَبَعْدَ أَنْ أَطْمَأَنَّا لِرِعْيَةِ تَلَهَثَ وَرَاءَ فَرْجٍ وَذَهَبَ،
قَالُوا لِلْخَمْسَةِ: فَمَا بَعْدُ .. هَا قَدْ رَسَخَ مُلْكُكُمْ،
فَدَعُوا لَنَا مَا لَنَا، وَأَبْقُوا عَلَى مَا لَدَيْكُمْ .. وَنَقْتَسِمَ. ثُمَّ
لَا سُلْطَةَ لَكُمْ عَلَيْنَا بَعْدَ الْيَوْمِ.

- ضَاجِ الْخَمْسَةَ وَمَاجُوا.

- هَدَّوْهُمْ .. وَذَكَّرُوهُمْ بِأَنَّ أَوْهَامَ الْعَامَّةِ وَخِيَالَاتِهَا
«مِنْ صُنْعِنَا نَحْنُ» .. هَكَذَا قَالُوا ... فَكَمَا يَعْلَمُ سَيِّدِي،

المشاهدة والسمعُ وزُخِرُفُ القولِ ما تزال في أيدي
خَدَمِكَ الخمسة.

- الإعلام .. تابع.

- هَيَّجُوا عليهم الرعيَّةَ .. ذَكَّرُوها بما تَبَقَّى لديها مِنْ
كرامة، فقامتْ .. منهم مَنْ يريدُ كرسيًّا وعرشاً، ومنهم
طُلَّابُ حصَّةٍ مِنْ ذهب، ومنهم مَنْ لا يعرف ماذا
يريد ثم القِلَّةُ القليلةُ التي تستعمل عقولها.

- وهؤلاء؟

- حتى أولئك العاقلون انقسموا .. فمنهم مَنْ قال
ببقاء فرعون ومحاولة إصلاحه وإصلاح عبيده ..
ومنهم مَنْ فَرَعَنَهُ أَكْثَرُ وَأَكْثَرُ إِذْ شَجَّعَهُ وَقَالَ: لَا
تَخَفْ، سَنَبْنِي لَكَ عَرْشاً أَكْبَرُ، وَنَعْبُدُكَ ... وما بقي إلا
الذين منهم نخاف.

- عدُّهم ؟

- يزداد ..

- وما يفعلون؟

- يقولون الحقيقة .. يسجدون .. ينصحون .. يبنون ..

يساعدون .. يسامحون .. يعلمون الحب، ويحبّون.

- أولئك أعدائي .. أولئك، لا سواهم ... اكمل كلامك

عمن كبرث رؤوسهم.

- وكلما قلّ ما بأيديهم من ورقٍ يحسبونه ذهباً، عادوا

فاقترضوا من الخمسة بالربا، وكأنهم أعداء في كل

شيءٍ إلا هذا .. فيزيدون غرقَ بلادهم، وتزدادُ

حساباتهم في خزائن الخمسة، ويزدادُ الخمسةُ غنىً.

- ومن لا يحتاج؟

- يُخَوِّفون بعضهم من بعض، فيبيعون لهؤلاء وأولئك

سيوفاً .. وحديداً يصدأ كلّ حينٍ فيُجَدِّد.

- هل زدتهم فتنةً على فتنة؟

- ما قصرتُ، وما قصروا .. إنْ نُقصت فتنةً اخترعوا

غيرها من بناتٍ وهَمِهِم.

- الكبرى .. الكبرى.

- بَلَّغُوها، وَعَبَّدُوا أَنْفُسَهُمْ .. فَكَلِمَهُم يَتَوَهُم أَنَّهُ سَيُذْ
الدنيا؛ الخمسة الذين يدوسون بأحذيتهم صعوداً على
درجات سلالم الرخام المبهرج المصقول وأذنانهم
من الفراعين الذين تَلَذَّذُوا طويلاً بأنْ يُدَاسَ عليهم،
كي يظلوا يدوسون على رعيّتهم ... حتى الرعيّة يدوس
بعضُ منها على بعض من أجل الفُتات، إلا الذين منهم
نخاف.

- دَعَاكَ مِنْهُمْ، وَأَكْمَلْ.

- أَدْنِ الشَّاعِرَيْنِ مُعَابِدَهُمُ الْخَاصَّة، وَضَحِكَ الْخَمْسَةُ
مَنْ جَهْلُهُمْ؛ فَالْمُحَافِلُ الْجَدِيدُ تَمَّ طَبْخُهَا وَإِعْدَادُهَا
فِي الْمُحَافِلِ الْقَدِيمَةِ ذَاتَهَا .. فَلِكُلِّ عَيُون.

- هَاتِي خَبَرَ أَذْنَابِ الْأَذْنَابِ.

- يَزِدَادُونَ سِمَنَةً وَتُحْمَةً .. وَمِنْهُمْ مَنْ يَصَلِّي وَيَصُومُ
وَيَفْعَلُ مَا بَدَأَ لَهُ .. وَيَدْلُكُونَ مُوَاضِعَ الْأَلَمِ إِذْ يُوْهِمُونَ
أَنْفُسَهُمْ أَنَّ لَا مَجَالَ لِأَعْمَالٍ وَصَفَقَاتٍ إِلَّا إِذَا ظَلُّوا

أَذْنَاباً لِلْأَذْنَابِ .. ثُمَّ انْضَمَّ لِرَكْبِهِمْ مَنْ يُرَوِّجُ لِهَتَّكَهِمْ
عَلَى أَنَّهُ عَيْنُ الْوَسْطِيَّةِ .. وَأَنَّ مَا سِوَاهُ تَشَدَّدُ.

- تناحروا؟

- بَيْنَ بَعْضِهِمُ الْبَعْضَ .. وَبَيْنَهُمْ وَبَيْنَ نِسَائِهِمْ ...
وَبَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَوْلَادِهِمْ.

- احكِ لِي عَنِ النِّسَاءِ.

- ذَكَّرْتُهُنَّ.

- بِمَاذَا؟

- ذَكَّرْتُهُنَّ يَا مُوَلَايَ .. جَعَلْتُهُنَّ إِلَى الذَّكُورَةِ أَقْرَبَ
مِنْهُنَّ إِلَى الْأُنْثَى؛ هَمْسْتُ فَاسْتَجَبْنَ .. ثُمَّ ضِغْنَ
وَأَضَعْنَ.

- زِنِّي .. زِنِّي.

- مِنْهُنَّ مَنْ اكْتَفَتْ بِمِثْلِهَا.

- هَا قَدْ اقْتَرَبْتُ .. وَهَلْ مِنَ الرِّجَالِ مَنْ اكْتَفَى بِمِثْلِهِ؟

- قَدْ حَصَلَ.

- هَا قَدْ اقْتَرَبْتُ أَكْثَرَ .. زِدْ.

- وما زالت اللواتي منهن نخاف ..

- (يقاطعه): وغير ذلك؟

- التوابون والتوابات ..

- (يقاطعه وقد أضرر شراً): وأهل الشام .. هل فسدوا؟

- ليس بعد.

- ها قد ابتعدت ... ولكن اقترب .. قد صرت عندي

مُقرباً ... مكافأتك عندي أن أخبرك بما لا تعلم ... ثم

مكافأتك الكبرى بعدها.

- أُنعم مولاي، أُنعم.

- أما الذي لا تعلمه؛ فالخسنة إذ عبدوك ظنوك أنا، ثم لما

انقلبوا عليك كانوا واهمين .. فقد صاروا مِنِّي وأنا منهم،

يفعلون ما أريد ويظنون أنهم فاعلون ما يريدون ... كذلك

الفراعين المدعوسون إذ انقلبوا على ساداتهم، يتابعون فِعْلَ

ما أريد، وكلٌّ كَفَرَ وَعَبَدَ هواه ...

وكذا اللاهثون وراء الفُتات .. ألسنٌ أجمعكم كل يوم

فأسالكم مَنْ منكم أضلُّ واحداً من بني آدم، فلا يكون

منكم أحدٌ إلا ويتوهم أنه فازَ، وما منكم فائزٌ!؟ كذلك
هُم.

- (يَصْمْتُ قَلِيلًا).

- إذا انضبطوا كما انضبطت السماوات والأرض، فأين
أنا؟! لن أتركهم يَغْمُرُونَ المساجدَ وَيَعْمُرُونَ الأرض .. لي
جنودٌ أكثر منك قوةً، ومن أمثالك .. سَادَعُ الكسلِ
يُنْسِيهِمْ أَسْلِحَتَهُمْ مِنَ الذِّكْرِ وَالْهُدَى، وسَأُظِلُّ أَرَاهُنُ عَلَى
التَّكْرَارِ؛ عسى أن تكونَ لَذَّةٌ تَالِيَةٌ أَكْثَرُ لَذَّةٍ حَتَّى يَسْتَمِرُّوا
فِيكَفَرُوا ... لن أَدْعَهُمْ يَسْتَحِقُّونَ جَنَّةً مِنْهَا طُرِدْتُ .. ذاك
الانضباطُ الطَّوْعِيُّ يَقْتُلُنِي كُلَّ يَوْمٍ أَلْفَ مَرَّةٍ وَلَا أَمُوتُ ...
وأما انضباطُكَ أَنْتَ أَيُّهَا الْحَبَّابُ، فلكَ عَلَيْهِ مَكافأةٌ كَبِيرَى
.. تعال، اقترُبْ أَكْثَرَ.

- (يَقْتَرِبُ مُطَاطَأً مُسْتَبْشِرًا): ... سيدي.

وَبَلَمَجِ البَصْرِ، اسْتَلَّ إبليسُ رُحْمًا قَدْ مِنْ حَقْدٍ،
وَطَعَنَ بِهِ خَادِمَهُ الَّذِي صَارَ مُقَرَّبًا .. أَكْثَرَ مِنَ اللازِمِ.

الفصل الخامس عشر

ارتفع صوت Paul قليلاً وهو يبدي اعتراضه:
- أظن أن الذي ألف كذبة عرش الشيطان القائم على
ماء البحر، قد قرأ الصحيح من كتبكم بشكل جيد ..
ثم اقتبس من رواية تميم والجزيرة اقتباساً معدلاً ..
اقتباس بتصرّف، إن صحَّ التعبير.

استوضح أحمد قائلاً:

- حاشية لو سمحت.

- بما أن الثابت أن مكان الأعور الدجال هو جزيرة
ماء، في مكانٍ ما .. وبما أنه يمثل الشر بالنسبة لكل
الديانات، فلماذا لا يتم تطوير قضية الماء والبحر ..
أعني: حسب رؤية الذي ألف الكذبة حول الشيطان

... لماذا لا يستمر في نسج الأكاذيب بحيث تتحوّل

فكرة الأمكنة البحرية إلى خوفٍ عالمي؟

- والغاية ؟

- الغاية أن يتم إبعاد الناس عن البحث.

- البحث عن ماذا ؟

- عن العديد من الأمور ... إنّ أي إنسان، أو أي جهة

تفكر استراتيجياً، ستستنتج بسرعة أن السيطرة على

الطرق البحرية هي مفتاح السيطرة على العالم .. إنها

بدايةٌ صحيحة للتمدد. ومنذ أن عمل الإسبان

والبرتغاليون على إيجاد طرق بحرية بديلة، وحتى أيامنا

هذه؛ حيث النفط والغاز هما الكلمة المفتاحية لكل ما

يجري على الساحة الدولية تقريباً .. فالماء يا سيدي هو

موضع التنافس .. التنافس على الكوكب طبعاً ..

ودَعَكَ من أبحاثنا نحن؛ أصحاب الأعناق الطويلة

التي تتطلع إلى السماء كل يوم.

- يمكن أن أوافقك على قضية التنافس البحري، لكني لا أرى فيها مبرراً كافياً لاختلاق قصة طويلة عريضة عن عفريت يقيم في أحد المحيطات.

- بدأت تقترب من طريقة فهمي للموضوع.

- هاتِ .. أنا أسمعك.

- هل أنا مسلم؟

- لا.

- ألم أقرأ في كتابكم المقدس أن الشمس ستتوقف في النهاية، فبدأت أبحث في هذا الموضوع بشكلٍ جدي؟

- بلى.

- هنالك غيري .. هنالك أناسٌ آخرون فعلوا نفس الشيء .. دون أدنى شك؛ سواء كان الموضوع متعلقاً بالشمس، أو بذلك العالم الياباني الذي بحث في ماء زمزم، أو بالكوارث الاقتصادية التي يسببها بيعُ

الديون في اقتصادنا الغبي الذي لا يريد أن يسمع شيئاً
عن المراجعة .. أو بغير ذلك .. هل فهمتني ؟

- عُدْ إلى موضوع الماء لو سمحت.

- حسناً، إليك لبّ الموضوع ... هل يُعقل أن ملايين
البشر عبر التاريخ، من العلماء المحترفين، ومن
الباحثين، بل حتى من أصحاب العقول الراجحة
والجيوب المليئة .. قرؤوا، أو ربما سمعوا ممن قرأ، أن
أخطر مخلوق بشري سيظهر على وجه الأرض في يوم
ما .. موجودٌ في دير على جزيرة ... ولم يفكر أحدٌ منهم
بالبحث عن تلك الجزيرة ١٩

- ربما لم يصدّقوا قصة سيدنا تميم من أصلها ... أنت
نفسك شكّكت بها في البداية.

- الشكُّ الأولي حافزٌ للبحث .. سواء كانت نتيجة
البحث تأكيداً للرواية أو نقضاً لها.

- صحيح.

- ثم لا تنس أن الظواهر الكونية شيء، والأعور الدجال شيء آخر.

- كلاهما يهيم البشر كافة.

- صحيح لكن بطريقتين مختلفتين ... في موضوع الأعور الدجال هنالك تطابق في قضية أنه سيظهر .. الديانات الثلاث متفقة على أنه سيظهر ... الاختلاف فقط في الدور الذي سيقوم به .. في تصرفاته .. والاختلاف الأكبر هو في ما سيفعله السيد المسيح بعد أن يقضي على ذلك المسخ الأعور.

- وبالتالي ؟

- وبالتالي .. هل من المقبول عقلاً، أنه خلال أربعة عشر قرناً .. لم يفكر أحد في ما أفكر فيه أنا .. منذ أن التقيت بك عام 1996 ؟

- ألا وهو .. تحديداً لو سمحت ؟

- أين هي تلك الجزيرة اللعينة ... أين ؟

تبادل السادة نظراتٍ عميقة .. بدا الوجوم واضحاً
على وجوه الخمسة كلهم بدون استثناء؛ بعد أن تابعوا
كلمةً بكلمة ... لم ينطق أحدٌ منهم بتعليق.
فتح أحدهم هاتفه الفضائي المحمول، ضغط على
زرٍّ واحدٍ ثم على زر Enter .. وبعد بضع ثوان قال جملةً
واحدة: «أريد كل التفاصيل أولاً بأول» .. وأغلق
الخط.

الفصل السادس عشر

خالي الحبيب

مضت فترةً ليست بالقصيرة دون أن أراسلك،
فاعذرني. لقد ازدادت ضغوط العمل عليّ حتى
اضطرتُّ لأنْ أمضي إجازتي في باريس وأنا أعمل.
تصوّر يا خال أني أتيتُ إلى هنا لحضور مؤتمر
الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، وفي نيّتي أن أعود
فور انتهاء المؤتمر .. فلحق العمل بي إلى هنا.
واضطرت أن آخذ إجازتي السنوية بالمراسلة، وهأنذا
في خضم البحث والعمل، في وقتٍ يظن الناس أني في
إجازة. الحمد لله رب العالمين.

أكتبُ إليك يا خال، وأنا في أمس الحاجة إلى
وجودك بجانبني؛ ترشدني إذا تهتُّ، وتنصّحني إذا

احترث .. لن أطيل عليك المقدمات .. الخطب فادح
يا سيدي.

هل تذكر أستاذي الذي أشرف على رسالتَيَّ في
الماجستير والدكتوراة .. لا شك أنك تذكره؛ فطالما
حكيتُ لك عنه ... Paul Yaghan .. ذلك الإنسان
الرائع. أنا الآن معه في الريف الفرنسي، والموضوع
الذي نشتغل عليه خطيرٌ للغاية.

سأدخل في لب الموضوع حالاً .. لقد توصل Paul
بعد سنواتٍ من البحث، إلى نتائج علمية قريبة جداً
من أن تكون أكيدة الدلالة، تشير إلى قُرب وصول
الشمس إلى مستقرها؛ الأمر الذي أتانا خبره الصادق
في القرآن الكريم.

والموضوع الرئيسي في أبحاث Paul التي نعيد
التوثق منها معاً في الوقت الحالي، إنما هو التوقيت ...
لقد بات الأمر أقرب مما كنا نتصور يا خال .. أقرب

بكثير. وكل ما بأيدينا الآن من أرقام ودلالات ودلائل، يشير إلى ذلك بقوة.

طبعاً لم نفكر في نشر نتائج أبحاثنا، ولا حتى في الإشارة إليها، لا في المجلات العلمية المتخصصة ولا حتى في ورقة بحثية ضمن مؤتمر أو ورشة عملٍ علميٍّ .. مجرد التلميح إلى ذلك قد يثير ضجةً عالمية وفوضى لا تُحمد عقباها. وأقول: (لم نفكر) وأعني بها أننا لم نفكر بعدُ في ذلك؛ فَكَتُمُ العلم لا يجوز كما تعلم وكما علّمتني منذ طفولتي. كل ما هنالك أننا نترث إلى أن نزداد وثوقاً بنتائج عملنا ... هذا فضلاً عن موضوع آخر لا يقل أهميةً عما أخبرتك به في ما مضى من سطور.

الأمر الآخر أن Paul ، لما صار قاب قوسين أو أدنى من اليقين باقتراب موضوع الشمس من الحصول، بدأ يناقشني في كثيرٍ من الآيات القرآنية

والأحاديث الشريفة التي تخبر عن أحداث النهاية وأشرط الساعة. ولقد استوقفه كثيراً حديثُ الجساسة الذي رواه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم - رواية الفاضل عن المفضل - عن سيدنا تميم الداري رضي الله عنه وأرضاه.

لم يقتصر اهتمام البروفيسور Yaghan على كون تميم نصرانياً في الفترة التي رأى فيها الدابة والأعور الدجال، بل تجاوزه إلى سؤالٍ مهم: أين هي تلك الجزيرة؟ ثم إنه لم يأل جهداً في البحث ضمن مجال تاريخ الملاحة البحرية، وبذل جهوداً كبيرة في محاولة منه لتحديد مكان الجزيرة.

إنه يستمع باهتمامٍ كامل لكل ما أنقله له من ترجمة معاني بعض الآيات القرآنية الكريمة، ومن ترجمة فحوى الأحاديث النبوية ذات العلاقة بهذا الموضوع. وهو يتوقف كثيراً عند التفصيلات، إلى

درجة أنه صار يعرف الفروق الدقيقة بين الصحيح والحسن والموقوف والمرفوع .. إلخ. ولعلك ستعجب إذا ما علمت أنني اضطررتُ لاقتناء نسخة من (فتح الباري) هنا في باريس، لأني غير مختص كما تعلم.

يا خال .. أنا لا أتعمد الضغط على Paul بسؤاله عما إذا كان قد توصل إلى نتيجةٍ قطعية بشأن مكان الجزيرة، وذلك على الرغم من صداقتنا القديمة ... وأعترف لك بأني أشعر بالخوف إزاء مجرد التفكير باحتمالات إجابته المتوقعة.

تُرى هل اقتربت السُّبْحَةُ من انفراط عقديها ؟ ... يرتجف قلبي رعباً يا خال، كلما فكرتُ في هذا. لقد بُتُّ أخافُ على نفسي وعلى صديقي من فضولنا الزائد .. ولكن ما باليد حيلة؛ فأنا نفسي لا أملكُ لِحْماج فضولي العلمي كبهاً ولا ضبطاً. وأما Paul فحدّث ولا حرج؛ إنه ما كينة عملٍ منطلقة بقوةٍ وسرعةٍ

فائقتين، ومجرد ضغطٍ صغيرة على الكابح في هذه المرحلة .. ربما أدَّتْ إلى حادثٍ مريع.

انصحنى يا خال .. قُلْ لي شيئاً ما .. صدَّقني أنك ستريحني كثيراً إذ ما قلتَ لي: دَعْ عنكَ هذا كله وعُدْ إلى دبي. وأنا أعرف تماماً كم تكره الإطالة، وكم تحب الاختصار، فباختصار ... هل أتابع؟

انتهى الدكتور عبد القادر من قراءة الـ Email ... كان قد كَبَّرَ حجم الـ Font على شاشة حاسوبه المنزلي كي يتمكن من القراءة بسهولة. حَرَّكَ الفأرة ببطء كما يفعل معظم مستخدمي الحاسوب الذين في مثل سنه .. بحث عن أيقونة الـ Reply .. ضغط عليها .. ثم بدأ يبحث عن مواضع الأحرف على لوحة المفاتيح؛ واحداً تلو الآخر ... كَتَبَ الشيخ: «افْعَلْ؛ ولا حَرَجْ».

الفصل السابع عشر

سأل أحمد سؤالاً مفصلياً:

- إذا سلّمنا بأن أحداً غيرك قد حاول البحث عن مكان الجزيرة، ونجح في العثور عليها ... فما هي الفائدة التي يرجوها ؟

أجاب Paul دون تردد:

- القوّة ... طالما أن المسخ يملك قوّة ما على التخريب، فهو إذن مصدرٌ للقوّة .. وخلال التاريخ البشري كله، كان أصحاب المال والنفوذ - وما يزالون - يسعون للسيطرة على منابع القوّة؛ أيّاً تكن طبيعة تلك القوّة وصِفَتُها، ومهما تكن سبل السيطرة عليها ومن ثم استثمارها ... وحتى لو لم يتمكنوا من استثمارها لسببٍ ما .. مجردُ معرفة المكان قوّةٌ .. فما بالك بالسيطرة عليه؟!

- (يصمت أحمد لبرهة).

- ما لك ؟

- كيف لم تخطر هذه النقطة على بالي من قبل ...

- قُلْ.

- العلاقة بين أين و متى ... العلاقة بين المكان والزمان.

- أحمد أوضح.

- أنت أشرتَ إلى ذلك من حيث لا تدري .. عندما قلتَ

أنهم - حتى لو لم يقدرُوا على تسخيرهِ لصالحهم -

يكفهِهم أنهم عرفُوا مكانه وسيطروا على ذلك المكان.

- وإذن ؟

- لديك فكرة، ولا شك ... أن إسرائيل قد وضعت

كاميرات مراقبة تعمل 24 / 24 ساعة على جبل الزيتون

.. هناك حيث - حسب عقيدتكم وعقيدتهم - سينزل

السيد المسيح عليه السلام.

- طبعاً .. هذا معروف.

- مع حفظ الفارق، طبعاً ... فإن الذين سيطروا على مكان الأعور الدجال، لا يملكون التحكم فيه كمخلوق ... لكنهم على أقل تقدير، سيكونون أول من يَعْلَم - حين ينطلق - أنه انطلق.

- يا إلهي ... صحيح مائة بالمائة.

- إن حدثاً عالمياً مثل هذا .. هو نقطة فارقة على الخط الزمني؛ يمكن استثمارها لرسم سيناريوهات استباقية محتملة لكثير من الأمور.

- مع ملاحظة أنها نقطة متحركة .. أعني أنها غير محددة بشكلٍ نهائي.

- جيد .. ولكن حتى احتمالاتها يمكن أخذها بعين الاعتبار أثناء التخطيط الاستراتيجي .. ثم لا تنسَ المقايضة.

- أية مقايضة ؟

- تخيّل معي لو أن الجهة التي تسيطر على مكان ذلك المسخ .. أعلمت عدداً محدوداً جداً من اللاعبين

الدوليين بما تعلمه .. دون تحديد المكان بطبيعة الحال .. ثم بدأت تطالب بمعلومات لقاء معلومات .. وتنازلات لقاء تنازلات .. ومعاهدات لقاء معاهدات .. إنها أربعون يوماً فقط.

- أربعون يوماً !

- هذه هي المدة الزمنية الفاصلة بين انطلاق الأعور الدجال .. ونزول سيدنا عيسى عليه السلام ... ونزوله هو النقطة الكبرى على الخط الزمني لأحداث آخر الزمان ... من هنا تتضح أهمية معرفتهم لمكان المسخ، وبالتالي أهمية الورقة التي بين أيديهم .. إنها المعرفة .. أسبقية وصول المعلومة ... مرةً أخرى أقولها ... عندما ينطلق - وليس هذا في أيديهم حتى لو توهموا ذلك - سيكونون أول من يعلم بأنه انطلق.

- وكأنهم كأنهم ينتظرون انطلاقه.

- تماماً .. ينتظرون ويراقبون فقط ... ولو أن أمر إطلاقه بيدهم لكانوا أطلقوه منذ زمنٍ بعيد والآن

قُلْ لي .. هل وصلتَ إلى نتائج بخصوص محاولتك
لتحديد مكان الجزيرة ؟

- المراحل التي قطعتها ستدهشك يا صديقي.

- أطرني.

فتح Paul الشاشة على الشريحة التالية من عرضه
التوضيحي. كانت الشريحة تتضمن خارطة ملاحية
بحرية تشير إلى نقطة انطلاق افتراضية A من شرق
البحر الأبيض المتوسط؛ تحديداً على الشاطئ
الفلسطيني ... مع عدة أسهم؛ يشير كلُّ منها إلى واحدٍ
من احتمالات الاتجاه نحو النقطة الجاري البحث
عنها ... النقطة B. تضمّن الشرح كثيراً من المعلومات
البحرية، بحيث اضطر Paul إلى العودة إلى أبحاث
الدكتور هاينز أكثر من مرة، كي يجيب على تساؤلات
أحمد واستفساراته. ثم بدأت مناقشة احتمالات
النقطة B؛ الأمر الذي استهلك كثيراً من الوقت ...

خوارزمية الحالات الممكنة كانت شديدة التعقيد
وكثيرة التفصيلات.

وعند الساعة الثانية والنصف صباحاً، بدا
التعبُ على الأستاذين ... منحَ Paul نفسه استراحةً
لدقيقتين؛ كي يريح عينيه وحباله الصوتية التي نال
منها الإعياء .. ثم قال:

- أبحثُ في هذا الخضمّ من الاحتمالات .. عن عاملٍ
ترجيح.

ابتسم أحمد بمودةٍ صديقٍ قديمٍ يريد تخفيف
الجو، قائلاً:

- ما رأيك في أنّ لديّ ما يُرجّح .. منذ أكثر من ثلاث
ساعات ... ولكني كنتُ أتلذذ بتعذيبك قليلاً.

وانتابت Paul حالةً من الفرح الطفوليّ الممزوج
بغضبٍ خفيف .. تناولَ وسادةً من الأريكة التي
بجانبه، وضرب بها أحمد الذي تلقّاها وهو يضحك

صار الوضع أخفَّ جدّةً، وكأن حركة المزاح قد خفت من ثقل الهواء الذي صار ضاغطاً بعد أيام من الجدّة.

- قُلْ وإلا سأجعل إسترتجيك وأنت نائم.

- طيّب .. طيّب .. سأتكلم ... (قالها أحمد وهو يغالب ضحكته) .. اسمع ... حتى نرجّح احتمالاً ما من احتمالات النقطة B .. ينبغي أن تتوافر لدينا إشارةً ما .. تلميحٌ ما، إلى المكان الذي سيظهر فيه الدجال.

- بمعنى ؟

- بمعنى أن مكان ظهوره لا بد وأن يكون قريباً من مكان خروجه .. مبدئياً طبعاً ... إذ من الممكن أن يخرج من مكانه أولاً، ثم ينتقل إلى مكان إعلانه عن نفسه .. وربما كانت المسافة بين مكاني الخروج والظهور بعيدةً .. ولكننا نحتاج إلى عاملٍ ترجيحٍ؛ كما قلت .. في غياب عاملٍ تأكيدٍ حاسم.

- هل استمتعت بضربة الوسادة

- لا .. وإنما أمهدُ لما سأقوله يا سيدي، هنالك حديثٌ شريف قاله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم؛ معناه ما يلي: إن الأعور الدجال يظهر من جهة الشرق .. وبما أن الحديث قيلَ في المدينة المنورة؛ في المملكة العربية السعودية حالياً ... فإن علينا أن نوجّه تفكيرنا مبدئياً إلى الشرق من المدينة.

- عظيم .. تابع.

- وفي الحديث نفسه إشارةٌ إلى أن الشرق المذكور إنما هو أرضٌ للفتن ... وأما مفاجأتي الكبرى لك فهي ذِكرُ صريحٍ لاسمِ مدينةٍ بعينها

- أحمد .. أنا في عمرٍ مناسب جداً لذبحه قلبية .. انطق.

- عندما يخرج ذلك المسخ، لن يكون وحيداً .. بل سيكون معه مرافقة من الحرس الشخصي .. عددهم سبعون ألفاً من يهود مدينة خراسان ... يرافقونه وقد ارتدوا ملابسهم الخاصة .. الطيالة.

- خراسان ... هل تعني ..

لم يكمل Paul جملته .. فقد عَمَّت الظلمةُ
المكانَ فجأةً .. انقطع التيار الكهربائي ... قال أحمد وهو
يشغل خاصية الإضاءة في جواله:

- ما هذا .. أليس عندكم نظام بديل للكهرباء ... Paul
أين أنت ؟

لم يسمع أحمد صوت Paul ... وإنما صوت طلقةٍ
نارية .. ثم طلقة أخرى تلتها بعد ثانيتين أو ثلاث ..
ثم صوت إستر؛ تصرخ:

« I have a full gun here, you son of »

انبطح أحمد .. وصرخ:

- إستر .. أهذا أنت ؟

جاءه صوت إستر:

- لا تَحْفَ، لقد هربوا .. سأشغل نظام الكهرباء
البديل .. هل أنتم بخير ؟

أجاب أحمد بصوتٍ مضطرب:
- Paul .. لم أعد أسمع صوته.

سَمِعَ صوتُ Paul يقول:
- أنا بخير .. إستر أين أنتِ ؟

الفصل الثامن عشر

أنهى المفتش الفرنسي بحثه في أرجاء المكان، فيما كان مساعده يأخذ إفادة كل من أحمد و Paul و إستر. كان المفتش في الخمسين من عمره أو يزيد قليلاً ... بديناً نوعاً ما؛ يجهد باستمرار كي يرسم على وجهه الممتلئ ملامح الجدّة .. والقلق الذي في عينيه يُفشل محاولاته لجعلهما تبدوان ثاقبتَي النظرة .. وعصبيته لا تخفى على أحد.

سأل المفتش:

- حضرة الرقيب، هل أخذت كل الإفادات؟

- نعم، سيدي.

تقدّم المفتش من الأريكة التي يجلس عليها Paul و إستر متلاصقين بشكلٍ حميم، وبجانبيهما كنبه استرخى عليها أحمد ... قدّم نفسه قائلاً:

- عذراً .. أنا مضطر لبضعة أسئلة أخرى .. اسمي:
المفتش Boirot .

بدت الدهشة على وجوه الجميع، وفشلت إستر في
مغالبة ضحكتها التي انفلت منها جزءً واضح ..
ضغط Paul بركبته على فخذها، فكفت ... تغير وجهه
المفتش شيئاً ما وهو يقول:

- Boirot وليس Poirot ... مجرد تشابه أسماء، ليس
ذنبى إذا كانت أغاثا كريستي تخلط بين أسماء
العائلات الفرنسية والبلجيكية .. ما علينا.
قام Paul من مكانه، ومدّ يده مصافحاً المفتش
وهو يقول بجديّة:

- أرجو قبول اعتذاري .. بروفيسور Paul Yaghan
عالم فلك .. إستر مساعدتي الشخصية ..
والبروفيسور أحمد نادر .. الاختصاص نفسه.
- عربي !؟ .. (سأل المفتش)

أجاب أحمد بإنكليزية متقنة:

- أستاذ جامعي من الإمارات العربية المتحدة.

- حسناً (قال المفتش) .. مَنْ اكتشف وجود اللصوص أولاً؟

أجابته إستر:

- أنا.

قال المفتش:

- ما الذي حدث ... بالتفصيل، لو سمحت.

وروت إستر ما حصل بالتفصيل، والمفتش
ينصت باهتمام، إلى أن كررت دون أن تنتبه، جملةً
للمرة الثانية؛ تتعلق بأن صوت الحركة المريبة أتاها
من جهة غرفة الأثاث. فقاطعها المفتش قائلاً:

- عندكم غرفة خاصة للأثاث؟!

تَدَخَّلَ Paul ، قائلاً:

- عندما استأجرنا المكان كانت كمية المفروشات كبيرة، فاضطررنا لوضع ما لا نريد استعماله في غرفة خاصة .. لا نستعملها هي الأخرى.

أردفت إستر موضحةً:

- في القصر غرفٌ كثيرة غير مستعملة أيضاً.

صمت Boirot قليلاً وهو يفكر بسرعة، ثم سأل:

- هل لي أن أعرف سبب اختياركم السكن في الريف .. أعني أن المدينة أكثر أنساً.

أجاب Paul بثقة:

- لم آتِ إلى هنا للسياحة يا سيدي .. أنا باحث متخصص في مجال أكاديمي معقد؛ وعلم الفلك يحتاج إلى استراحاتٍ صفاء ذهني كل حين ... والريف الفرنسي رائع.

لم يشعر Boirot إلا بارتياح نسبي .. لم تَنْظِلْ عليه حيلةُ التستر وراء ثوبِ الأستاذية الذي تترس وراءه البروفيسور في جوابه الأخير ... تشاغلَ بالنظر في أرجاء القصر الريفي الشبه المعزول عن العالم الخارجي ... كان - عملياً - يحضّر سؤاله التالي:

- والبروفيسور نادر؟

سارعَ Paul إلى الإجابة قبل أن يتحدث أحمد:

- زميل .. وصديقٌ قديم، وهو في باريس لحضور مؤتمر، وجاء لزيارتنا.

تأمَّلَ المفتش بعينه الصغيرتين منظرَ جلوس إستر و Paul متلاصقين. وخطر له أن مَنْ يأتي لممارسة الصفاء الذهني لا يصطحب معه عادةً مساعدةً أبحاث ... «يبدو أنها تقدّم مساعدات من نوع خاص»؛ همسَ في نفسه .. ثم انتقلَ إلى الأهم:

- هل تفقدتم حاجياتكم .. هل هنالك شيء مفقود؟

- لا .. (قالت إستر) ... باستثناء تبعثُ بعض قطع
الأثاث.

زَمَ Boirot شفتيه حسب عادةٍ قديمة، وسأل إستر:
- هل رأيتِ المقتحم؟
أجابت:

- رأيتُ ظلاً لشخصين؛ أحدهما طويل القامة .. كان
المكان مظلماً فلم أتبيّن ملامحهما.

غادر المسيو Boirot ذلك المكان الغريب، ومقدارُ
كبيرٍ من الشكوك يساوره .. فمجرد محاولة سرقة
يمكن أن تكون مفهومةً في حيِّ راقٍ بالمدينة، وأما
أن تجري في قصرٍ ريفيٍّ شبه معزول عن العالم
الخارجي .. ففي هذا شيءٌ غير مفهوم. ثم ما الذي
يفعله ذلك العربي هناك؟! .. لم تكن ملابسه توحى
بأنه مجرد زائر .. كان يبدو واضحاً أنه مقيم مع
الأستاذ الآخر؛ رفقةً تلك المرأة ذات النظرة العميقة

... لم يُفقد شيءٌ من حاجيات البيت .. والقطة تملك
مسدساً مرخصاً.

التفت Boirot إلى الرقيب الذي يقود السيارة
بجانبه، وقال:

- Pierre .. هل فهمت شيئاً؟

- مجرد محاولة سرقة فاشلة يا سيدي المفتش.
هزّ المفتش رأسه؛ فاقداً الأمل من مأموره الذي
ابتلي به منذ مدة .. أخرج من جيبه هاتفه المحمول ..
تنهّد وهو ينتظر إجابة الطرف الآخر...

- Claire .. ريثما أصل إلى المركز، أريدُ تحريات كاملة
عن أستاذ جامعي عربي دخل الأراضي الفرنسية من
مدة وجيزة .. نادر ... أحمد نادر.

الفصل التاسع عشر

عندما قامت إستر من مكانها، وقالت بأنها مرهقة وبجاجةٍ إلى النوم بعد كل ما حدث ... لم يعقب Paul، بل تبادل مع أحمد نظرةً سريعةً حملت أكثر من معنى ... السنوات الطويلة من الصداقة بين الرجلين كانت كافيةً لجعل لغة العيون بينهما كافيةً جداً، فكثيرٌ من التساؤلات باتت بحاجةٍ لإجابة.

قام Paul من مكانه، وضع يده على كتف إستر .. وجذبها بتؤدة؛ مُشيراً إلى أنه سيرافقها. وقبل وصولهما إلى غرفة النوم بقليل، سألها: «لديكِ هذا المسدس منذ زمن بعيد؟» ... أجابته بدلالٍ مَنْ تعرف يقيناً أن عشيقها أضعف من أن يرفض لها طلباً: «أنا مستنفذةٌ بالكامل وبجاجةٌ للنوم .. نتحدث غداً» ... قالت ذلك وهي تسحب نفسها من تحت ذراعه

وتفتح باب غرفة النوم دون أن تشير أيُّ مفردةٍ من لغة جسدها إلى أنها تريد منه أن ينام معها .. الآن على الأقل ... فَهَمَ Paul بسرعة .. وتجاوب بسرعة أيضاً .. «سألق بك بعد قليل .. تصبحين على خير».

التناقض بين الجملتين لم يكن لينطلي عليها، ولا الانصراف السريع لـ Paul أيضاً ... كان كل شيء واضحاً؛ لقد بدأ يشك .. لكنها كانت غاضبةً جداً، لدرجة أنها لم تفكر بذلك طويلاً؛ فقد كان هنالك ما هو أكثر أهميةً بكثير.

ترددت لبرهة في تناول قرص دواءٍ منوم، ثم عَدَلْتُ عن الفكرة .. قامت وأحضرت جَوالها الثاني الذي لم يره Paul أبداً ولم يدرِ بوجوده أساساً ... كتبت: «ماذا كان ذلك؟». جاءها الجواب: «مجرد قرصة أذن، لا أكثر» .. فازدادت غيظاً ... فَكَّرْتُ في إرسال رسالةٍ ثانية تستفسر فيها عن سبب عدم

إعلامها مسبقاً، ثم تذكرت أن ذلك مما يخالف التعليمات؛ فلو وجبَ إعلامُها لَتَمَّ ذلك ... ومن حيث النتيجة، تناولت أخيراً الدواء المنوم وخلدت إلى الفراش.

في الطابق السفلي، تكرر نفس السؤال .. لكن من جهة أحمد هذه المرة ... إذ قال لـ Paul:

- ماذا كان ذلك ؟
- يبدو أنهم لحقوا بنا إلى هنا.
- والسلاح الذي مع إستر ؟!
- عادي .. أنت تعرف الحياة في أمريكا.
- ولكننا الآن في فرنسا .. هل تخولها الرخصة التي معها أن تتجولَ بسلاحها حتى في أوروبا ؟!
- لا أدري .. ولكن المفتش عندما شاهد الرخصة، لم يقل شيئاً.

- وهذا هو المحيّر في الموضوع.
- ربما أستفسر منها غداً.
- لا .. لا تفعل.
- لماذا ؟
- شعرتُ أنها تريد أن يمر الموضوع بسلام ... المسدس مرخص وكفى.
- أحمد .. قُل لي بصراحة .. هل تشك في إستر ؟
- نعم.
- غير معقول يا رجل .. مستحيل.
- طيّب .. لي عندك رجاء؛ وأرجو ألا تخيّبني.
- لماذا هذه الشكّيات .. قُل.
- لا تسألها عن موضوع المسدس .. أرجوك.
- حسناً.
- تعِدني بذلك ؟
- قُلنا حسناً .. ما لك !

في الجزيرة ... كان واحداً من السادة الخمسة
غاضباً للغاية .. لم يكن جالساً في القاعة الخاصة؛
بل كان لوحده هذا اليوم في مكتبه رفع سماعة
هاتفٍ خاص وسأل هو الآخر: «ماذا كان ذلك؟».
ويبدو أن الجواب لم يعجبه ... فقد أصدر اصطدام
السماعة صوتاً سمعه Robert الجالس في الخارج
كالعادة ينتظر أوامر الخدمة.

أن يكون حادثٌ ما قد تمَّ ترتيبه من قِبَلِ جهةٍ
أقلَّ شأنًا من السادة الخمسة .. فهذا مما يحصل نادراً
جداً ... وأما ألا يدروا به إلا بعد حدوثه، فذلك أمرٌ
خطير. لكن هذا لم يكن السبب الوحيد لغضب
الجنّلمان ... فقد كان واحداً من قرنائه الأربع الباقين
مريضاً .. ويبدو أنه مرض الموت.

بعد بضع ساعات، وعندما قُبِضَ ذلك المريض ..
وذهب إلى حيث ذهب ... أصدر كثيرٌ من الهواتف

عبر العالم رنيناً أحمُ تلك الهواتف، كان هاتف
إستر الثاني .. الذي لا يعرف عنه Paul أيَّ شيء.

طال الرنين وإستر غارقة في النوم بفعل الدواء
القوي ... لكنها في النهاية استيقظت ... وأُعلِمَت
بالخبر.

بعد قليل .. رنَّ هاتف إستر الأول ... وأُعلِمَت
أيضاً .. بالخبر.

الفصل العشرون

«لم أعرف أن لك أقارب في فرنسا» ... قال Paul
لـ إستر مستغرباً. وكعادتها، لم تُحِبَّ إستر بكلام
كثير .. قالت أن درجة القرابة بعيدة ومن جهة
والدتها، ثم تحدثت في بضع أمورٍ عادية من قبيل طعام
الغداء الجاهز في الشلاجة وما إلى ذلك. نظرت من
النافذة إلى سيارة الأجرة التي وصلت، قبّلت Paul
قبلةً سريعة وغادرت.

في طريقها لحضور مراسم الدفن، شردت عينا
إستر عبر النافذة، تتأمل روعة الريف الفرنسي، في
الوقت الذي كان عقلها يفكر بسرعة في أمورٍ أخرى.
وبعد دقائق، لمعت عيناها تذكّرت تعليماتٍ
قديمةً كانت قد تلقّتها للتصرف في مثل هذه
الحالات، فباشرت التنفيذ.

أخرجت من حقيبتها هاتفها المحمول، وأجرت اتصالاً قصيراً

- قطتي الشرسة .. (قالها Paul كعادته إذ يردُّ على اتصالات إستر).

- حبيبي .. نسيْتُ أن أقول لك: لا تَنَسِ الملابس في الغسّالة .. آسفة، لكنك تعرف ... الشكليات ومراسم الدفن.

- لا مشكلة .. سأندبّرأموري.

- يجب أن أكون متواجدة .. في الجنازة على الأقل.

- لا تشغلي بالك.

لم تَكْتَفِ إستر بذلك، بل كتبت رسالة نصّية إلى Paul بعد بضع دقائق؛ قالت فيها: «تبّاً للشكليات .. لن أتأخّر». ولم يردّ عليها Paul كي لا يزيد من انشغال بالها، لكنه استغرب قليلاً من كثرة

اعتذاراتها ... فكَر في سِرِّه: «أبناء الأقلّيات حريصون على حضور مناسباتهم أكثر ممّا».

«هل يمكننا أن نغيّر طريقنا؟» .. سألت إستر السائق الفرنسي ذا الأصول المغربية. وعندما جاء رُدُّه بالإيجاب، أعطته إستر عنواناً آخر مختلفاً تماماً عمّا حدده له مركزُ شركة سيارات الأجرة عبر اللاسلكي ... استغربَ الرجلُ الأمرَ، لكنه لم يُبِدْ أيّ تعليق، بل أخبرها بأدبٍ جمٍّ أنه سيبلِّغ المركز عبر اللاسلكي عن العنوان الجديد ... لكن إستر كانت أسرع منه؛ إذ دفعت إليه بقشيشاً مجزياً جداً وهي تقول: «أخبرهم فيما بعد .. لا أريد أن أتأخّر» ... سكّت الرجل واكتفى بزيادة السرعة.

بعد حوالي نصف ساعة، وصلت إلى جوال إستر رسالة نصيّة جاء فيها: «تعاذينا لك وللعائلة الكريمة». ردت إستر بسرعة: «شكراً جزيلاً». عاودَ

الرقم نفسه إرسال رسالة أخرى: «كان بوّدي الحضور، لكنني الآن في ...». كان الجزء الأخير من الرسالة يتضمن عنواناً جديداً.

قاطعت إستر استرسال السائق في الاستماع إلى موسيقى مذياع السيارة، وأعطته عنواناً جديداً. قال السائق، وحلاوة طعم البقشيش ما تزال في فمه:

- حسناً، سيدتي.

العنوان الجديد الذي توقّفت إستر عنده، لم يكن ملفتاً للنظر بالنسبة للسائق ذي الثلاثين عاماً؛ كان متجراً للألبسة يبدو من مظهره الخارجي أنه متخصص في أمور ألبسة النساء واحتياجاتهم الخاصة بالعزاء ومراسم الدفن. دخلت إستر إلى المتجر، غابت هناك حوالي ثلث ساعة، ثم عادت وفي يدها كيسٌ توجي ألوانه بأنه يحتوي على أشياء خاصة

باستكمال الرداء الأسود وغطاء الرأس الداكن اللون.

«أسرع، أكادُ أتأخر» ... تمنّي السائق لبقيشيش آخر، جَعَلَهُ يتحوّل في ثوانٍ إلى بطلٍ من أبطال رالي السيارات.

سارعت إستر إلى فتح الكيس .. أخرجت منه غطاءً رأسٍ داكنَ اللون وضعتُه جانباً على مقعد السيارة، ثم أخرجت علبةً ملفوفةً بعناية. قامت بِقَضِّ الورقِ الفاخر الملفوف، وأخرجت منه نظارةً سوداء فاخرة هي الأخرى.

«ما هو رقم جوال الخالة Vera؟» ... كتبتُ إستر في رسالة نصيّة موجّهة إلى نفس الرقم ... جاءها الجواب بدون كلمات؛ مجرد رقم هاتف خليوي.

وبدون إبطاء قامت إستر ببعض الحسابات ذات المفردات المستنبطة من أعداد رقم الهاتف، فتوصلت

إلى رقم جديد تتخلله أحرف ... أمسكتُ بالنظارة
السوداء، وضعت سبّابتها على نقطةٍ معينة من النظارة،
وضغطت عليها مع الاستمرار.

أومضَ ضوءٌ أزرق خافت من النقطة التي
ضغطت إستر عليها. انتظرت بضع ثوانٍ، ثم شرعتُ
بالضغط لعدة مرات على نفس النقطة ... كانت
الضغوطات مقسّمة إلى مجموعات منفصلة؛ لكلٍّ منها
عدد معيّن، وتفصلُ الواحدة منها عن الأخرى مدةً
محددة بالشواني .. وفي النهاية، تمَّ إدخال الـ Password
بنجاح.

عاد الضوء الأزرق الخافت إلى وميضه القصير
مرةً ثانية، لكن مع صوتٍ Beep خافت صدرَ من
جهته لمرةٍ واحدةٍ فقط ... وضعتُ إستر النظارة على
عينيهَا وبدأت تجول بناظريها عبر النافذة، ثم قالت
للسائق: «هل ما زلنا بعيدين؟» ... أجابها السائقُ

بالنفي. ولكنها حرصت على الدردشة معه ببضع جُمَلٍ.
وعندما أجابها في إحدى المرات، عاودت نفس
السؤال معتذرةً بأنها لم تسمع إجابته بسبب ضجة
السيارة والطريق، فعاود تكرارَ الإجابة.

بعد دقائق، جاءتْها رسالةٌ نصيّة، لكن من رقم
الحالة Vera هذه المرة: «غاليقي إستر، علمتُ بالخبر.
قلبي معكِ .. يشاهد ويسمع .. كوني بخير» ... تنهدت
إستر وكأَنَّ حِمْلًا ثَقِيلاً زال من على كاهلها .. أغرقتْ
جسدَها في المقعد الوثير، وتركت لعينيها حريةَ تأمُّلٍ
المشاهد عبر النافذة.

في مكانٍ آخر من العالم، كانت مشاهدُ الفيديو
الحيةَ تنتقل عبر البثِّ الحيّ؛ من الكاميرا الفائقة الدقة
في نظارات إستر، إلى مُعالِجاتٍ ووسائطٍ تخزينٍ
حاسوبيّة عملاقة ... كان قلبُ الحالةِ Vera فعلاً ..
يشاهد ويسمع.

الفصل الحادي والعشرون

الموت مهما تكن أسبابه، وظروفه، والمستوى الاجتماعي لبيئته، يبقى حقيقة لا تتغير؛ إنه نهاية الرحلة، ووصول القارب إلى ساحل جزيرة أخرى ليس فيها إلا مَنْزِلَةٌ مِنْ مَنْزِلَتَيْنِ .. السعادة الأبدية المطلقة، أو العذاب الأبدي الأعظم.

في المقبرة .. في ذلك المكان الذي نتجّب جميعاً الذهاب إليه، يتواجد أناسٌ مختلفو الطبائع والعقائد ومناهج التفكير ... بعضهم يظنّ وإهماً أنّ ذلك الذي جاؤوا ليشهدوا دَفْنُهُ تحت التراب، قد وصل إلى النهاية. والبعض الآخر يعرف يقيناً أنها البداية. لكن الغريب في الأمر، أنّ أكثر الموجودين علماً ومعرفةً ويقيناً في تلك اللحظات، لا يستطيع أن يخبرهم بما يعلم؛ لأنه ببساطة لا يستطيع الكلام

مثلهم .. إنه يقول ويتكلم، لكن بسياقٍ مختلف عن السياق اللغوي الدنيوي ... إنه المُتَوَقِّ؛ ذلك الشخص الذي جاؤوا جميعاً، كي يُواروا جسدهُ التراب.

وقفتُ إستر بين الحاضرين ذوي البذلات الباهظة الثمن؛ تتأمل. كان كل شيء يجري بهدوء وكما تمَّ الترتيب له تماماً. وحرصت المرأةُ الذكيّة على أن تجولَ ببصرها في أرجاء المكان، وأن تنظر إلى الوجوه، بل حتى إلى السيارات ... كانت نظارتُها السوداء ذات تقنيّة التصوير فائق الدقّة، والمزودة بإمكانية البثّ الحيّ، تؤدي عملها بدقّة متناهية، في نقل ما يجري.

ربما ساهمَ الثراءُ الفاحش والمليارات والنفوذ، في إضفاء كثيرٍ من البريق على التفصيلات ... خشبُ التابوت، السيارة التي تحمل النعش، الإجراءات الأمنية، ومستوى الحاضرين الاجتماعي لكن

المحصلة واحدة .. وضع جثة هامدة في حفرة عميقة،
ثم إهالة التراب عليها، وبعد ذلك ينصرف الناس
ليأكلوا ويشربوا .. وكأنهم يقولون لأنفسهم سرّاً: «ما
زلنا على قيد الحياة .. لم يحن الوقت بعد».

ومن عجيب صنْع الله تعالى، أن أعظم واعظ في
الدنيا - الموت - يعْظ بِصَمْت .. بِصَمْتٍ مخيف ..
فَيَصُمُّ الناسُ سَمْعَ قلوبِهِمُ اللاهية، إلى أن تُفاجئهم
أعينُهُم برؤية الحقيقة.

وأكثر الناس معرفةً وعلماً و يقيناً في هذا اليوم ..
في المقبرة ... ذلك المسجى في التابوت ذي الخشب
الباهظ الثمن، لم يكن إلا واحداً من خمسة
أشخاص .. يملكون في أيديهم إمكانيات هائلة من
الحلّ والربط ... لكن أحداً منهم لا يملك - أمام
الموت - إلا أن ينظر بصمتٍ ويتأمل .. وأما أن يَعْتَبِرَ،
فتلك مسألة أخرى فيها نَظَرٌ.

والعجيبُ أَنْ عدد الناظرين بِصَمْتٍ، لم يكن
أربعة - كما هو متوقَّع - فعددُ الخمسةِ لا يتغيَّر .. لم
يتغيَّر منذ قرون ... كان إلى جانب السادة الأربعة،
سَيِّدٌ خامسٌ جديد، هو ابنُ الراحلِ الذي لم يَعُدْ
سَيِّدًا، ولم يَكُنْ؛ إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّوْهَا هُمْ
وآبَاؤُهُمْ .. وَجُمُوعُ الْأَغْبِيَاءِ السَّاجِدِينَ لَهُمْ، اللاحقينَ
بهم إلى نفس المصير البائس. وقد حَرَصْتُ إِسْتِرَ على
النظر إليه لمراتٍ عديدة، ولمدةٍ كافية، قَدَّرَ ما سَمَحَتْ
به الظروف، حتى لا تَلْفِتَ الانتباه ... حتى إِسْتِرَ
حاولتُ أَنْ تفهم طبيعةَ الشعورِ الذي توحى به ملامحُ
وجهِ السيد الجديد، فلم تُفْلِحْ.

أحيانًا، وعندما تموتُ المشاعرُ الإنسانيةُ في
القلب، لا يعودُ الوجهُ قادرًا على التعبير عن أيِّ شيء
... وكأنَّ عضلاتِ الوجه تبقى إلى آخر العمر في حالةٍ
جَدَادٍ على موتِ الدفءِ الإنساني الذي كان في يومٍ من

الأيام، من ساكني القلب ... قبل أن يتم اغتياله ذاتياً،
وعن سبق إصرارٍ وتعمُّد.

انتهى رجلُ الدين من عمله .. وبدأ الناسُ
بالانصراف بعد أن أدّوا مجاملاتهم المعتادة ... حاولت
إِستر البقاء قليلاً أكثر من الباقين، لكن القائمين
على تصريف الأمور أشاروا للجميع - بِلُطْفٍ صارم -
أن ينصرفوا. وبعدَ أن أبعدَ رجالُ الأمنِ الجميعَ،
ابتعدوا هم أنفسهم إلى مسافةٍ كافية.

لم يَبْقَ حول القبر الذي لم يُغلق بعدُ، إلا السادة
الخمسة بما فيهم السيد الجديد ... اقترب الخمسةُ نحو
القبر، تحلّقوا حوله .. وبدأ الأربعة القدامى يُتمتمونَ
بِنَصٍّ واحدٍ مِن لُغَةٍ قديمةٍ مندثرة .. كان النصُّ لا
يُعبرُ عن أيّ ديانةٍ معروفة.

الفصل الثاني والعشرون

الذِّلَّةُ .. الْمَسْكَنَةُ .. الغضبُ من الله .. واللعنةُ
أيضاً ... أضيفُ إلى هذه الخلطة من المصائب الماحقة،
ما شئتَ من توابل المال والتطور التكنولوجي والنفوذ،
بل والغطرسة والعنف، ولن يتغيَّر شيء .. سيبقى
أساسُ الطبخة كما هو؛ لا يتغيَّر ... خوفٌ دائم ورعبٌ
مستمر.

لم تكن هذه حال إستر لوحدها .. بل حال
بضعة ملايين أخرى من أشباهها؛ متفرّقين في أرجاء
العالم ... تجمّع بعضهم في أرضٍ ليست لهم؛ قاموا
باغتصابها ثم قالوا: هذه دولتنا.

وشعور إستر بالوضاعة، لم يكن يقتصر على
سببٍ واحد ... فأباحْتُها لجسدها ولمّا تبقى لها من
قليلٍ كرامةٍ؛ لِـ Paul ولغيره، لم يكن القصة كلها ..

الموضوع أكثر عمقاً من ذلك ... فهي لم تشعر يوماً أنَّ لها كياناً ... كيائها كإنسانة كان مُلغىً، محذوفاً؛ تمَّ حذفه بِـ SHIFT+DELETE ... ثم تَمَّت عمليةُ Format اعتباراً من الـ DOS بحيث لا يمكن استعادة ذلك الملف أبداً.

والمضحك المبكي .. أن قادة البضعة ملايين من أشباه إستر، كانوا يتعاملون مع باقي أفراد البشرية كلها وكأنهم إستر، ويتعاملون مع بقية عملائهم ومأجوريهم على نفس الأساس.

النجاحُ في نقلِ مجريات الجنازة صوتاً وصورة، من خلال كاميرا النظارة الفائقة الدقة ... طعمُ ذلك النجاح كان مفقوداً لديها؛ تماماً كما في كل مهماتها الأخرى ... كان المديح يأتيها من طرف رؤسائها، فلا تشعر بأكثر من أنها ازدادت انحطاطاً. كانت لديها حساسية مفرطة تجاه أي حركة أو جملة، أو حتى لفظة،

تُذَكِّرُهَا - ولو من بعيد - بأنها من مستوى أقل ...
طريقة رجال الحراسة في الجنازة مثلاً .. عندما
أبعدوها مع باقي مَنْ تَمَّ إبعادُهم في آخر مراسم الدفن؛
كي يتسنى للقادة الخمسة قراءة نَصِّهم القدر .. وعلى
الرغم من أن ذلك كان متوقَّعاً ... إلا أنه جعلها
متضايقةً طيلة طريق عودتها إلى البيت الريفي في
ضواحي باريس.

والأدهى أن ولاءها المزدوج؛ بطرفيه القذرين،
كان نوعاً من الكوميديا السوداء فولاؤها الأول
والحقيقي كان لأشباهاها؛ للمستكبرين الذين هم منها
وهي منهم ... وولاؤها الثاني كان لخمسةٍ من
المستكبرين أيضاً؛ لكن من جنسيَّاتٍ مختلفة ...
والجميع - دون استثناء - قرؤوا على شيطانٍ واحد ..
تتلمذوا على يديه لفترة، ثم صارت مهاراتهم أكثر
فاعليةً من مهاراته .. وكلا الطرفين - طبعاً -

يتجسس على الآخر .. وعلى كل من استطاع
التجسس عليه أيضاً.

لطالما تساءلت إستر عن واحدٍ من الخمسة
الكبار؛ واحدٍ منهم بالتحديد ... كان ذلك المخلوق
واحداً من أشباه إستر .. وبنفس الوقت، واحداً من
الخمسة ... «تُرى هل يشعر مثلي بالتمزُّق؟ أم أن
الذهب له خاصيَّةٌ قتلِ المشاعر والأحاسيس؟!».

ولمدةٍ طويلةٍ من الزمن ... كان وجودُ يهوديٍّ واحدٍ
بين الخمسة، كافياً لطمأنينةِ إستر وإشعارها بأنها -
بشكلٍ ما - محميَّةٌ ... لكن محاولة سرقة البيت
الريفي الذي تقيم فيه مع Paul، والتي ثَبَّتَ لها أنها لم
تكن من تدبير الخمسة .. جعلتَها تلك الحادثةُ
تتساءل في داخلها .. «أما كان من الممكن أن
يقتلوني عن طريق الخطأ؟! وإذا كانت القصةُ كلها -
كما يدَّعون - مجردَ تحذيرٍ أو قرصةِ أذن، فلماذا لم

يخبروني مسبقاً. أرخصه أنا لديهم إلى هذا الحد !؟ أم
أنني أحقر من أن يُعلموني بالحقيقة !؟».

وما لم تكن إستر تعرفه .. هو أن الذين اقتحموا
البيت كانوا يسعون لأخذ الشيء الوحيد الذي
استطاع Paul إخفائه عنها ... أبحاثه ونتائج دراساته
التي أودعها في جهازٍ لוחي موضوع في خزانة خاصة
ببيته في نيوجرسي ... ذلك الجهاز اللوحي الذي حَرَصَ
على نقله إلى مكانٍ آخر تماماً؛ في الفترة الفاصلة بين
سفر إستر إلى باريس قبله؛ من أجل البحث عن بيت
مناسب .. وسفره هو. الحلقة كانت مفقودةً في
معلومات إستر فقط.

وعلى الرغم من أنها لم تكن المرة الأولى التي
تنقصها فيها معلومةٌ جزئيةٌ ما، إلا أنها في هذه المرة
شعرت بغیظٍ غير عادي ... اعتمَلَ بداخلها غيظٌ

ساهمَ بزيادته - دون أن يدري - السائقُ المغربيُّ
الأصل الذي كان يقود السيارة عائداً بإستر إلى البيت.
رَنَ جَوَّالُ السائق .. اعتذر من إستر التي رَدَّت
عليه بإشارةٍ من يدها؛ أنْ لا مشكلة .. رَدَّ الرجل. كان
الاتصال من ابنته الصغيرة التي - على ما يبدو -
اتَّصلت به بتوجيهٍ من أمِّها؛ كي لا يتذمَّر من سؤالها
عن سبب تأخره ... تحدَّث الرجلُ مع ابنته بالفرنسية
.. الفرنسية التي تتقنها إستر بشكلٍ ممتاز.
كلمة واحدة .. كلمةً واحدةً فقط؛ كررها الرجل
خلال حديثه مع ابنته الحبيبة، كانت كافيةً لِجَعْلِ
غيظِ إستر يتحوَّل إلى غضب ... Petite.

«صغيرتي» .. كلمةٌ تودَّدُ تتكرر في اليوم الواحد
ملايين المرات لكنها - بالنسبة لِإستر - لم
تكن إلا ذكرى سيئة .. ذكرى أليمة تعود جذورها

إلى أيام الطفولة .. هذا إن صحَّ تسمية تلك المرحلة
من حياة إستر طفولةً.

الحادية عشرة من العمر .. لن يتوقع أحدٌ أن يتم
اغتصابُ طفلةٍ في مثل هذا العمر؛ بشبه موافقةٍ من
أهلها .. «أو بموافقتهم الكاملة»؛ أسرَّت إستر في نفسها
وهي تتذكر ذلك اليوم

كان صاحبُ مطعمٍ وصديقاً للعائلة .. مقرباً أكثر
من اللازم؛ لدرجة أن إستر فاجأته مرةً وهو مع أمها ..
كانا على ما يبدو في مرحلة المقدمات وقتها،
فسَّرت الأم لابنتها بأن القبلية شيءٌ عادي ولا يعبر
بالضرورة عن شيءٍ آخر .. ومنذ ذلك الوقت والطفلة
تبحث عن معنىٍ لعبارة: «شيءٌ آخر».

لكن الأم .. في ذلك اليوم الذي تذكرته إستر
عندما كرر السائق كلمة: «صغيرتي» ... وعندما
أرسلتها لعند صاحب المطعم كي تحضر بعض

الأغراض .. ذكَّرتُها بأن القبلة شيءٌ طبيعي، لكنها لم تُثبِّعها بعبارة: «ولا يعبَّر بالضرورة عن شيءٍ آخر» قالت إن الـ (عمّو) يحب إستر كثيراً .. وأكد أنه سيعطيها شيئاً ما ... لكن تفكير الطفلة كان ما يزال يبحث عن معنى لذلك الشيء الآخر الذي لا تعبّر عنه القبلة بالضرورة.

في المطعم .. تحديداً في غرفة صغيرة من القبو ... فهمت إستر للمرة الأولى في حياتها معنى أن يكون للقبلة معنى آخر .. عرفت معنى الانتهاك .. عرَّفَها إياه ذلك الوحش الذي مزَّق طفولتها إرباً؛ وسبَّب لها من الألم الجسدي الذي زال بعد فترة ليست بالقصيرة ... ما ظلَّ الألم النفسي يذكِّرها به إلى يومها هذا يومها، كان ذلك المخلوق، وهو يفعلُ فِعْلَتَهُ يكرر تلك الكلمة .. Petite ... صغيرتي.

قال السائق شيئاً .. لم تسمعه إستر ... كانت ما تزال تتذكر تبريرات أمها في ذلك اليوم .. ومعالجاتها وأدويتها ... وتأكيدها على إبقاء الأمر سراً اضطر السائق لتكرار الجملة الاعتذارية، بعد انتهائه من مكالمه ابنته، مضيفاً إليها تبريراً:

- عذراً سيدتي، وشكراً لك ... كانت هذه صغيرتي سارة؛ تسأل عن سبب تأخري.

قال السائق كلمته تلك، وإستر ما تزال تُفاقمُ عن عَمْدٍ، غيظها الناجم عن مجرد فقدانها لإحدى الحلقات في سلسلة معلوماتها عما يجري حقيقةً بين أحمد و Paul ... وكأنها تتلذذ بتحويل غيظها ذاك إلى غضب. كانت في الحقيقة محتاجةً إلى شيءٍ من الغضب، بعد كل الخنوع الذي عاشته لسنوات وهي ساكنةٌ تُطيع .. دون أن تسأل، ودون أن تتخلى عن التظاهر بأنها لا تفهم.

عند وصول السيارة إلى البيت الريفي .. لم يعرف السائق ما الذنب الذي ارتكبه كي تتركه السيدة المهذبة هكذا .. بدون إكرامية سخية مثل التي أعطته إياها أول الأمر لم تأبه إستر لذلك .. كانت أسنانها تضغط بعضها بعضاً، وهي ترمي له بقيمة الأجرة فقط .. ثم تتجه إلى باب البيت .. وقد تأبَّطت شراً.

- ما الذي تفعلانه هنا بالضبط، أيها السادة ؟

قالتها إستر وقد انكشف وجهها الحقيقي. انتشل سؤالها أحمد و Paul من أعماق نقاشهما فجأة، فكانت ردّة فعلهما كغوّاصين تمّ إخراجهما من الماء بسرعة، فأصابهما دوّار اختلاف الضغط المفاجئ.

- ماذا تعنين يا عسل ؟ (سألها Paul)

- أبحاث الفلك ليس مكانها المناسب الريف
الباريسي يا بروفيسور.

دُهِلَ Paul ... فهو لم يسمع إستر تناديه بلقبه
العلمي منذ سنوات طويلة. هذا فضلاً عن أنها كانت
على حق فيما قالت ... تتمم أحمد بجملة ما بالعربية
وهو يمسح وجهه بباطن كَفِّيه، ثم اعتدل في جلسته
وقال مخاطباً المرأة بجديّة:

- هل تودّين الاطلاع على بعض المعادلات الرياضية ؟
نظرت إستر صوبَ أحمد بشزرٍ تعمّدت إظهاره لأول
مرة، وقالت بلهجة أكثر صرامة:

- اسمعا أيها السيدان .. بحثكما الخاص بتباطؤ دوران
الأرض، وقضية جريان الشمس إلى مرحلة التوقف
الذي بات - حسب أبحاث Paul - أقرب مما كنّا نتوقّع
... إذا كنتما تظنّان أنني لا أعرف عن ذلك شيئاً، فأنتما
واهَمَين.

- ماذا! (قال Paul غاضباً) .. تتجسسين عليّ يا إستر؟
- وماذا تعرفين أيضاً ؟ (أردف أحمد).

لم تُحِبْ إستر بجملةٍ مُحْكِيَّةٍ، بل توجّهت نحو
أريكةٍ تَبْعُدُ عن الأستاذين مسافةً أمانٍ كافيةٍ.
جلست دون أن تسند ظهرها، ثم أخرجت من تحت
تنورتها شيئاً وضعتُه على الطاولة ... شيئاً جَعَلَ
المحادثة تأخذ منحىً آخر.. أخرجت مسدسها.

تبادل أحمد و Paul نظراتٍ سريعةً نحو المسدس
ونحو بعضهما. وخلال ثوانٍ معدودة نشأت تحالفاتٌ
جديدة ... السلاحُ، بمجرد ظهوره، يقسم أيّ مجموعةٍ
بشرية إلى قسمين على الأقل.

قال أحمد:

- ما رأيك، كبداية .. أن تقولي لنا مَنْ أنتِ ؟

عندئذٍ تأكدت إستر من نجاحها في إشعار
الرجُلَيْنِ بالقدر الكافي من الجدِّية، فبدأت بتخفيف
حدَّةِ التوتر... أجابت:

- امرأةٌ أنقذتكما من الموت، منذ أقل من يومين.

عَقَّبَ Paul ولمَّا يستوعب الصدمة بعد:

- يبدو أن لديك اليومَ مهمةً ثانيةً لهذا المسدس.

سارعت إلى القول:

- حياتي أيضاً كانت في خطر.. ما خَطْبُكما ؟

كان Paul خلال تلك المحادثة القصيرة يفكّر
بسرعة ... مَنْ هي إستر حقيقةً، وما هو المدى الذي
وصلت إليه معلوماًتها. إن امرأةً تعرف تفصيلاتِ
أحاسيسه ومشاعره، وتعرف حتى طريقة كتابته
للأحرف على الورق ... لا بد وأنها تعرف الكثير.

أحمد هو الآخر كان يفكّر بسرعة أيضاً ... تاريخُ
الاسم (إستر) كان قابعاً في ركنٍ من ذاكرته، بدأ عقله

يوجّه أضواءً إليه ... (أحشورش) ملك الفرس، الذي اتخذ في حقبة ما من التاريخ قراراً هتلرياً بإبادة اليهود، فأرسلوا إليه بهدية ثمينة ذات تأثير لا يُقاوم؛ أرسلوا إليه امرأة .. امرأة منهم اسمها إستر؛ استطاعت تجنب شعبها محرقة مبكرة.

- أحشورش ... (قالها أحمد ولم يزد عليها شيئاً).

- ها أنت قد بدأت تفهم .. (قالت إستر مجيبةً أحمد).

قال Paul غاضباً:

- فليشرح لي أحد ما الأمر.

نظرت إستر نحو Paul بعينين ثابتتين، وقالت:

- اسمعني جيداً .. لم أقرأ في حياتي سطوراً واحداً في

كتب التاريخ يَصِفُ تقارباً حضارياً بين المسلمين

والمسيحيين مثلما أراه بينكما اليوم ... ولن نكون

نحن خارج اللعبة.

- مَنْ تقصدين ؟ (سألها Paul)

أجابته إستر بلهجة استكبارٍ وغطرسة:
- أنا أحمل جنسيةً ثانية .. من وطني؛ دولة إسرائيل.

لاحظ أحمد في هذه اللحظة أنه أكثر قدرةً من
صديقه على استيعاب الموقف؛ بسبب حياده العاطفي
... فبادر إلى القول مخاطباً Paul:

- نحن بصدد أمرٍ يهمُّ البشرية جمعاء .. فلنهدأ
ونتجاوز.

انفجر Paul وصرخ:

- وهل تُراني أُلَاكُم مثلاً .. ما دَهاكُمَا ؟! تتحدثان
متفاخِرَين بِعُمقكما التاريخي وكأني لستُ إلا
cowboy أرعن.

ثم تابع وقد بدأ يهدأ قليلاً:

- أحتاجُ إلى شراب .. أم أنك ستطلقين عليَّ الرصاص
إذا تحركتُ من مكاني ؟!

قالت إستر بهدوء:

- أنا التي يجب أن أكون خائفة .. فأنتم يا Paul مقتنعون أن تجمُّعنا هو بدايةً نهايتنا، ولذلك ساعدتمونا على التجمُّع في أرض الميعاد .. وأنتم يا أحمد تريدون منذ زمنٍ بعيد أن ترموا بنا في البحر.
بادر أحمد بالكلام قبل Paul:

- يا Paul افهمني .. معرفتها لن تغيّر من سيرورة الأحداث شيئاً ... في الواقع لا شيء سيغيّر من الأحداث.
توجّه Paul لـ إستر بالقول:

- حسناً .. لكن قبل أن نتحاور في أي شيء، صارحيني يا إستر .. هل ما كان بيننا حقيقي؟

صمتت إستر .. انتظرَ Paul إجابةً ما، فظلّت صامته .. ثم أسقطَ في يده، فقام واتجه نحو المطبخ قائلاً:

- سأحضر لنفسي كأساً من الشراب.

- هل تجعلهما كأسين ؟ .. (سألت إستر).

توقّف Paul في مكانه برهةً .. لم يلتفت إلى عشيقته. كان صوتها الذي تتقن التلاعبَ بطبقته كيفما تريد، بما في ذلك تلك البحة المتصنّعة .. ما يزال يفعل به الأعاجيب.

قال باقتضاب:

- حسناً.

الفصل الثالث والعشرون

استيقظ Paul صباح اليوم التالي، بتأثيرٍ واحدٍ من أكثر المنبهات قدرةً على الإيقاظ: الألم. كانت كمية الويسكي التي شربها في الليلة الفائتة، محاولاً - حسب زعمه - فَهَمَ ما الذي جرى فعلاً، كافيةً لجعل الصداع يضغط على صدغيه بعنف ... وكأن الخمر ومستثمره الأكبر: إبليس، لا يكتفيان بتحميل المسؤولية للذي يقترب منهما، بل يتفننان بعد ذلك بجعله يشعر بالندم.

«كل تلك الليالي الحمراء .. معقولٌ أنها كانت تمثيلاً» ... حتى الأفكار لم تقصّر في الضغط على رأس Paul وهو يعدّ فنجاناً من القهوة القوية، بعد أن وقف لفترة كافية في الحمام تحت رذاذ الماء البارد؛ على أمل أن يصحو من كابوس أفكاره.

- قهوة ؟ (سأل Paul).

أوماً أحمد برأسه بالإيجاب دون أن يقول شيئاً.
ليلته هو الآخر لم تكن أحسن حالاً بكثير. فهو
بالكاد استطاع أن يصرع رغبةً في النوم لم تتسلل إلى
أعصابه إلا قُبيل الفجر بقليل .. قاومها بصعوبة، بعد
أن أمضى الليلة وهو يفكر، إلى أن نجح في البقاء
مستيقظاً كي يصلي الفجر، ثم أوى إلى فراشه بعد
الصلاة فوراً على غير عادته.

- سوداء .. وبدون سكر ؟

قالها Paul وهو يتجه نحو المطبخ دون أن ينتظر
الإجابة من أحمد الذي لم يسمعه فعلياً. ثم عاد بعد
قليل وفي يده فنجانٌ ثانٍ ناوله لأحمد. رشف هذا
الأخير قليلاً من القهوة السوداء المرة فتغيّرت معالم
وجهه، ثم قام إلى المطبخ.

- سألتك عن السكر. (ناداه Paul)

- لقد تركتُ لك مغلفاً قبل أن تغادر.

- ماذا؟

- إستر.. غادرت في الصباح الباكر، وتركت لك رسالة.

نظر Paul حواليه .. كان مغلفٌ ورقيّ موضوعاً على رف المدفأة الحجرية. ولأول مرة في حياته، شعر بانعدام الرغبة في قراءة ما خطته يدُ مديرة أعماله وعواطفه .. وجسده، فلم يتحرك.

عاد أحمد بعد أن أضاف شيئاً من السكر لِكَسْرِ مَرَارِ ذلك السائل الأسود، وجلس دون أن يقول شيئاً. وظل الرجلان صامتَيْن لبرهة، إلى أن قام Paul يبحث عن شيءٍ ما ...

- الرسالة هناك .. على الرف.

لم يجب Paul .. بل عاد وفي يده علبة السجائر الخاصة بـ إستر ... تناول سيجارةً وأشعلها، ثم سحب نَفْساً عميقاً جعله يسعل بقوة.

- ماذا دهالك؟! .. أنت لا تدخن!

تناول Paul سيجارةً أخرى وقدمها لأحمد وهو يقول وكأنه يسخر من نفسه ومن العالم بأكمله:
- سيجارة يا بروفيسور؟ .. ماركة: إستر.

تمعّر وجه أحمد بشكلٍ واضح. ثم قام ونزع السيجارة من يد صديقه ورمى بها جانباً.
- دع لي سيجارتي ..

- Paul .. اسمعني. أنت قادر على تجاوز كل هذا الأمر.
- كل هذا الأمر! .. كل هذا الأمر!! ... وتقولها هكذا بكل بساطة. ما الذي تتوقع مني أن أتجاوزه .. أن الإنسانية التي شاركتها كل شيء في حياتي .. كل شيء ... تبين لي أنها مكلفة بمراقبتي.
- ومراقبتي أنا أيضاً.

صمت Paul قليلاً ثم أجاب وقد هدأ قليلاً:

- أنت على الأقل، لديك مشاعر واضحة تجاهها منذ البداية، وهي كذلك. وأما أنا فقد كنتُ أعيشُ كذبةً كبرى.

- والآن .. ماذا بعد ؟

لم يُجِبْ Paul .. بل قام وتناول المغلف من على رف المدفأة. كانت الرسالة تقول: «فضّلتُ أن أبتعد قليلاً، ليومٍ أو يومين » ... تأمل المساحة الخالية في آخر الورقة؛ تلك المساحة التي كانت تحتوي دائماً على خاتمة من نوعٍ خاص .. أحبك .. سأشتاق إليك .. تأملها بعمق وكأنه ما يزال غير مصدّق.

- ما الذي تقوله ؟

لم يُجِبْ Paul بل ناول الورقة لصديقه الذي قال بعد أن قرأ محتواها:

- يوم أو يومين .. هذا معناه أنها ستعود. يبدو أن للحديث بقية.

- طبعاً له بقية .. يجب أن أفهم.

- ما رأيك أن نعود للعمل .. أعني أن هذا سيساعدك قليلاً.

- لا .. هنالك تعديلات.

- في ماذا ؟

- في منهجية العمل ككل .. يجب أن أعرف مَنْ وراء
إِستَر، وما الذي يريدونه مني تماماً.

- أظن أن الإجابة واضحة.

- واضحة لدرجةٍ قاتلة .. وضوحها في غموضها ... يا
إلهي أَعْنِي.

لم يكد Paul يتفوّه بالجملة الأخيرة حتى رنَّ
جرس الباب. تبادل الصديقان نظرةً اختلط فيها
التعجّب والتساؤل والحذر؛ فكلاهما يعرف أن إِستَر
التي لم يمضِ على مغادرتها وقتٌ طويل، تملك نسخةً
من المفاتيح، وأن عدد الذين يعرفون مكان البيت

محدود للغاية. وبدا لأحمد أن صديقه لن يبادر بفتح الباب فقام هو بدلاً عنه.

كان الطارق رجلاً في الأربعينات من العمر، يرتدي ملابس عملية، وتبدو على ملامحه سمات باحثٍ أو مدرّس. ويبدو أنه فوجئ بملامح أحمد العربية؛ كأنه توقّع مشاهدة شخصٍ آخر. انتبه أحمد للأمر فبادره بالسؤال بإنكليزية طليقة:

- مرحباً .. كيف أستطيع أن أساعدك؟

- أسأل عن البروفيسور Paul Yaghan.

- مَنْ الذي يسأل؟

- بروفيسور راجيف .. جوزيف راجيف.

الفصل الرابع والعشرون

وقف أحمد مذهولاً صامتاً لا يدري بما يجب.
لكن الزائر لم يُبدِ ردة فعل؛ وكأنه كان يتوقع
استغراب أحمد. وعندما همَّ أحمد بقول شيءٍ ما، كان
Paul قد صار وراءه تماماً. توجَّه Paul إلى الزائر قائلاً:

- هل لي أن أساعدك؟

- بروفيسور Yaghan، يجب أن نتحدث.

- عفواً.. هل نعرف بعضنا؟

- سأقول لك مَنْ أنا، لكن الآن .. أرجوك، فالأمر
مستعجل.

- حسناً.. تفضّل بالدخول.

التفت الزائر صوب الحديقة المحيطة بالمنزل،
وأشار بيده نحو بعض الكراسي التي كانت موضوعةً
في أحد الأركان محيطةً بمنضدة، وقال:

- أفضل أن نجلس هناك، إن لم يكن لديك مانع.
تبادل أحمد و Paul نظراتٍ تملؤها الشكوك
والريبة .. ولم يُبدِيا أي ردة فعل. وانتبه الزائر إلى أن
الوضع بات محتاجاً إلى ما يحقّز الصديقين للقبول
باقتراحه، فانبرى قائلاً:

- لقد قدّمتُ نفسي باسم: جوزيف راجيف ..
راجيف يا بروفيسور، هل سنتحدث الآن؟!

لم يكن Paul قد استفاق تماماً من هول مفاجأة
أحداث البارحة التي لعبت فيها إستر دورَ البطولة.
لكن مصّل المناعة الذي شكّله تلك الأحداث في
كيانه، جعله يستسهل المفاجآت التالية. ولذلك لم
يزدُ على القول:

- طيب .. لنجلس هناك.

لاحظ الزائر أن أحمد مشى معهما باتجاه كراسي
الحديقة، فقال لـ Paul:

- أودُّ أن نتحدث على انفراد، لو سمحت.

غَضِبَ Paul بسبب الجملة الأخيرة .. فنطق
الصداع الضاغِط على رأسه قائلاً:

- اسمع يا هذا .. قبلتُ أن أستقبلك في بيتي دون أن
أعرف حتى اسمك، والآن تريد أن تملي عليّ شروطك
... مَنْ أنت ؟

توقف الزائر الغامض، وتوجه لأحمد بالقول:

- أرجو أن تقبل اعتذاري يا بروفيسور نادر. واضح
أنكما لا تخفيان عن بعضكما شيئاً، لنجلس
فالوقت قصير.

وبدأ الزائر بالكلام فوراً، وكأنه يريد أن يستفيد
من كل ثانية:

- اسمعني جيداً يا بروفيسور Yaghan .. أنتما تبحثان
عن جهةٍ ما قامت بقتل جوزيف راجيف، ليس فقط
كي تُسكِتَهُ، بل لأنها تُخفي ما هو أخطر بكثير .. وكي

نستفيد من الوقت، أقول لكما أني - منذ وقتٍ قريب
- كنتُ أحدَ أعضاء تلك الجهة التي ..

قاطعه Paul قائلاً:

- إذا كنتَ قد أتيتَ لتهددني فإ ..

قاطعه الزائر بالمثل، وقال:

- ليسوا بحاجةٍ لتهديدك يا صديقي .. صدّقني أنهم لو
أرادوا أن يُلْحَقوكَ بِـ راجيف، لَحَصَلَ ذلك بسهولةٍ
تامة.

لاحظ أحمد أن الزائر استعمل - لمرتين - الزمنَ
الماضي في تصريف الأفعال التي وردت في كلامه، فقال
له:

- سأسألك فيما بعد؛ كيف عرفت اسمي .. لكنك قلتَ:
كنتُ واحداً منهم .. إلى فترةٍ قريبة .. ثم قلتَ عنهم: لو
أرادوا ... وكأنك تلمح إلى أنك الآن قد تركتهم، أو أنك لم
تَعُدْ منهم.

أجاب الزائر:

- أعلمُ يقيناً أن تصديقَ قضيةِ انشغالي عنهم ليست
مسألةً سهلة. وأعرف أنكما لن تصدّقا كلامي فوراً،
لكن نصف الكلام لا يوضح كامل الحقيقة أيها
السادة .. اتركاني أكمل، وأؤكد لكما أنكما لن تكونا
نادمين.

تبادل الصديقان نظرةً مفادها الاتفاق على تركه
يكمل، لكن أحمد لم يستطع كبّخ جماح رغبته في
أن يقول:

- قلّ لنا ما اسمك، على الأقل.

- معرفة اسمي لن تزيد على موضوع حديثي شيئاً؛
فأنتما لا تعرفاني. كما أن مهنتي التي يعرفني الناس
بها، إنما هي مجرد تمويه لا علاقة له بعلمي الحقيقي.
والآن ... هل أبدا في الكلام، أم أننا سنضيع مزيداً من
الوقت؟!

بأدره Paul بالسؤال:

- سبب العجلة؟

احتد صوت الزائر وهو يجيب:

- لأنني أريد أن أفعل شيئاً واحداً جيداً في حياتي قبل أن ألحق به راجيف، الأمر الذي يمكن أن يحصل في أية لحظة .. أية لحظة، بما في ذلك الآن وأنا أتحادث معكما .. هل فهمتما الآن؟!

وتلّت تلك الجملة فترة صمتٍ قصيرة؛ تأمل خلالها الزائر وجهي الصديقين راجياً أن يكون قد أحدث التأثير المطلوب، ثم تابع قائلاً:

- بيتك مليء بكاميرات التجسس وأجهزة التنصت يا بروفيسور Yaghan، ولهذا طلبت أن نجلس هنا في الهواء الطلق، مع أنني لست واثقاً من أن المكان آمنٌ بشكلٍ كافٍ .. هل تريد أن أقول لك ما هي أكثر الوضعيات التي تحب أن تمارسها مع إستر أم تريد

يا بروفيسور نادر أن أُعَدِّدَ لك أسماءَ أبناءِ خالكِ
الشيخ عبد القادر؟!!

بادر أحمد بالقول:
- كلُّنا آذانٌ صاغية.

الفصل الخامس والعشرون

«أيها السادة، أؤكد لكما أنكما لا تعرفان مع مَنْ تتعاملان. ولا أعني طبعاً الأسماء والهويات، وإنما أعني أنكما - مهما حاولتما - فلن تستطيعا تخيّل مدى نفوذ أولئك الناس. إنني أتحدث هنا عن نفوذ عمره مئات السنين، تمّ التخطيط لتأسيسه وتقويته بشكلٍ فائق الذكاء والدقة، وتمّ تنفيذ ذلك بنفس المستوى من الأداء».

أنصت الصديقان لكلام الزائر الغريب الذي تابع مُوجَّهاً كلامه لأحمد:

- بروفيسور نادر، أنت الآن شاهدٌ على عملية استشهادية.

واختلط صوتا الصديقين وهما يقولان نفس الكلمة؛ بدهشةٍ ممزوجةٍ بالرعب: «ماذا!..»

ارتفعت حرارة جَوِّ الجلسة بعد أن قال الزائرُ
الجملة الأخيرة. ولعلَّه أحبُّ أن يُحدِّث الأثر المطلوب
فانتظر بضع ثوانٍ، ثم أردف موضحاً:
- اطمئنا .. ليس على خصري حزامٌ ناسف. كل ما في
الأمر أن ما في ذهني من معلومات، أشبه ما يكون
بطلقةٍ إضاءةٍ لا تؤذي أحداً. والفارق هو سرعة
الإطلاق.

سأله Paul مستفسراً:

- الفارق ١٩

أجاب:

- الفارق بين أن أتحدِّث إليكما بلُغةٍ أكاديمية تملؤها
المصطلحات، وفي هذه الحالة سأخسر وقتاً ثميناً جداً؛
لأنهم سيصلون إليَّ قبل أن أقول كل ما لديّ ...
وسأعرض عندها إلى أنواعٍ من التعذيب لم يسمع
عنها بشراً، ثم يتمّ قتلي ... والخيار الثاني أن أتكلّم

بِلُغَةٍ مباشرة وسريعة؛ وعندئذٍ يبقى لديّ أمل في أنْ
أُنقل لكما أكبر قدر ممكن من المعلومات قبل أنْ
أُقْتَلَ. النتيجة واحدة كما تلاحظان، لكن الخيار
الثاني ضريبته أقل؛ بسرعة وبدون تعذيب.

قاطععه أحمد بالقول:

- تتحدث وكأن أولئك الناس يسمعوننا.

أجاب الغريب:

- لا أظن ذلك، لأنني في هذه الحالة لن أتمكن من
المتابعة. لكن توقّعا أن تريا أمامكما في أية لحظة
عملية تصفية.

بادر Paul بلهجةٍ عملية:

- من البداية، وبالترتيب الزمني لو سمحت.

وجّه الزائر سؤاله لـ Paul؛ وكأنه يريد التأكد:

- من البداية يا بروفيسور؟

أجاب Paul:

- وبالترتيب الزمني.

- إذن ليس لديكما مانع من أن نؤسس، أنا وأنتم،
صفرَ قياسٍ موحدٍ .. أعني: أساساً نظرياً نبني عليه
نقاشنا ... سيستهلك ذلك منا بضع دقائق إضافية،
وسيقضي البدء بمقدمةٍ تاريخيةٍ سريعة.

أجاب Paul دون تردد:

- لا مانع أبداً .. تفضل.

أكد أحمد:

- ابدأ لو سمحت.

وبدأ الزائرُ بالكلام فوراً ... :

- العدو الأول للبشرية .. إبليس ... ليس مخلوقاً غيبياً. كل ما هنالك أنه جَيَّرَ ذكاءَهُ لِصالح تَكَبُّرِهِ فَقَلَبَ ذكاءَهُ إلى غباء .. قَلَبَهُ عامِداً متعمداً.

إنه أكبر خطأ استراتيجي ارتكبه مخلوق في تاريخ الكون؛ رَدُّ الأمرِ على الأمر .. وتَكَبُّرٌ على مخلوقٍ أرفع درجةً وأرقى .. على الإنسان.

وبما أنه بدأ العمل فوراً، بعد أن أمهل، فأغوى آدم وحواء بالأكل من الشجرة المحرمة وكان ما كان، شَرَعَ في تحليل ما حصل .. فاستنتج أن الضعف في الإنسان يتركز في بضع نقاط ...

العقل البشري القاصر عن الإحاطة بكل شيء، على الرغم طبعاً من إمكانياته الهائلة، ثم جهل الغيب وعدم القدرة على معرفة الماورائيات ما لم تكن هنالك هداية إلهية تبين أسس السلوك السليم لبلوغ تلك الماورائيات بسلامة .. ثم القابلية للانخداع

بكلام أي مخلوقٍ مخادعٍ يُقسِمُ كاذباً أنه ناصحٌ أمين
... إلخ. وفي تجربته الثانية مع قابيل، انتبه إبليس إلى
إمكانية تطوير استراتيجيته في الغواية؛ وذلك عبر
إنشاء تحالف. طبعاً لم يكن أحداً من البشر الستة
الموجودين على الكوكب آنذاك، يَقْبَلُ أو حتى يفكر في
احتمال أن يتحالف مع العدو الأكبر إبليس. ولذلك
لجأ الملعونُ إلى تحالفٍ جزئيٍّ ونوعيٍّ في آنٍ واحد.
انبرى أحمد للقول، معترضاً:

- قابيل طوّعت له نفسه قَتْلَ أخيه، لكنه لم يتحالف
مع إبليس.

أجابه الزائر مؤكداً:

- تماماً .. قلتُ إنه تحالفٌ جزئيٌّ، لأنه تحالف مع
حالةٍ محددة من حالات النفس البشرية هي حالة
النفس الأمّارة بالسوء .. ثم إنه تحالف نوعي لأنه ذو
طبيعة معلوماتية إذا صحَّ التعبير.

قال Paul بشبهه سخرية:

- كأنك تقدّم لنا إبليس على أنه أول محلل نفسي في تاريخ البشرية، ثم تجعل منه خير معلوماتية أيضاً .. ألسنتُ تُبالغ ١٩

هزّ الزائر رأسه نافياً:

- لا .. أبداً؛ فملاحظتك في محلّها. أولاً وكما يعلم البروفيسور نادر، يعاني إبليس من قضية أساسية هي تعبه المستمر والشديد؛ الأمر الذي يعرفه المسلمون بالوصف القرآني: (خنّاس). وسبب تعبه أنه يُمضي وقته في محاولاتٍ مستمرةٍ لمتابعة أحوال النفس البشرية، لا من خلال النفاذ إلى ما يجري في داخلها من حوارات وأفكار، فهو لا يقدر على ذلك ... والواقع أن لا أحد من المخلوقين يقدر على ذلك .. وإنما يتابع ويراقب ظواهر السلوك البشري من كلام وأفعال. وهو بهذا يلعب دوراً ثلاثي الأبعاد.

حَرَكَ أَحْمَدُ يَدَهُ بِلُطْفٍ وَكَأَنَّهُ يَسْتَأْذِنُ لِمَقَاطَعَةٍ، ثُمَّ قَالَ:

- فِي كَلَامِكَ إِحَالَاتٌ مَرَجِعِيَّةٌ إِلَى أُسَاسِيَّاتٍ فِي الْعَقِيدَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ .. مِثْلًا عِنْدَمَا قُلْتَ أَنَّ لَا أَحَدًا مِنَ الْمَخْلُوقِينَ قَادِرٌ عَلَى مَعْرِفَةِ مَكْنُونَاتِ النَّفْسِ.

أَجَابَ الزَّائِرُ بِسُرْعَةٍ:

- سَتُدْهَشُ إِذَا مَا فَاجَأْتُكَ بِمَعْلُومَاتِي عَنِ الدِّينِ الْإِسْلَامِيِّ.

نَظَرَ Paul إِلَى أَحْمَدَ نَظْرَةً تُشِيرُ إِلَى أَنَّهُ قَاطِعَ جُمْلَةً مُهِمَّةً، ثُمَّ تَوَجَّهَ إِلَى الزَّائِرِ بِالْقَوْلِ، وَكَأَنَّهُ يُعِيدُ الْحَدِيثَ إِلَى مَسَارِهِ الْأَصْلِيِّ:

- الْمَتَابَعَةُ .. التَّعَبُ الْمُسْتَمِرُّ ... وَالدُّورُ الثَّلَاثِيُّ الْأَبْعَادُ تَابِعْ لَوْ سَمَحْتَ.

الزَّائِرُ: أَشْكُرُكَ. ... وَلَأنَّهُ يَرَى بَنِي الْبَشَرِ مِنْ حَيْثُ لَا يَرُونَهُ، فَهُوَ يَعْرِفُ مَا الَّذِي يَفْعَلُونَهُ سِرًّا وَفِي الْخَفَاءِ،

فيستنتج بالتالي ما هي أكثر الأخطاء التي يميلون إلى ارتكابها ... يقتبس ويطور .. بمعنى أننا - نحن البشر - بشكلٍ أو بآخر، ومن خلال أنماط سلوكنا، وعبر ابتعادنا في بعض الحالات عن الطريق القويم، نقدّم للإبليس على طبقٍ من ذهب، مادةً لإغواءاته القادمة.

وبهذا يتبيّن البعدان الأول والثاني للدور الإبليسي، وهما بُعدان تكتيكيّان إذا صحَّ التعبير ... أخذُ معلوماتٍ عن أنماط سلوكنا، ثم بثُّها لغيرنا من البشر، وهكذا. أرجو التأكيد على كون التحالف المذكور نوعياً لأنه ذو طبيعة معلوماتية، وجزئياً لأن النفس البشرية ليست أمّارة بالسوء دائماً.

أحمد: بمجاهدة المرء لنفسه، يمكن أن يطوِّعها باتجاه أن تصبح - مع الضبط المستمر - نفساً لوّامةً على الخطأ.

الزائر: تماماً .. وهذا ما لا يريده إبليس أبداً؛ لأن حالة اللوم المستمر ربما كانت التمهيد المناسب للوصول أخيراً إلى واحة السلام النفسي الكامل .. إلى حالة النفس المطمئنة.

Paul: اسمح لي .. يعني ... أحدكما مسلم، والثاني قرأ عن الإسلام أكثر مما قرأت أنا عن الفيزياء .. حاشية وتوضيح لو سمحتما.

أحمد: التقسيم هنا أكاديمي إذا أردت .. فالنفس ابتداءً ميالةً إلى الدعة والاسترخاء وفعل ما يحلو لها. وأما حالة النفس اللوامة فهي مرحلة تُعتبر هدفاً منشوداً يجب السعي لتحقيقه .. أعني أن يلوم المرء نفسه على خواطر السوء ويستبعدها، ويضبط جوارحه في نفس الوقت، مانعاً إياها من وضع إغراءات النفس موضع التنفيذ ... هذا طبعاً في حال عدم الانجراف إلى المعصية. وأما في حالة الوقوع في الخطأ، فيأخذ اللوم شكل التأنيب الذاتي الموجه نحو التوبة وعدم التكرار.

الزائر: التكرار .. واحدٌ من أهم رهانات إبليس التي لا يفتأ يغامر بها على روليت الحظ .. يقامر باستمرار على توقُّف العجلةِ على رقمه هو، وغالباً ما يفشل، فيعاود تغيير الصيغة.

Paul: الصيغة!

الزائر: الوسوسة .. الهمس .. سَمَّها ما شئت هي باختصار نوعٌ من الإيحاء التجميلي الكاذب، أو الإيهام الترويجي .. ديكور لأنواع من الملذات الحسّية، وأحياناً المعنوية، التي هي في أصلها قصيرة المدة، ومحدودة اللذة، وليس لها صفة الاستمرارية أبداً.

Paul: كيف؟

الزائر: يا صديقي .. إن إبليس يقتبس من صفات ملذات الجنة؛ مُحاولاً إيهامَ بني آدم بأن ملذات الدنيا يمكن، فقط يمكن .. أن تكون شبيهةً بملذات

الجنة، وذلك تمهيداً لِحُجْلِهِم يستبدلون هذه بتلك ..
أي تمهيداً لإنكار فكرة الآخرة بالكامل.

Paul: بمعنى ؟

الزائر: لا أعرف إن كنتَ قرأتَ شيئاً في كتب
المسلمين، يتعلق بأوصاف نعيم الجنة الذي لا يزول.
البروفيسور نادر يعرف تماماً ما الذي أعنيه ...

أحمد: حياةٌ أبديةٌ سعيدةٌ سعادةٌ مُطلَقة، بدون أي نوع
من أنواع المنغصّات المعروفة في الدنيا .. لا موت .. لا
مرض .. لا هَرَم ... باختصار: قمة ما ينشده كل إنسان.

**Paul: هذا معروفٌ تماماً في كل الديانات .. سعادة
روحية صافية.**

الزائر: لكن التفاصيل الحسّية والشعورية لم تَرِدْ
كما وردت في كتب المسلمين. وهذا هو مصدر
الاقْتِباس الإِبْلِيسِي للبُعد الثالث؛ تسويق الوهم. إنه
يسوّق ملذاتِ الحياة الدنيا القصيرة والمنقطعة

والمُحاطة بالمنغصات على أنها البديل المُتاح والآني
للجنة .. الجنة التي خرج منها آدم، والتي طُرِدَ منها
إبليس.

أحمد: اللعين لا أمل له في العودة أبداً. وأما بنو آدم،
فإذا أحسنوا التعامل مع ملذات الدنيا على أنها حافزٌ
مُحرِّكٌ مشروعٌ للرقى؛ أعني إذا ما أشبعوها عبر الطرق
المشروعة وباعتدال .. فالأمل لديهم بالعودة إلى الجنة
موجودٌ دائماً.

Paul: الرقيّ .. الشهوة طريقٌ للرقى؟

أحمد: الإنسان يرقى بشهوته إمّا صابراً أو شاكراً .. إذا
صبر على ضبطها بعقله الذي يُعْمِلُهُ باسمِ الله، يرقى
بصبره إلى مرتبةٍ هي فوق الملائكة. وإذا أدّى شُكْرَ نعمةٍ
إشباعها بالطريق السويّ .. يرقى بِشُكره.

Paul: هل قلت: فوق الملائكة؟

أحمد: نعم .. وأعنيها تماماً. فالملائكة عقلٌ بلا شهوة،
وأما الإنسان ففيه الجانبان.

الزائر: دعوني أرجع إلى قضية التسويق .. فبعد أن قام إبليس ببيع الوهم؛ أي ببيع كذبة أنَّ ملذات الحياة الدنيا، إذا استكثر منها الإنسان وكرر إشباعها بشتى الطرق، بما في ذلك الشذوذ والبهايمية وحفلات الجنس الجماعي، يمكن أن تكون جنة أرضية بديلة عن الجنة الحقيقية في الآخرة .. الجنة الحقيقية التي تقتضي بذل جهودٍ وتعب وضبطٍ خلال الحياة الدنيا ... بعد كل ذلك يقدم إبليس خدمة ما بعد البيع.

أحمد: يحوّل ذلك إلى منهج.

الزائر: تماماً .. إنه يوسوس باستمرار أن هذه هي الحياة؛ لذاتٍ مستمرة، ولا شيء بعدها ... طبعاً ما قلناه عن الجنس ينسحب أيضاً على المال .. الحصول على المال بأي طريقٍ كان .. وينسحب على أي شكلٍ آخر من المرغوبات. المهم أن إبليس يسعى لجعل

الغارق في لذاته يكفر بوجود أي شكل من أشكال الحياة بعد الموت .. إنه يروج للكفر الكامل.

أحمد: ذكّرني حديثك بمقولة شائعة عند العوام .. تقول: ما ليس موجوداً في الآخرة، استكثّر منه في الدنيا. الزائر: الترويج للمقولات الكُفرية موضوعٌ فرعيٌّ آخر، لكنه اختصاصٌ بشريّ سنصل إليه لاحقاً .. المهم أنّ البُعْدَ الثالث للدور الإبليسيّ تسويقيٌّ بكل ما تحمل هذه العبارة من معنى .. تسويقٌ للكفر الصريح.

Paul: ويركّز جهوده في التسويق للكفر، على أولئك الذين تنطلي عليهم الحيلة ؟

الزائر: لا .. ليس تماماً .. في هذه أنت غير دقيق؛ إنه يبحث عن أولئك الذين فهموا اللعبة ... وأما الذين قرروا استهلاك طاقاتهم بالكامل، جرياً وراء مزيد من المال والجنس والطعام والرفاهية، فهؤلاء مُستهلكون

.. ومُستهلكون في نفس الوقت. أولئك زبائن بضاعة إبليس، وهو لا يعتمد عليهم كثيراً، لسببين ... أولاً، ليس لديهم أيّ أفق بعيد المدى، لأن طاقاتهم العقلية وحيدة الاتجاه؛ الاستهلاك حتى الموت. وثانياً - وهذا هو الأهم - احتمال أن يصحو أحدهم وينتبه إلى أنه غارق في حاوية قمامة ضخمة، احتمال قائم في أي لحظة .. لحظات الصحو العقلي المفاجئ أحد أهم مخاوف إبليس.

ثم لا تنسَ المُعالجات الإلهية المستمرة .. المرض .. الموت .. الكوارث .. الفقر ... كل ذلك - كما يعرف البروفيسور نادر جيداً - ليس مجانياً ولا عبثياً .. لا شيء في الكون عبثيٌّ أو مجانيٌّ.

Paul: أوضح.

الزائر: سأحيلُكَ - في هذه النقطة - إلى صديقك ...
بروفيسور نادر .. لو سمحت.

أحمد: مُتَغَصَّاتُ الحَيَاةِ بالنسبة للمؤمن، نوعٌ من العقوبات التربوية الدنيوية المُخَفِّفة جداً، والتي تتسم باللطف الإلهي. إنها تذكيرٌ بأن بعض المخالفات للمنهج قد تمَّ ارتكابُها .. بمعنى أنها تخاطب الإنسان بِلِسَانِ الحال قائلة: عُدْ إلى الطريق السليم من أجل مصلحتك أنت.

Paul: وبالنسبة للغارقين؟

أحمد: أولئك على أنواع .. فمنهم مَنْ لا يزال في العناية الإلهية المشددة؛ وهؤلاء ما يزال لديهم أملٌ في الرجوع إلى الطريق القويم. لكن منهم مَنْ وصلَ إلى مرحلة التَكْذِيبِ الكامل بوجود الخالق سبحانه؛ وهؤلاء غالباً ما تكون المصائب التي تحلُّ بهم مفاجئةً وقاصمة .. كارثيةً وتأتي بغتة .. بعد زمنٍ طويلٍ أو قصيرٍ من الإكرام الاستدراجي.

الزائر (مخاطباً أحمد): أتوقع أنه سيسألك عن الإكرام الاستدراجي.

أحمد: عندما لا تؤثر المعالجاتُ الإلهية والتنبيهات ..
ويدوم ذلك زمناً كافياً كي لا يبقى للإنسان حجةً مفادها
أن لم يأتني تنبيهٌ إلهيٍّ بوجوب الاستفاقة والعودة إلى
الطريق القويم ... ينتقل أولئك من مرحلة التناسي
المتعمّد الطويل الأمد، إلى مرحلة النسيان الفعلي.

بكلامٍ أبسط، إنهم ينتقلون من مرحلة تغطية
العيون عن الحقيقة، إلى مرحلة أن ينظر أحدهم إلى
الحقيقة في وضوح النهار فلا يراها .. حالة من العى
العقلي إن صحَّ التعبير.

وفي هذه الحالة يفتح الله عليهم - لا لهم - أبواب
كلِّ شيء .. أرزاق .. أموال .. عنجهية وتكبر .. تقدّم علمي
مخيف ... ثم تأتي الضربةُ الإلهية القاصمة بغتة؛
زلزال، عاصفة لا تُبقي أمامها أي شيء، أوبئة فتاكة لم
يكن أحدٌ يسمع عنها ... كوارث .. إلخ.

الزائر: مرحلة الإكرام الاستدراجي قد تدوم لعقودٍ
من الزمن، وربما شَمَلَتْ أُمماً بأكملها، أو تكتلات

من الدول، وأحياناً مجموعاتٍ بشريةٍ ضخمة العدد؛ لا تجمعُها تسمياتٌ محددة.

أحمد: لا سيما إذا تحوّلوا إلى مُرَوِّجين للكفر؛ يُسَوِّقُونَهُ لغيرهم.

الزائر: وهؤلاء بالذات هم العنصر البشري في البُعد الثالث الاستراتيجي لخطة العمل الإبليسي العامة .. فهو يحتاج إلى مُسَوِّقين إضافيين من الإنس أنفسهم؛ يتولّون مسؤولية تدبير التوالد الذاتي للعهر، ومن ثم للكفر. إن إبليس لا يبحث عن التكرار الفردي للمعصية وحسب، وإنما يودُّ لو يجعل من هذا التكرار سبيلاً من الجهود التسويقية التي تُغْرِقُ أَسْمَاعَ بني آدم صباح مساء أن هذه هي السعادة الحقّة .. وأن لا شيء سواها.

أحمد: وكأنك تعني بأولئك .. تلك الفئة التي فهمت لعبة إبليس.

الزائر: صحيح لكن لا تستعجل يا بروفيسور .. إنَّ معنا Paul ، وأرى على وجهه علائم تساؤل.

Paul: فعلاً .. أكمل لو سمحت.

الزائر: إن مدمن المخدرات الذي يقدّم سيجارة حشيش لإنسانٍ آخر سليم .. مثل هذا المُرّوج ليس مُسوِّقاً بالمعنى الدقيق للكلمة؛ فالتسويقُ استراتيجيٌّ كما تعلمان، وما الترويجُ القائمُ على الدعاية الفردية إلا سياقٌ فرعي .. لا أقول أنه غير مهم، لكن أقول أنه ليس كل شيء.

كل ما هنالك أن المدمن أو العاهرة، أو حتى السارق والمحتال، كل واحدٍ منهم يشعر بالوحدة .. بالعزلة .. ويودُّ لو يرى غيره ينضمُّ إلى عالمه، هذه كل القصة. في حين أن الذين فهموا اللعبة شريحةً أقلَّ عدداً .. وأكثر ذكاءً.

Paul: وهؤلاء الذين فهموا اللعبة؟

الزائر: هؤلاء الذين فهموا اللعبة، نوعان من الناس ..
الأول هم الذين فهموا أن الإنسان هو المخلوق الأول
وسيدُ المخلوقاتِ قاطبةً. هؤلاء فهموا لعبة إبليس،
واشتموا منها رائحة سيئة، فكرهوها وأعرضوا عنها ثم
حاربوها قَدْرَ استطاعتهم ... والنوعُ الثاني ممن فهموا
اللعبة؛ فهموها وأحبّوها .. أعجبتهم، ولاقت في
نفوسهم المريضة بمرض مزمن، استحساناً وقبولاً،
فأرادوا تبنيها؛ لا كمجرد لاعبين مشاركين، بل
بصفتهم Game Masters إذا صحَّ التعبير.

أحمد: شياطين الإنس.

الزائر: تماماً.

Paul: مرةً أخرى نتحدثان ولديكما نفس المرجعية
المعلوماتية والتاريخية .. أريدُ توضيحاً.

الزائر: يا بروفيسور Yaghan، لا يملك إبليس، ولا
يملك أحدٌ من أعوانه، سواء من شياطين الإنس أو

من شياطين الجن، بما في ذلك كبار ضباطه من المَرَدَّة، لا يملكون أيَّ نوعٍ من أنواع السيطرة على بني آدم ابتداءً. ولا يوجد أحدٌ من شياطين الإنس خُلِقَ هكذا؛ إنسيّ وشيطانٌ في آنٍ واحدٍ .. فالفطرة البشرية خُلِقَتْ سويةً تماماً.

Paul: أي إنهم يفعلونها بمحض إرادتهم.

أحمد: المسألة باختصار قرارٌ ذاتيٌّ .. قرارٌ بالانضمام إلى رَكْبِ الشيطنة .. وجهدٌ قديرٌ يُبذل للحصول على الموافقة.

وصَدَرَ صوتٌ وصولِ رسالةٍ نصّيةٍ إلى جَوّال Paul. كانت الرسالة من إستر؛ تقول فيها: «على فكرة .. لم يكن كلُّ شيءٍ كذباً». قرأ Paul الرسالة، فيما ظلَّ الرجلان صامتين لبرهة وهما يتأملان ملامح وجهه التي تغيّرت. قال Paul وكأنه يحدث نفسه:

- الآن فهمتُ.

أحمد: ماذا هنالك ؟

Paul: فهمتُ الفرقَ بين أن يكون الإنسانُ في العناية الإلهية المشددة ، وما يزال لديه أمل ... وبين أن يكون قد اتخذ قراره بالتحول إلى شيطان.

الفصل السادس والعشرون

- سأحضر لنفسي كأساً .. هل تشرب شيئاً؟

نظر الزائرُ نظرةً خاطفةً صوب أحمد الذي تقلّصت عضلاتُ وجهه بشكلٍ طفيف لكنه ملحوظ، ثم قال لـ Paul:

- بروفيسور Yaghan .. لعلك لا تدري .. لكن إذا أردت ألا يغادرنا أحمد، فأنا أقترح أن نشرب القهوة ... فالمسلمون لا يحضرون جلساتٍ تدور فيها كؤوس الخمر، بل إنهم يجتنبون حتى النظرَ إلى الخمرة. وجه Paul كلامه لأحمد مندهشاً:

- صحيح ١٩ .. لم تذكر لي ذلك سابقاً.

نظر أحمد إلى صديقه نظرةً ودّ فهمَ منها كلامٌ كثيرٌ لم يُقل .. فتوجّه Paul إلى داخل المنزل وهو

يفكر: .. «فعلاً .. لطالما كان ينسحب من الجلسة كلما كنتُ أحضر كأس شراب، حتى دون أن يعتذر. مع أنه في الحالات العادية مهذبٌ للغاية».

رشف كلُّ من الرجال الثلاثة رشفةً من فنجانهِ .. وضع كلُّ من أحمد و Paul فنجانهِ جانباً، ونظرا إلى الزائر نظرةً مَنْ يطلب المتابعة .. فتابع الرجل:

- التوسُّع الأفقي .. ذلك هو البُعد الاستراتيجي الثالث لخطة إبليس العامة. فالتوسُّع العمودي يكاد يكون بلا معنى، أمام تكرار الغارقين في حُجَّةِ استباحة كل شيء ... في حين أن الشريحة المستهدفة أكبر عدداً بكثير، وهي في توالد مستمر.

تمتم Paul بصوتٍ منخفض:

- أكثر من سبعة مليارات ونصف المليار إنسان، والعدُّ مستمر.

تابع الزائر:

- إنه يحتاج إلى دعم لوجيستي على الأرض؛ وهذه
بداية التحالف الفعلي.
سأله أحمد مُلَمَّحاً:

- ألم تكن المقدمة التي مهّدتَ بها، طويلةً بعض
الشيء؟!

الزائر: بلى، ولكنها ضرورية؛ خصوصاً بالنسبة لـ
Paul.

Paul: فعلاً.

الزائر: لنتابع .. لا يملك أحدٌ من الجنّ آلة Plotter
يستطيع أن يطبع بواسطتها مُلصَقاً إعلانياً تجارياً
ضخماً Poster يروج لاستهلاك بضاعةٍ ما، من خلال
إدراج صورة امرأة شبه عارية .. فهذا من شأن البشر،
وقس على ذلك ... يستطيع - مثلاً - إغواء امرأةً بأن
صديقتها التي تجلس بجانبها قد تكون هدفاً جنسياً
محمّلاً، وربما تابع حتى نجح في جعلهما مثليتين ..

لكنه لا يستطيع أن يقنعهما بترويج الشذوذ لغيرهما ..
إلا إذا ...

Paul: إلا إذا ؟

الزائر: إلا إذا كان لدى أحدهما، أو كليهما، استعدادٌ ذاتيٌّ للتحوّل إلى مهنة البيع، بعد أن نجح إبليس في بيعهما فكرته .. استعدادٌ ذاتيٌّ للتحوّل إلى أحد أعوانه من شياطين الإنس ... أرجو الانتباه إلى أنّ أياً منهما لا تشعر بالوحدة أو الانعزال؛ فالواحدة منهما - في حالة وقوع الخطأ - لديها الأخرى، وهذا يكفي من حيث تحقيق هدف الإغواء الأولي.

أحمد: ماذا تعني بالملاحظة الأخيرة ؟

الزائر: أعني أنهما ليستا مثل مدمن الحشيش الذي يقدّم سيجارة ملغومة لشخص نظيف؛ فقط كي يخفف المدمن من شعوره بأنه منبوذ وشاذّ .. الوضع مختلف. فإذا تحوّلت مثليّةٌ إلى الترويج للشذوذ، فهي

قد قدّمت طلبَ توظيفٍ لدى إبليس للعمل كمندوبة مبيعات للفكرة. والمليون لا يهتم كثيراً بالمؤهلات الواردة في سيرتها الذاتية؛ فحتى لو لم تكن بائعةً مُقنّعةً وماهرة، يكفي أنها تنقل الفكرة .. دعاية فردية متنقلة على أقل تقدير.

Paul: كأن هؤلاء أصحاب تكتيكٍ فردي، ولا أفقٍ استراتيجياً لديهم؟

الزائر: هذا صحيح .. وعلى الرغم من أنهم - كبائعين للعهر - يحتاجون إلى شركة تسويقٍ كبرى تضمُّهم وتُنظِّم عملهم، إلا أن هذا مجرد هدف مرحلي .. لا بد من أناسٍ آخرين على مستوى أعلى، قادرين على إنشاء تكتلات ضخمة من الشركات وإدارتها .. وهؤلاء يجب أن يكونوا أذكىء للغاية أولاً، ولا ولاء لهم إلا لمصالحهم ثانياً، ويعملون في مجالاتٍ شبيهة باهتمامات إبليس ثالثاً؛ أي أن لديهم خبرات ... كل

هذا فضلاً عن ملاءة مالية مخيفة، ثم عراقة متوارثة عبر أجيالٍ وأجيال.

أحمد: بمعنى أنه - كما في الجنّ مَرْدَة - ففي شياطين الإنس طبقة أعلى .. لِنَقُلْ مثلاً: مَرْدَة شياطين الإنس .. الزائر: مصطلحٌ واقعيّ ... وتحالفهم مع إبليس على مستوى عميق.

Paul: عَبَدَةُ الشيطان .. كان تفكيري إذن في الاتجاه الصحيح.

الزائر: سابقاً .. عَبَدَةُ الشيطان سابقاً .. أرجو أن تفكرا استراتيجياً؛ فالموضوع أكثر عمقاً من ذلك يا سادة .. أكثر عمقاً بكثير.

Paul: أكثر عمقاً من عبادة الشيطان ؟!

الزائر: عبادة الشيطان يا بروفيسور، ضحالةٌ فكرية .. غياب ... مجرد أن يعبد إنسانٌ ما لا يضره ولا ينفعه، فهذا غياب .. فما بالكَ إذا عَبَدَ إنسانٌ عَدُوَّهُ الأكثر

كرهاً له وحقداً عليه؛ عَدُوَّةُ الذي يضرُّه فعلياً ولا
ينفعه أبداً؟! .. على كل حال، فالناس الذين أتحدث
عنهم لم يعبدوا الشيطان فعلياً، بل رَوَّجوا له كمعبود
.. نوعٌ من التحالف المبني على المصالح .. ثم انقلبوا
عليه.

Paul: كيف ؟

الزائر: إنهم مجموعة بشرية صغيرة العدد، يتمتع
أفرادها بذكاءٍ وخبيثٍ تمَّ تطويرهما عبر قرونٍ من
الزمن؛ وكأنَّ سمومَ الأفكارِ المعتنقة والمعتقداتِ النتنة
كانت تسري - بشكلٍ ما - إلى حليبِ الأمهات منهم،
ويُرَضَّعُنَّهُ أطفالهن من جيلٍ لآخر ... وهم بشكلٍ ما
مؤمنون.

أحمد (مُقاطِعاً): اسمح لي ..

الزائر: ولكن إيمانهم إبليسيٌّ .. ألم يَقُلْ إبليس -
حسب ما روى القرآن - : رَبِّ ..؟! لقد آمن بالله ربّاً

... أَلَمْ يَقُلْ: بِعِزَّتِكَ ..!؟ إنهم مثل إبليس؛ يعلمون
أن لهذا الكون خالقاً واحداً قديراً ومهيماً، لكنهم
اتَّخذوا القرار، عامدين متعمّدين، بالخروج على
طاعته .. استغلوا هامش التخيير المُتاح.

وبما أنهم يتبادلون اقتباس الأدوار والقناعات،
فقد أخذوا عن إبليس شيئين أساسيين؛ التعالي
والتكبر على باقي المخلوقات من جهة .. واستغلال
الوقت المتبقي لانتهاء الحياة الدنيا حتى آخر nano
ثانية، لو استطاعوا، من جهة ثانية ... مع أن الطرفين
يعلمان تماماً أن حياتهما الآخرة ستكون في أحظ
مكانٍ من جهنم.

Paul: لنبدأ بفكرة التعالي والتكبر.

الزائر: إبليس اعتبر أنه - كمخلوقٍ من نار - أعلى
شأناً من آدم المخلوق من طين، ورفض السجود له كما
تعرفان. وهُم .. كأنَّ التكبر قد وقع في أنفسهم موقع

الإعجاب .. لاقى في دواخلهم أرضاً خصبة مُناسبة،
فزرعوا فيها البذرة الإبليسية ثم تعاهدوها بالرعاية
والسُّقيا؛ أعني: بالوسوسة الذاتية والإيحاء المستمر
لأنفسهم: أن نحنُ أعلى شأنًا، وسوانا أحنُّ.

بالمُناسبة فالفقهاء المسلمون يضبطون الكلمة
المعبّرة عن ذلك الإيحاء الذاتي باسم الفاعل:
المُوسَّوس .. لأنه يوسوس لنفسه.
أحمد: صحيح.

Paul: وماذا عن استغلالهم للوقت المتبقّي .. الذي
قلت عنه .. حتى آخر جزء من الثانية؟

الزائر: هذا هو الجزء العملي؛ فبعد ما اعتبروه أساساً
نظرياً، أو سمّاه اعتقادياً إذا شئت، كان لا بد من وضع
ذلك موضع التنفيذ ... السيطرة على العالم.

Paul: لحظة .. حتى الآن أنت تعرّفهم لنا بأوصافهم
وطريقة تفكيرهم، لكنك لم تقل لنا شيئاً عن

هويتهم، ولم تذكر أسماء أشخاص ولا حتى أسماء
جهات أو دول.

الزائر: في حقيقة الأمر، عددُ الناس الذين يعرفون
الأسماء بالتحديد قليل جداً، وهو لا يشملني؛ فأنا لا
أعرفُ إلا حداً معيناً من التسلسل الهرمي، ولا أعرف
أيَّ شيءٍ عمّا فوقه ... على الرغم من أن عملي لديهم
ليس في مركزٍ بسيط أو متواضع ... حسناً،
اضطرتهموني لقولها .. أنا محللٌ استراتيجيٌّ ومُحَطَّطٌ
متخصصٌ في العقائد الدينية .. هذا ما أعمله لديهم
منذ سنوات.

أحمد: وتخصصك العميقُ في الدين الإسلامي .. أليس
كذلك؟! ... أم أن بعض أجزاء الصورة ما تزال غير
واضحة أمام عيني؟!

الزائر: مع أن التفصيلات لا تهتمّ، لكن هذا صحيح
.. يكفيني مخاطرةً أني الآن معكما؛ أبوحُ لكما بما

سيكون سبباً في تصفيتي .. سيقتلونني، لا شك في هذا ألم أقل لكم أنني بصدد عملية استشهادية.

Paul: إلى هذه الدرجة !

الزائر: ألا يعطيك مقتل جوزيف راجيف مؤشراً على مدى خطورة ما تبحثان فيه ؟!

أحمد: ولكن راجيف تحدث في مجالٍ علميٍّ بحت، ولم يتطرق إلى ذكر أيّ جهةٍ نافذة، لا من قريبٍ ولا من بعيد.

الزائر: العلم البحت غير موجود إلا في أذهان الشرفاء أيها السادة .. كونا صادقَيْن مع نفسيكما ... هل الجامعات التي تعملون بها مؤسساتٌ خيرية ؟! .. أم تريدان التظاهر بأن الشركات الممولة لأبحاثكم، تبحث عن خير البشرية فقط ؟!

Paul: هل نعود إلى الجزء العملي .. السيطرة على العالم. الزائر: أفضل استثمارٍ لَأَحْظَ بضاعةٍ بأقذر الطرق.

أحمد: ولكن ... هنالك فرق واضح .. فإغواء إبليس
مجاني؛ لا يربح من ورائه شيئاً .. بل إنه كلما نجح فيه،
ازداد خسارته ومصائبه في الآخرة.

الزائر: تماماً .. في حين أن إغواءهم مُربحٌ لهم ... وهنا
يَحْسُن بنا أن نتباحث في الجانبين؛ التفاضلي والتكاملي
من التحالف.

Paul: كيف ؟

الزائر: إبليس - عندما يُفسد - يجلد ذاته، ويتلذذ
بالألم مازوخياً، وذلك بإضافة عذاباتٍ جديدة إلى
رصيده القدر في الآخرة؛ فقط كي يوهم نفسه بأنه
أثبت وجهة نظره ... بعبارةٍ أخرى، إنه يريد أن يُظهرَ
البشرَ بمظهر مَن يستحق الطردَ من الجنة، لأنهم
يعشقون الملذات الآنيّة الحرام .. ولأنهم قصيرو النظر
... سمّه إذا شئت نوعاً من التعويض يمارسه إبليس
عن طريق الإرضاء الذاتي؛ علّه ينسى إثمَ تكبُّره

وتعالیه الفارغین .. نوع من العلاج النفسي للمرض
من خلال مرضٍ آخر. وكما يقول العرب: يداوي
نفسه بالتي كانت هي الداء.

ومن حيث النتيجة فلا كَسْبَ مادياً يحصل عليه
بشكلٍ فعليٍّ، من جرّاء نجاحه في الإغواء. وأما تلك
المجموعة من البشر، فقد تنبّهوا إلى ذلك .. تنبّهوا إلى
أبعد مدى يمكن أن تصل إليه قدرات إبليس، ثم
إلى أبعد مدى يمكن أن تصل إليه طموحاته ... وبَنَوْا
تحالفهم معه على أساس الفارق الكبير بين قدراته
المحدودة للغاية، وطموحاته الكبيرة التي - عملياً -
لن يستطيع تحقيقها.

أحمد: إيصال البشر إلى الكفر الكامل.

الزائر: تماماً ... وقدّموا أنفسهم كأفضل مَنْ يؤمن
الدعم اللوجستي البشري الذي يجعل المحاولات
الإبليسية لتحقيق ذلك، أكثر تأثيراً.

Paul: كأنها مجرد منظومة فاشلة من الإيهام التبادلي .. لكنه من النوع المربح مالياً.

أحمد (يتلو بالعربية نص الآية الكريمة 111 من سورة الأنعام، ثم يترجم المعنى):

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾.

Paul: وماذا عن الجانب التفاضلي / التكاملي في هذه المنظومة التحالفية بين إبليس وتلك المجموعة ؟

أحمد: لحظة، لديّ اقتراح ... ما رأيكم أن نطلق عليهم تسمية افتراضية ما؛ حتى لا نظل نقول: تلك المجموعة من البشر التي كذا وكذا ...

الزائر (بعد صمت قصير): لِنَقُلْ مثلاً .. 5 ... أو بالأحرى الـ (خمسة) .. The Five.

Paul: ولماذا خمسة تحديداً ؟

الزائر: أنا ممن يميلون إلى تصديق مقولة شائعة بيننا،
نحن معشر العاملين لديهم في مستويات عليا؛ مفادها
أنّ في أعلى التسلسل الهرمي لتلك المجموعة خمسة
أشخاص يتولّون القيادة والتحكّم.

Paul: هل هذا مجرد افتراض ؟

الزائر: أكثر من مجرد افتراض .. بقليل.

أحمد: بقليل .. يعني كم تقريباً ؟

الزائر (يتابع كأنه لم يسمع السؤال): وكلما مات
أحدهم، تولّى أحدُ أبنائه - ويكون مُختاراً من بين
الأبناء بعناية تامّة - مسؤولياتِ الذي مات ... أي
يأخذ مكانَ أبيه.

أحمد: كأنك لم تُجِبْ على سُؤالي.

الزائر: بل كأني أجبت.

الفصل السابع والعشرون

هذا اليوم Robert مشغولٌ جداً؛ فالإجراءاتُ استثنائيةٌ للغاية حسبما جاءه من تعليمات، على الرغم من أن يوم البارحة كان حافلاً هو الآخر ... تساءل في سِرِّهِ: «ألم يكن من الأسهل البارحة أن يتمّ الدفنُ هنا؛ في هذه الجزيرة؟!» ... ثم أثبَّ نفسه على هذا الخاطر.

بروتوكول اليوم، بتفصيلاته التي لا تتكرر إلا مرةً واحدة؛ كلما مات أحدُ السادة الخمسة، تقتضي أن يراجع Robert في ذهنه تفصيلات استقبال السيد الجديد الذي تطأ قدماه اليوم ولأول مرة، أرض الجزيرة. كانت التقاليد تقضي بعدم استعمال المطار الخاص في المرة الأولى ... ذلك المطار ذي الخصوصية الشديدة، والذي لا تحطُّ على مدرّجه إلا طائراتٌ

خاصّة محدودة العدد من الواجب أن يصل السيد
الجديد إلى الجزيرة، تماماً كما وصل أسلافه منذ
مئات السنين؛ عبر البحر.

قال طيّارُ الحوّامةِ عبر اللاسلكي مخاطباً المسؤولَ
في قُمرة القيادة على سطح اليخت الفخم:
- نحن جاهزون .. نطلب الإذن بالهبوط.
بعد ثوانٍ جاءه الجواب:
- أُعطيتَ الإذن.

وبهدوءٍ حَطَّت الحوّامةُ على سطحٍ مخصّصٍ لها في
أعلى اليخت.

كان اليخت راسياً في مكانٍ يبعد عن ساحل
الجزيرة الرمي مسافةً محدّدة بدقّة. وعلى الرغم من أن
مرفأ الجزيرة مُجهّزٌ على أفضل ما يمكن، إلا أن مهمة
اليخت هذا اليوم، لم تتضمّن الرسوّ فيه.

نزل رجال الأمن الخاص المرافقون من الحوامة،
تبعهما X1 والسيد الجديد اللذان مشيا فوراً إلى مكان
إنزال قوارب النجاة في اليخت الضخم. وهناك كانت
لمسات أخيرة يتم إجراؤها بطقوسية غريبة ...

كان في الماء، إلى جانب اليخت، ثلاثة قوارب
سريعة حديثة الصنع، مخصصة لرجال الأمن الخاص
الذين سيرافقون القارب الرابع الخاص بركوب كل من
X1 والسيد الجديد؛ أثناء قيادة هذين الأخيرين
لمركبهما إلى ساحل الجزيرة ... ذلك المركب الرابع كان
تحفة فنية.

ولعل أي متخصص بتاريخ الملاحة البحرية، لو
شاهد مركباً كهذا، كان سيقف متأملاً تأملاً عميقاً
مزوجاً بالدهشة والإعجاب مركب صغير ذو
مجدافين، لا يشتمل على محرك ولا على أي ميزة أخرى،
سوى أن المواد التي صنع منها، حديثة ومتينة

ومدرسةً بِدِقَّة. وأما الشكل والطرار فيعودان إلى مئات السنين. كان شكل المركب مُحَاكَةً متقنةً لِمَا فِي الماضي، وكأنه آتٍ مِنْ عُمُقِ التاريخ.

لم يركب X1 والسيد الجديد مباشرةً .. كانت لدى المستجدّ الأربعينيّ مهمةٌ ينبغي عليه تنفيذها، كي يُثَبِّتَ لِـ X1 جدارته، ونجاحَ الجهودِ التي بُذِلَتْ - عبر سنين حياته كلها - لِتهيئته وتحضيره ... مدّة تنفيذ تلك المهمة، لم تكن تتجاوز ثانية واحدة.

أشارَ X1 بيده إلى أحد رجال الأمن المرافقين، فسارعَ هذا الأخير بالتوجّه إلى إحدى الغرف .. ثم عاد وبرفقتِهِ رجلٌ ذو ملامح عربيّة، عمره فوق الخمسين، رَثُ الثياب، تبدو على هيئته مظاهر تدلُّ على أنه ممن يعملون في البحر ... كان الرجلُ خائفاً؛ لا يعرف لماذا أُتِيَ به وما الذي سيحدث له، لكنّه حافظَ على تماسكه وقُوّة نظراته. نظرَ X1 صوبَ

السيد الجديد الذي فهم المراد .. أخرج المستجد
طبنجة قديمة الطراز، من تلك التي لا تُعبأ إلا بطلقة
واحدة .. ولما رأى الرجل العربي ما يجري، سارع إلى
النطق بالشهادتين .. ثم تلقى الرصاصة في صدره
العامر بأمورٍ يصعب على X1 وعلى السيد الجديد
فهمها.

وبينما كان رجال الأمن يرمون بجثمان الشهيد
في البحر، دارت بين X1 والسيد الجديد محادثة
قصيرة؛ هي أيضاً محاكاة لما تم في الماضي .. وتذكيراً
للمستجد بما يعرف.

كان الرجل قد أُتي به، فقط كي يُنفذ به حكم
بالإعدام، تماماً كما نفذ أسلاف السادة الخمسة
الذين كانوا أول من وصل إلى الجزيرة، حكم الإعدام
بحقّ الدليل البحري العربي الذي رافقهم في رحلتهم
الأولى إلى الجزيرة، بعد ما أثمرت جهودهم في البحث

عنها لتحديد مكانها .. كانت تمثيلية اليوم تحتاج إلى
(كومبارس) محلي لا يعرف ما القصة ... لكنه نال
الشهادَ قتيلاً بدون ذنب؛ مثل مَنْ تمَّ قتلهم في كلِّ
احتفاليةٍ رمزيةٍ لاستقبالٍ مستجدٍّ من الفراعين
الخمسة، جرَّت عبر تاريخهم القاتم.

ركبَ X1 والمجرم الجديد في القارب المُعَتَّق،
رافقتهم قواربُ الحراسةِ الثلاث من على بُعْدٍ كافٍ،
ثم توقفت .. وشرَعَ المستجدُّ في التجديف باتجاه
الساحل، في الوقت الذي كان فيه X1 صامتاً يتأمل.

قال X1 للفرّيعين الذي بقيتْ له خطواتٌ قليلة
تفصله عن المنصب الذي ينتظره:
- هكذا وصَلَ أجدادُنا إلى هنا.

ثم تابع قائلاً:
- وهكذا يجب أن تَصِلَ أنت.

عندما صار عمقُ الماء كافياً، أشار X1 للمستجدّ ..
تجاوَبَ هذا الأخير فوراً وتوقف عن التجديف ...
شَرَعَ العجوزُ بالنزول إلى الماء بتؤدة، وبدأ يخوض في
الماء ماشياً ورجلاه تقاومان الماء بصعوبة.
مشى المستجدُّ وراء معلّمه؛ فالتراتبيةُ ما زالت
موجودة، وبقيتُ للشابِّ بضْعُ دقائق فقط، كي يتحوّل
من مجرد مستجدّ ... إلى X5.

الفصل الثامن والعشرون

لم يفكر أحدٌ عبر التاريخ، في وضع موسوعةٍ للحقائق المتوارية بين سطور نشرات الأخبار ... فلا أحدَ عادةً يبقى في أعصابه - بعد الانتهاء من سماع نشرة أخبارٍ واحدة - قدرةً على التحليل، أو طاقةً كافية لاستنباط ما وراء الكلمات والأحداث.

ومُحرّرو نشراتِ الأنباء فنانون في جَعْلٍ وعي المتلقّي يُشَبِّعُ إلى حدِّ التخمة؛ لكثرة ما يقدمونه له من استنتاجاتٍ كان ينبغي عليه هو أن يتوصّل إليها ... وتوقعاتٍ يطرحونها بالنيابة عنه ... بل وحتى استشرافاتٍ للمستقبل يصنعون منها قوسَ قزحٍ صناعياً وحيداً يلوحُ في أفقٍ تطلّعاته ...

وكان لسانَ حالِ نشرة الأخبار المتلفزة يقول للمتلقّي: اسمعْ واخرسْ.

وَبَغَضَ النظر عن سوء الهضم العقلي الجماعي
الذي بات مَرَضاً مزمناً تعاني منه الغالبية العظمى من
سكان هذا الكوكب ... وبعيداً طبعاً عن مُساعدات
الهضم؛ من برامج مسابقات الغناء والرقص .. والقتال
أيضاً، فإن ما يتوارى وراء أحداث كُبرى في العالم،
سواء نُشِرَ ذلك في الأخبار أم تَمَّ تجاهله، يمكن
تلخيصه ... لا في موسوعة، بل في مضمون جلسة
حوارٍ طويل دارَ لساعاتٍ بين أستاذين في فيزياء
الفلك، وزائرٍ غريب لم يُفصح عن اسمه.

تنح Paul وهو يعدل من جلسته التي سببت له
شيئاً من التيبُّس، ثم قال:
- إذن .. خمسة من شياطين الإنس اتخذوا قرارهم
بالتحالف الاستراتيجي مع إبليس، اعتماداً على تبادل
مصالح تتكامل في مواضع وتتفاضل في أخرى.

الزائر: خمسة من المَرَكَّة يا بروفيسور ... خمساً متسلسلةً من أسلافهم إلى الخمسة الحاليين؛ شكّلوا قيادةً موحّدةً لشرّاطين الإنس على الأرض. وهم واضعو الاستراتيجية العامّة لنهج الشيطنة الإنسية، والمشفرون على تنفيذها ومتابعتها.

أحمد: ذكرتَ عُمُقاً تاريخياً.

الزائر: مُوغلًا في القِدَم .. ألا يُقال أن الدعارة أقدم مهنة في التاريخ .. حسناً .. هؤلاء هم القوَّادون؛ قوَّادو العهرِ بأشكاله؛ بدءاً من الجسدي وصولاً إلى الفكري.

Paul: دعنا ننتقل إلى التكامل بين المصالح والتفاضل فيما بينها .. الوقتُ يمضي يا صديقي؛ أنت الذي نبهتَنا إلى ذلك منذ البداية.

الزائر: لنبدأ بتحديد مصالح الخمسة .. بما أنهم، في قرارة أنفسهم، يعرفون كما يعرف إبليس، أن لا أملَ لهم في آخرٍ صالحة سعيدة؛ على اعتبار أنهم راضون

بكفرهم الطوعي القائم على التكبر .. فقد وضعوا لأنفسهم هدفاً أساسياً هو الاستحواذ على ثروات العالم الدنيوي ومصادر نفوذه ... بكلام أبسط، لسانُ حالهم يقول .. بما أن النهاية سيئة، فَلْنَسْتَفِدْ أقصى استفادة ممكنة من المدة المتبقية لوصولنا إلى تلك النهاية.

أحمد: ماذا عن الموت؛ القيامة الصغرى؟!
الزائر: إن مُلْكَهُمْ مُتَوَارَثٌ ريثما تحلّ القيامةُ الكبرى. وهم يحرصون على ذلك أشدَّ الحرص.

Paul: مليارات الخلايا الدماغية لم تُعَرَفْ وظيفتها بَعْدُ ... الدماغُ البشري عاجزٌ عن فهم نفسه بشكلٍ كامل، فكيف يعبد نفسه؟!

الزائر: ماذا تعني؟
Paul: هذه الخلطة الغريبة من الغباء .. كُفْرٌ طوعي، وعبادةٌ للذات قائمةٌ على تكبرٍ واستعلاء .. ثم يجيرون

ذلك كله على شكل استحواذٍ ممنهج لثروات الناس
ومصادر رزقهم ... أتساءل .. كيف يستعمل أولئك
الناس أدمغتهم؟!

أحمد (يتلو بالعربية نص الآية الكريمة ثم يترجم
المعنى): ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ
وَكِيلاً﴾.

الزائر: وهنالك أيضاً ما وَرَدَ في سورة الجاثية يا
بروفيسور.

أحمد (يتلو ثم يترجم المعنى): ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ
هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى
بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

الزائر: ولن يتّضح التكامل بين مصالحهم ومصالح
إبليس - ولا حتى التفاضل - إلا إذا اتّضحت
العلاقة بين الاستحواذ على ثروات العالم ونفوذه،

وبين صناعة الإيهام العالمي وتجارته .. فكما هو معلوم، لا يمكن لأحد أن يستحوذ على مال أحد، إلا إذا كان هذا الأخير يتّصف بصفتين أساسيتين: الضعف والغباء. وبما أن البشر خُلِقوا أذكياء ابتداءً .. وتذكروا ما قاله ديكارت في «مقالة المنهج» ... فقد كان لا بد للخمسة من ممارسة كلٍّ من الإضعاف المنهج، والاستغناء المنهج. لقد أحسنوا استغلال نقاط الضعف الموجودة أساساً في طبيعة البشر؛ أي الثغرات الممكن الولوج عبرها .. الجنس والمال.

أحمد: بدأت المصالح تتلاقى.

الزائر: بدأت تتلاقى، على الرغم من أن بينها تفاضلاً نوعياً؛ فإبليس يمارس ذلك مجاناً كما قلنا منذ قليل، في حين يجني الخمسة المليارات ... إبليس - كما تعلمون - لا يقبض دولارات ولا إسترليني، كما أنه لا يحتاج إلى النفط.

أحمد: ماذا عن أولئك الذين لا يتجاوبون مع وسوسة أنفسهم، ولا مع وسوسة غيرهم؟
الزائر: تعني المتدينين طبعاً.
أحمد: بالتأكيد.

الزائر: الجوابُ في طبيعة الوسوسة ذاتها يا صديقي ..
فوسوسة إبليس، أو حتى وسوسة النفس الأمّارة بالسوء، تتعامل معها الفطرة البشرية على أنها مرفوضة ومُتَّهَمَةٌ وحقيرة. لهذا فإنه - حتى في حالات الاستجابة المتكررة - يبقى احتمالُ التوبة والعودة قائماً ومتوقعاً لا بد أن تأتي الفكرة المقترحة من قِبَلِ شبيه .. من قِبَلِ إنسان.

Paul: هل قلت: اقتراح؟

الزائر: نعم .. فللوسوسة صيغةٌ عامّة كبرى تُكْرَرُ بصيغٍ فرعيةٍ متشابهة .. تختلف مفرداتُ السياق اللغوي، لكن المعنى واحد: لِمَ لا ١؟ ... أو: لماذا لا،

مع أنك حُرٌّ في قرارك ؟! ... وإذا أردتم أن أسرد الصيغة العامة كاملة، أقول: .. لِمَ لا، مع أنك حُرٌّ، وكلُّ هذه الملذّات والمكاسب أمامك متاحة؟! .. أرجو ملاحظة إشارة التعجّب التي يجب أن تُوضَعَ بعد إشارة الاستفهام، لو كان كلامي مكتوباً .. سؤال استنكاري.

أحمد: أولُ القصيدة كُفِّرَ.

الزائر: فعلاً إنه كفر، لأن الإيمان الغيبي يقتضي ألا يُسأل هذا السؤال .. فال (لا تفعل) جاء الأمرُ بها لِيُطاعَ لا لِيُناقَشَ .. مع التأكيد طبعاً على أن مبررات النهي مُبَيَّنَةٌ في الدين بشكلٍ واضح، ومتوافقةٌ مع الفطرة السليمة، بل ومعروفة من الدين بالضرورة ... فالجنس الحرام إضاعةٌ للأنساب، وتمزيقٌ للمجتمع، وأمراضٌ وأوبئة .. والخمر يُذهِبُ العقلَ ويُوَقِّعُ العداوات ويُضيع المال .. وكذا القمار والربا ... إلخ. وتبقى هذه الـ (لِمَ لا تفعل) مرفوضةٌ مُتَّهَمَةٌ طالما أنها

تأتي من طرف جهة خفية غير منظورة؛ إبليس أو النفس الأمّارة بالسوء ... وأما إذا جاءت من قبَلِ إنسان، فإن هنالك نوعاً من الميل إلى قبول النقاش على أقل تقدير، لا سيما إذا حصل توافق بين الوسوستين الخفية والإنشيطانية.

Paul: كيف؟ .. أريدُ توضيحاً أكثر لهذه النقطة بالذات لوسمحت.

الزائر: أعني أنه إذا كانت نفسُ المُوسّوسِ لَهُ تحدّثه بشيءٍ مشابهٍ لِمَا يسمعه من شيطان الإنس الذي يقدّم له الاقتراح .. عندئذٍ يحصل له شيءٌ من الاطمئنان إلى أن هنالك غيره من البشر يفكرون بنفس الطريقة

فما بالكَ إذا كان هذا الـ (غير) أعداداً كبيرةً من البشر؛ مجتمعات بأكملها تتخذ من ذلك نهجَ حياةٍ تتوهمها طبيعياً، دون أي شعورٍ بأن هذا خطأ.

Paul: بدأتُ أفهمُكَ .. هنا يظهر التفاضل بين
إمكانيات إبليس وإمكانيات الخمسة.

أحمد: الملعونُ قامَ بوضعِ الخطّةِ العامة للعمل .. وهم
وضعوا الاستراتيجية العامة للتسويق الجمعي على
مستوى شعوبٍ بأكملها ... وكأن الأمر تحالفٌ بين
مجموعتين كبيرتين من الشركات ... الأولى تولّت مهمة الـ
Business Plan ... والثانية أخذت على عاتقها مسؤولية
الـ Marketing Strategy .

الزائر: بل وأشرفوا - وما يزالون - على التنفيذ
والمتابعة، بل وعلى التطوير .. فتحوّلت جهودُ إبليس
في الإفساد الفردي، إلى إفسادٍ جماعيٍّ منظمٍ بفضل
جهود الخمسة وأعوانهم.

Paul: السؤال: لماذا ؟ ... ما الذي يربحونه من ذلك على
المدى البعيد ؟ .. لا تقل لي أنهم قنوعون جداً بأرباح
تجارة الدعارة والسلاح والمخدرات، مع أنها كبيرة
طبعاً.

الزائر: أحسنت .. وها هنا يظهر التكامل في المصالح بالظهور ... فهم لن يتمكنوا من الاستحواذ الكامل على ثروات العالم ومواطن النفوذ والثروات، إذا كان المجتمع البشري متماسكاً على الصعيد الأخلاقي؛ فالتوازن قوة كما هو معلوم. ولا شيء يُطيح بالتوازن مثل الانغماس في أحوال القذارة ... عندها يصبح كل شيء ممكناً .. وارداً .. دون وازع. وهذا لا يمكن أن يؤدي نتائجه إلا إذا كان جمعيّاً ... أي إلا إذا كانت مجتمعاتٌ بأكملها قد تبنت الانفلات منهجاً لحياتها، بل ورَوَّجَتْ له في المجتمعات الأخرى .. وهذه وظيفة الخمسة.

Paul: فَهْمُنَا ما الذي يريده إبليس من الخمسة ... فما الذي يريده الخمسة من إبليس ؟

الزائر: الحاجة إلى الدين أساسية في الفطرة البشرية. وبكلام أبسط، فالإنسان دوماً بحاجة إلى التعلق

بمعبود .. بجهةٍ ما، قادرةٍ وقويةٍ وعليمَةٍ وحكيمةٍ ..
هذا لا خلافٍ عليه ... افتحوا بواباتِ خيالكُم على
مصراعيها، وحاولوا أن تتوقعوا ما الذي كان رَكابُ
التايتانيك يقولونه .. ولو في سرّهم .. في اللحظات
الأخيرة عندما أصبح الموتُ محققاً .. على الرغم من
اختلاف دياناتهم ومعتقداتهم وطرائق تفكيرهم.
أحمد (بالعربية ثم يترجمها): يا رب.

الزائر: أكيد .. حتى الكافر يقولها في مثل هذه
الحالات. وبما أن الخمسة يروّجون للعهر والكفر ..
فكيف يُشْبِعُونَ الحاجةَ إلى التدين عند المُرُوج لهم،
دون أن يؤثر ذلك الإشباعُ على الهدف الرئيسي
للخمسة ؟! هذا تناقضٌ يجب حلُّه.

Paul: لماذا ؟

الزائر: لأن الغيابَ الكامل للدين، مع الانغماس
الكامل في الموبقات .. هذه الحالة يمكن أن توقظ في

عددٍ من الأفراد، الحاجة إلى العودة .. إلى الانتظام ..
إلى التوافق مع الإيقاع الكوني المنتظم الذي لا شذوذَ
فيه .. أي إلى الدِّين. وهؤلاء مشكلةٌ بالنسبة للخمسة
ولإبليس ... لأنهم قد يكونوا نواةً للإصلاح، لا
سيما إذا كانوا مثقفين ومسموعي الصوت.

Paul: والحل ؟ .. أعني في نظر الخمسة.

الزائر: الحلُّ عندهم أن يتم اختراعُ دينٍ باطلٍ وهميٍّ
جديد؛ أساسُ الإيهام فيه أنه يسمح لمُعتنقيه بفعل
كُلِّ شيء ... إنه إيهامٌ ذو طبيعةٍ خفيةٍ غير مرئية ..
يهمس من بعيد أن كُلَّ شيءٍ مُباحٌ طالما أُنِي راضٍ
عنكم هل فهِمْتُمَا الآن ؟!

Paul: ليس كثيراً.

الزائر: عبادةُ الشيطان، يا سادة ... هذا ما يريدُه
الخمسَةُ من إبليس .. أن يروّجوا له كمعبود .. وهو
بالمقابل يُؤمّنُ لهم غطاءً مِنَ الغيب الوهمي.

أحمد: بُذِلَتْ جهودٌ كبيرةٌ للترويج للشيطان على أنه نور .. أو مُنَوَّر .. Illuminati ... أغاني وأفلام ومجلات وموضات لألبسة الشباب والشابات.

الزائر: صحيح .. خذ مثلاً حفلات الجنس الجماعي .. ما الذي يجعل .. مثلاً ... عشرة رجال اجتمعوا مع عشرة نساء في مكانٍ ما، بهدف التعري الجماعي وممارسة الجنس سوياً ... ما الذي يجعلهم محتاجين إلى طقوس خاصة؟! .. لا شيء ... الجنس لا يحتاج إلى متماتٍ، ولا إلى كلامٍ غير مفهوم بلُغاتٍ مندثرة ... إلى آخر ما هنالك ... حتى أنهم يقدمون قرابين بشرية.

أحمد: غطاء وهمي من الغيب.

الزائر: بالضبط .. هذه هي الخلاصة. وبالمناسبة فالأشكال التي اتخذتها عبادة الشيطان كثيرة جداً .. ولم تقتصر فقط على المحافل والأخويات والنوادي، بل إنها لبست لبوسَ دياناتٍ مستحدثة بالكامل، ثم

تسللت إلى مذاهب فاسدة تُنسبُ زوراً وبهتاناً إلى الدين الحق، وهو منها براء.

Paul: ألا يحتاج كلُّ هذا الجهد إلى أساسٍ نظريٍّ ..
أعني .. ألا يحتاج كلُّ ذلك إلى مفكرين ومحللين
وباحثين ... إلخ ؟

أخرجَ الزائرُ من جيبه شيكاً مصرفياً، وأعطاه لـ
Paul الذي قرأ مندهشاً ... الرقم باهظاً .. التاريخ يشير
إلى أنه أجرٌ شهريٍّ .. الجهة الدافعة جهةٌ أكاديميةٌ
محترمةٌ للغاية ... اسم الشخص المستفيد: Mark Antig.
سأل Paul الزائر الذي لم يَعُدْ غريباً:

Mark - ... هل أردتَ فعلاً أن أرى هذا الشيك ؟
أجابه Mark:

- هل سمعتَ بقصة سَحَرَةِ فرعون ؟

الفصل التاسع والعشرون

«للهدوء والتأمل» .. هكذا يحلو لـ Robert أن يبرر الزيارات الفردية التي يقوم بها من حين لآخر، واحد من السادة الخمسة للجزيرة.

تلك التسميات التي اختارها Robert باجتهاد شخصي، عبر سنوات من عمله، لم تكن تسميات متعارفاً عليها في نظام العمل .. «السادة يحضرون متى شاؤوا»؛ مجتمعين أو فرادى.

بيد أن طول اعتياده على الصمت أثناء الخدمة، بل حتى أثناء تفكيره في شؤون عمله وهو خارج أوقات العمل، جعل Robert يُكثِر من حديث النفس ... فيبتكر وهو يُحدِّث نفسه، تصنيفاً خاصاً لكل حضورٍ لِسَادَتِهِ إلى الجزيرة .. ووصفاً خاصاً بكل واحدٍ منها ... فالحضورُ الإفرادي خَلْوَةٌ، والاجتماعات

إمّا كاملة التّصابِ أو ثنائية ... «وأنا في الخدمة على أيّ حال».

وأما نسيانُ المراحلِ التي مرَّ بها Robert كي يستحق مكانةَ الخادم الخاص والمباشر للسادة، والأقرب إليهم، فأمرٌ ليس بالسهل. المشاقُّ والصعوبات والتجارب والعواطف، لم تكن تمثّل لديه سوى تُرّهاتٍ يتشدد بها البشرُ العاديّون ممن لا يعرفون المعنى الحقيقيّ لأن يكون الإنسانُ مقرباً ... «كم كان الثمنُ باهظاً في بعض المراحل».

تراءت في خيال Robert صورةٌ والدته، في حلمٍ يقظَةٍ، أثناء انتظاره لموعد حضور السيد .. تذكر كلماتها الأخيرة التي لم ولن يعلم بها أحدٌ من البشر ... «لماذا يا Robert .. لماذا؟».

يومها جمّدتْ حدقتا عينيها على وضعٍ واحد. ولمّا تأكّد من أن الأمر قد تمّ، قام -حسب التعليمات-

بإغلاق جفنٍ واحدٍ فقط، ثم تمتَم بتعويدةٍ باللغة القديمة الغريبة التي تدرَّب لِسنواتٍ على إتقان ما سُمِحَ له بإتقانه منها. كان معنى الجملة: عينٌ واحدة يجب أن تبقى.

أن تكون الطاعةُ عمياء، هذا مما يفهمه الرُّعاع .. وأما أن تكون الطاعةُ خاليةً تماماً من أيِّ نوعٍ من أنواع العاطفة أو الشعور أو الإحساس، أو أيِّ شيءٍ آخر، فتلك ميزةٌ لا يمكن أن يتخيَّلها، فضلاً عن أن يعيشها، إلا عددٌ قليلٌ جداً من الناس مِن أمثال Robert Watcher ... «تُرى هل قامَ أحدٌ ما بِقَتْلِ أُمِّهِ .. أُمِّهِ التي أنجَبَتْهُ ورَبَّتْهُ بِدموعٍ عينيها ... بِدَمٍ باردٍ ويهدوءٍ أكثر برودةً .. مثلما فعلتُ أنا؟!».

حتى حديثُ النفسِ له درجاتٌ صوتية. فالجملةُ الأخيرة قالها Robert في داخله بصوتٍ خفيضٍ جداً، لكنه خالٍ من الارتجاف، خصوصاً بعد مرور كل

تلك السنوات. وعموماً، فالجواب لم يكن يهّمه كثيراً.

ما يهّم Robert هذا اليوم، هو أنّ واحداً من السادة قادمٌ إلى الصالة الخاصة.

كرّر Robert الإجراءات البروتوكولية بدقة متناهية. ذكّر نفسه باستمرار أنّ هذه التفاصيل ليست عادةً، بل دلالات عميقة تمثّلها كل جزئية. توقف عند المكان الذي لا يجوز له أن يتجاوزه، ولما تأكّد من أن X1 قد اقترب من فتّح باب الصالة، سأله باحترام: «هل يريد سيدي منّي شيئاً؟» .. جاءه الجواب كالعادة:

- شكراً Robert.

لم تكن ثقة X1 في خادمه تضطره للتأكد من أنه غادر، ولكنه يحكم اعتياده على الحرص، تلكاً ليؤانٍ قليلة قبالة الباب، انخرفت حدقة عينه إلى

اليسار قليلاً، فسمع صوت إغلاق الباب الآخر واطمأن.

واجهة X1 عدسة جهاز المسح الفائق الدقة لبصمة العين .. أغلق عينه اليمنى وقال بصوت مسموع: «عرشنا نحن، لا عرشك أيها الضعيف» ... ففتح الباب.

في الداخل، وعلى الجدار في صدر الصالة، بدا منظر مجسم العين الواحدة كثيباً، وكأن النحات الذي نفذ العمل قد تعدد، بناءً على تعليمات أو عقائد خاصة، أن يظهر العين كليلة متعبة؛ قد تقدمت في السن.

ولو أتيح لأحد من البشر، غير السادة الخمسة، أن يدخل إلى تلك الصالة الخاصة، لما رأى في تلك العين غير حزن داعرة عجوز؛ تدفع في أخريات أيامها ثمن عُهر شبابها، وحدة باردة وصمتاً طويلاً.

لم يتقدّم X1 باتجاه العين باحترام، بل تعمّد المشي بعجرفةٍ وتكبرٍ. كانت العدسةُ الماسحةُ المتواجدة في مركز حذقة مجسم العين، غير واضحةٍ للعيان، في حين كانت التقنية المصممة على أساسها، واحدةً من أعلى التقنيات التي تفتّقت عنها عبقريةُ بني الإنسان على الإطلاق. ولربما كان الشيء الوحيد المشترك بين عبقرية النحات وعبقرية مخترع العدسة الماسحة، أنّ كليهما قد دخل يوماً إلى الجزيرة .. ولم يخرج منها أبداً.

غير أنّ الشيء الأكثر غرابةً في المشهد كله، كان طريقة فتح الباب ... ذلك الباب الضخم المخفي وراء جدار منحوتة العين البائسة المثيرة للشفقة. فالعدسةُ الماسحةُ مصممةٌ، لا لتأخذ انطباعَ بصمة عين الناظر، بل لالتقاط التعبير الشعوري الذي ترسمه عضلات الوجه بشكلٍ مخصوص يتعمّده أي فردٍ من

أفراد المجموعة المكوّنة من خمسة أشخاص لا غير على هذا الكوكب .. أي من أولئك الأشخاص الذين إذا مات أحدهم، انتقلت صلاحياته آلياً إلى واحدٍ من أبنائه مُختارٍ بدقّة وفق اعتباراتٍ شديدة السريّة والكتمان.

وقف X1 قبالة العين بِتَكَبُّرٍ بادٍ، ونظرَ باتجاه مركز العين راسماً على وجهه تعبيراً هو مزيجٌ من مشاعر شتى ... احتقار .. تعالٍ .. إخافة مقصودة. كان وجهه يتحدث إلى العين بِلُغَةٍ خاصةٍ مفادها الأمر .. الأمر الذي يعرف مُتَلَقِّيه أنه لا يملك حيالَهُ إلا السمع والطاعة.

كان أيُّ إيجاءٍ تتراخى فيه عضلةٌ واحدة من عضلات وجه X1، بشكلٍ توحى معه النتيجة النهائية لتعبير الوجه بأقلّ قَدْرٍ من الاستكانة أو الضعف، كافياً ليفشل النظامُ في المطابقة.

لكن تراث أكثر من خميس وسبعين سنة من
عُمر X1، قضى معظمها مع شركائه الأربعة، في إدارة
شؤون الكوكب ... ذلك التراث الذي تخلو إجماليّاته
وجزئيّاته من كلّ شيء إلا التكبر، جعل التعبير الذي
رسمه X1 على وجهه يرتسم بشكلٍ شبه آليّ، دون كثير
جهدٍ ... وجعل العدسة بالتالي مُطبعةً هي الأخرى؛
مثل حاضنتها، مثل العين الكسيرة ... فبدأ الباب
يُفتح في الداخل، ظهر البناء القديم.

الفصل الثلاثون

لكل فرعون سَحَرْتُهُ ... تختلف الصيغة قليلاً،
لكن الأساس واحد؛ فرعون وحوله مختصون في
الإيهام المنهج، وعبيدٌ كُثُرٌ على أنواع .. منهم مَنْ
يتلذذ بكونه عبداً يُداس بالأحذية كل يوم، ومنهم
مَنْ يُعْمَلُ عقله فيرفض العبودية لغير الله.

ولقد مَضَتْ أيامُ الزئبقِ المسكوب في أنابيب
شَعْرِيَّةٍ توضع على أرضٍ ساخنة ... لم تعد تنطلي حَيْلُ
كهذه على أبناء زماننا هذا، الذين باتوا يفرّقون بسرعةٍ
وسهولة بين الشعبان الحقيقي وبين خراطيم دقيقة
تتلوّى بفعل تأثير الحرارة على محتواها من الزئبق.

سَحَرَةُ عصرِ المعلومات والـ Nanotechnology
باتوا أكثر تطوراً، والمشاهدون كذلك. وكما صُعِقَ
سَحَرَةُ فرعون مصر؛ عندما رأوا بِأَمِّ أعينهم عصا

موسى وقد انقلبت إلى حية حقيقية ضخمة ابتلعت
في ثوانٍ أنابيبهم المملوءة زئبقاً أحمر... كذلك صُعِقَ
Mark Antig في يومٍ من الأيام، فطرق باب بيت
البروفيسور Paul Yaghan في الريف الباريسي، كي
يقول الحقيقة ... وكي يقول أنه آمنَ بِرَبِّ موسى
وهارون، بعدما أجبرهُ الخمسةُ على ممارسة الخديعة
لسنواتٍ، لِقَاءَ أجرٍ عالٍ جداً.

لم يكن يهّمه أن يصلبه الخمسةُ، ولا أن يقطّعوا
يديه ورجليه من خلاف ...

ولعله وقتها كان ليقول لهم: اقضوا ما أنتم
قاضون، إنما تقضون هذه الحياة الدنيا .. لقد آمنتُ
بالله رَبِّ العالمين، عسى أن يغفر لي.

وأما العصا التي صَعَقَهُ مرآها، فلم تكن ثعباناً.
كانت في واقع الأمر، بحثاً أكاديمياً في فيزياء الفلك،
كَتَبَهُ عالمٌ أمريكيٌّ شابٌ من أصلٍ هنديٍّ، اسمه

جوزيف راجيف .. راجيف الذي وُجِدَ فيما بعدُ
مقتولاً في شقته، وتمّت للملّة الموضوع بسرعة.

احتمال أن يكون توقّف الشمس قد بات أقرب
مما كان البشر يتوقعونه ... مجرد احتمال ذلك، جعلَ
واحداً من كبار مَرَدّة شياطين الإنس، العاملين لدى
رؤوس الكفر الخمسة ... جعلَهُ يُعْمِلُ عقلَهُ باسمِ
الله .. لا باسمِ الشيطان ولا باسمِ أي مخلوقٍ آخر.

وكأنّ الكونَ الذي يُخاطَبُ الناسَ بلُغَةٍ مفرداتها
الظواهرُ المُعْجِزَةُ، قد جعلَ Mark يغيّرَ طريقته في
القراءة .. في النظر في الآفاق والأنفس .. في قراءة
الكتاب المسطور .. وفي قراءة الكون المنظور .. فَفَهِمَ،
ثم قرر أن يتغيّر .. أن يعود إلى الأصل؛ إلى كونه
المخلوق الأول والأعلى رتبةً ... الإنسان.

في صباح ذلك اليوم، عندما طرق Mark باب
بيت Paul وأحمد، وكادا أن يطرداه لولا أنه ذكر اسمَ

راجيف ... لم يتبادر إلى ذهن الصديقين أنهما يتعاملان مع ساحرٍ تائب من سحرة الفراعين الخمسة. وأتى لهما أن يعرفا من الأساس أن هنالك مهنةً اسمُها: محلل استراتيجي في مجال العقائد الدينية. وطيلة النهار، دار الحديث بين الرجال الثلاثة حول أمورٍ؛ ربما تمنى كلُّ مؤرخٍ لو يسمع طرفاً منها .. لكان فهِمَ الكثير.

هكذا العقلُ البشري عندما يتحرر من أي شيءٍ آخر سوى العمل باسمِ الله؛ فيستحقُّ عندها أن يكون عاملٌ رَفَعَ لِصاحِبِهِ - الإنسان الطائع - فوق مستوى الملائكة .. الملائكة الذين أَمَرَهُمُ رَبُّهُمْ بالسجود للإنسان سجودَ تكريمٍ، لا سجودَ عبادة .. سجودَ الاستحقاق الأكبر.

وهكذا هي العملية الاستشهادية الحقيقية التي تليق بالإنسان .. أن يموت الإنسانُ لأنه قال الحق .. لا

أَنْ يَحْزَمَ نَفْسَهُ بِالْمُتَفَجِّرَاتِ كِي يَقْتَلَ الْآخِرِينَ لِأَنَّهُمْ لَا يَقُولُونَ مَا يَرَاهُ هُوَ أَنَّهُ الْحَقُّ.

Mark كان يعلم يقيناً أن الفراعين الخمسة سيقتلونه، لا محالة. لكنه لم يُلْقِ بالاً لطريقة موته؛ كان يكفيه شرفاً أنه فضحهم وانفصل عنهم .. رَگَلْ بقدمه الشيك المصرفيِّ الباهظ الذي كان يتلقاه كلَّ شهر، وفكَّر استراتيجياً. صار أفقُّ ذلك الرجل أبعد بكثير مما كان عليه ... صار أفقه الجنة.

في مساء هذا اليوم الطويل، لم تكن المحادثة المتعبّة بين أحمد و Paul و Mark الذي لم يَعُدْ غريباً؛ فما غريبٌ إلا الشيطان ... لم تكن قد انتهت بعد. وعلى الرغم من أن الحديث لم ينقطع منذ الصباح، إلا أن أموراً كانت ما تزال بحاجةٍ إلى توضيح ... ونقاطاً بحاجةٍ إلى أن توضع فوق حروفها المناسبة ... تابع Mark قائلاً:

- إنها مسألة وقتٍ فقط، قبل أن يصلوا إليّ ... لا يمكن لأحدٍ أن يخرج من ذلك الجحيم الدنيوي بمحض قرارٍ ذاتي دون أن يدفع الثمن ... يقدر على ذلك في البداية، عندما يكون لديه كامل الحرية في عدم الاستجابة لإغراء المال، وأما بعد أن يصبح فرداً منهم، فلا.

أحمد: هل تمّ ضمُّ أحدٍ ما بشكلٍ إجباري .. أو رغماً عن إرادته ؟

Mark: لا أظن ذلك .. ما عدا استثناءات قليلة جداً ... أعني أولئك الذين يتمتعون بقدراتٍ علمية أو عقلية فريدة جداً. بعض أولئك العباقرة تمّ إجبارهم بشكلٍ غير مباشر؛ إذ تعمَّد الخمسةُ تركُّهم مهمّلين لا يأبه لهم أحد، في الوقت الذي كانت فيه أنفاسُهم تُحصى عليهم ... وهكذا إلى أن انهاروا تماماً، فقام الخمسةُ بانتشالهم من بحر الإهمال .. بحر الإهمال

الذي كان أشرف لهم ألف مرة من وحل النجاسة
الذي انتقل إليه.

Paul: أعرف علماء ممتازين تمّ تجاهل جهودهم بهذه
الطريقة، ثم احتضنتهم جهات أكاديمية .. والحجة
معروفة ... التريث لمعرفة القيمة العلمية الحقيقية
لأعمالهم.

Mark: وأقصرنا أعماراً على الإطلاق نحن ... أعني
الطبقة التي أنا منها ... مشكلتهم معنا أننا نعرف
كثيراً، ولذلك تجري تصفيئنا مبكراً. ولُبُّ المشكلة
أنهم لا يقدرّون على تكليفنا بالبحث في أمورٍ جزئيةٍ
فقط.

Paul: المَقولة المشهورة .. فلانٌ قُتِلَ لأنه يعرف
كثيراً.

Mark: لا يمكن أن يكون التحليل متكاملاً، ما لم
تكن كلُّ جزئيةٍ في سياقها الصحيح ... أنتما عالما

فلك، وتعرفان تماماً .. بنيوية التشابك العلائقي بين العناصر والسياقات .. إلخ ... باختصار، هم في خوفٍ دائمٍ من أن يبدأ واحدٌ منّا بإعمال عقله بشكلٍ غير شيطاني؛ بشكلٍ غير عبوديٍّ لهم .. لأنه سيفهم بسرعة أنهم أعدى أعداء البشرية. وعندئذٍ لن يعرفوا ماذا ستكون ردّة فعله.

أحمد: هل لي أن أسأل .. هل صيغة العمل واضحة .. هل هنالك شيءٌ ما في عقد العمل ينصُّ بصراحة على هويتهم وعلى طبيعة عملكم لصالحهم ؟

Mark: كثيرون منّا يعملون لصالح شركاتٍ دراسية، وفي مؤسسات بحثية، دون أن يعلموا بشكلٍ أكيدٍ من هي الجهة الممولة الحقيقية. بعضهم يظن أنه يعمل لصالح حكومة بلده، وآخرون يعتقدون أنهم مجرد باحثين في جامعاتٍ تموّلها شركاتٌ ضخمة. والغالبية تفضّل ألاّ تسأل كثيراً.

Paul: أشكرُ الربَّ أنِّي قدَّمْتُ استقالتي.

Mark: مستقلٌّ وخطيرٌ .. ذلك هو وصفُكَ في أحد التقارير يا مستر Yaghan. وعلى كل حال، تبقى شريحةً خاصةً من كبار المحللين الاستراتيجيين - التي أنا منها - ، أولئك هم أكثر الناس معرفةً وأقربهم على التصفية ... ما لي أتكلم كثيراً عن نفسي .. أعتذر، هل نكمل الموضوع الرئيسي ؟

أحمد: مع أننا لم نخرج عنه فعلياً .. تفضل.

Mark: من المشهور في تاريخ العلم أن سيغموند فرويد التقى بزميلٍ له ومنافسٍ في نفس الوقت، هو الدكتور كارل غوستاف يونغ. ودام ذلك اللقاء المشهور لساعاتٍ طويلة دون توقف، وقد أغمي على فرويد خلال النقاش ... المهم أن يونغ لم يكن يوافق فرويد كثيراً على شدة تمسُّكِ هذا الأخير بمنطلقه النظري الذي رَوَّجَ له كثيراً - ورَوَّجَ له كثيراً - والذي مفاده

أن الشهوة الجنسية أساس كافة أنواع الإبداع البشري من علوم وآداب وفنون، وأنها الأساس في معظم الأمراض النفسية أيضاً.

Paul: المقابلة مشهورة .. أظن أنها جرت في منزل سيغموند فرويد.

Mark: والأهم في ذلك النقاش، أن فرويد تحدث عن شيء غريب جداً .. تحدّث عن قوة خفيّة ذات طبيعة شبه أسطورية، وادّعى أنها شديدة التأثير على الإنسان، بل إنه لمّح إلى أنها - بشكلٍ ما - تتحكّم ببني البشر وتسيطر عليهم استعمل فرويد لوصف تلك القوة الخفيّة التي ادّعى وجودها وصفاتها، مُفردةً في اللغة الألمانية هي minitieuse .. بالمناسبة فالكلمة المذكورة تُكتَب وتُلفظ بالفرنسية تماماً كما في الألمانية وتحمل نفس المعنى. وعندما حاول يونغ مراراً وتكراراً خلال النقاش، جعل فرويد يبوح له

بتوضيح أكثر .. بتحديدٍ ذي طبيعةٍ علميةٍ ... رفض فرويد، وربما أغمي عليه وقتها؛ أعني وقت إلحاح يونغ.

Paul: لعله كان يعني الشيطان.

Mark: لم يصرّح بذلك.

Paul: ماذا إذن ؟ ... الله ؟

Mark: معروفٌ أن فرويد عاش كلّ حياته وهو يدّعي الإلحاد.

أحمد: صحيح، لكن آخرَ كتابٍ ألّفه قبل أن يموت، كان بعنوان: موسى والتوحيد.

Paul: وإذن ؟

Mark: فإذا تذكّرنا أيضاً أن فرويد قال لـ يونغ نفسه، وهما يصعدان سلّم الباخرة التي كانت تُقلّهُما إلى أمريكا: «تُرى هل يعلمون أننا نحمل إليهم الطاعون؟!» ... هل تتضح الصورة أكثر .. وهل يدفعنا

ذلك إلى أن نتساءل: كم سيغْموند فرويد مرَّ على
عقول بني آدم عبر قرون؟!
Paul: بدأتُ أتعب.

Mark: البشريةُ بأكملها متعبَةٌ يا بروفيسور .. حسناً،
وحتى لا أطيل عليكم أكثر مما فعلتُ إلى الآن ...
الخمسةُ كانوا محتاجين لإبليس كي يُروِّجوا له كمعبود
.. كي يُسَوِّقُوهُ على أنه معبود .. حتى يكون للمنهج
الانفلاقي الذي جَهِدوا عبر قرون لجعله نهجَ حياةٍ
البشرية بأكملها، أساسٌ ما ذو طبيعةٍ غير مرئيةٍ ..
طبيعةٍ غيبيةٍ يرتبط بها المنفلتون كي يكون
لانفلاتهم مرجعيةً ... باختصار: ديانةٌ وهمٌ باطلَةٌ
أساسُها الكفر. وبهذا تكاملت المصالحُ بينهم وبين
إبليس، ودام هذا التحالفُ الاستراتيجي قروناً من
الزمن.

أحمد: اسمح لي أن أُلخِّصَ حتى أتأكد من أننا فهمناك.

Mark: تفضّل.

أحمد: إذن هم يحتاجون إليه كمعبودٍ باطل .. كصنمٍ غير مرئيٍّ .. كي يوفرّ لهم غطاءً وهمياً من المعتقدات الفاسدة؛ وكأنه بُعدٌ فكريّ وهو يحتاجُ إليهم كمُسوّقين محترفين لبضاعتهما المشتركة التي هي الفساد الكامل .. مُسوّقين من نفس طبيعة البشر، لكنهم شياطين بمنهجهم ... هو يزدادُ نجاحاً كلما نجحوا في مزيدٍ من الإفساد، وهم يزدادون ثراءً ونفوذاً.

Mark: مائة بالمائة.

أحمد: ولكن مثل تلك التحالفات عادةً - وإن طال أمدها - إنما هي كالسلعة .. كالمُنْتَجِ؛ لها عُمرٌ افتراضيٌّ تقضيه، ثم تشيخُ فيصبح خطُّها البيانيُّ أفقياً، لا يصعد أكثر مما صعد .. هذا طبعاً إن لم ينحدر.

Mark: هذه أفضل ملاحظة تحليلية سمعتها في حياتي حول هذا الموضوع، ولستُ أجاملك.

Paul: هل انفكّ التحالف ؟

Mark: بل انفكّت تحالفات .. منها ما هو فرعي؛
تمخّض سابقاً عن التحالف الأكبر. وهذا هو بالذات
سبب أكبر حالة اضطراباتٍ تمرُّ بها البشرية عبر
تاريخها .. أعني ما يحصل اليوم.

Paul: كيف ؟

Mark: تفرّع عن التحالف الشيطاني الأكبر،
تحالفاتٌ فرعية .. محافل ولدت محافل .. وجمعيات
تمخّضت عنها جمعيات .. وأخويات ونوادي ومجموعات
ضغيط.

وبما أن المداخيل والأرباح كانت مهولة، فقد
كبرت رؤوس بعض الصّغار ممن هم صنيعة آخريين
أكبر منهم بقليل، وإن كانوا لا يقلّون عنهم صغاراً ...
ومن أولئك الصّغار دُولٌ وديكتاتوريات، يبدو أنها
تورّمت أكثر مما ينبغي، ففكّرت أن: يكفي .. تعالوا
ننفضل.

Paul: لحظة .. ألم تَقُلْ إِنَّ تخطيط الخمسة وإدارتهم
يَتَسِمَان بالضبط والسيطرة الكاملين ... فكيف
سمحوا لبعض فروعهم أن تَكْبُرَ أكثر من اللازم، أو
أن تفكر في الانفصال عنهم؟ أي خطأ استراتيجي
هذا!

Mark: خطأ استراتيجي لا مهرب منه .. يبدو أن
الأرض تعيش حالة تمهيد لإخراج كل خيراتها؛ أعني
تلك المرحلة المتأخرة التي وردت فيها النصوص في
كتب المسلمين.

Paul: لم أدرك مُرادك.

أحمد: في مرحلة من مراحل آخر الزمان، يأمر الله
الأرض أن تُخْرِجَ كُلَّ كنوزها وثرواتها دفعةً واحدة.

Mark: وكأننا نعيش حالة تحضيرية .. فالثروات
الطبيعة إلى ازدياد. وعلى الرغم من أن النفط إلى
تراجع ... لكن الاكتشافات الحديثة تشير إلى

مصادر أخرى مليئة جداً بالطاقات المتجددة ... أنتما أعلمُ مِنّي بذلك.

Paul: وإذن ؟

Mark: المشكلة مشكلةٌ مركزيةٌ في الإدارة زائدةٌ عن الحدّ. بمعنى أنك تستطيع أن تسيطر على دولٍ تُلقِي لها بالفُتات، في حين تزداد ثروثُك بشكلٍ مخيف. لكنك لن تستطيع أن تمنع تلك الفُتات مِن أن تتراكم. لا تنسوا أننا نتحدث عن فترات زمنية طويلة.

أحمد: والاستنزاف عبر الحروب والقتال ؟

Mark: يبدو أنها كانت ذات أثر عكسي على الخمسة ... فحتى يستنزفوا دولةً يريدون تأديبها أو تقليصَ أظافِرها، لا بد من أن يبيعوا لها أسلحة. وكي تكون أرباحُهم مجزيةً، لا بد من أن تكون تلك الأسلحةُ متطورةً إلى حدٍّ ما، وكمياتُها كبيرةً ... الأمرُ الذي يزيدُ - بشكلٍ ما - من قوة تلك الدولة التي يُراد

تأديبها عبر توريطها بالحروب أو القلاقل، أو - على الأقل - يعطيها شعوراً معنوياً بإمكانية الاستقلال عن هيمنة الخمسة .. هذا فضلاً عن أنه يعطيها خبراتٍ نوعيةً متزايدة في القمع والسيطرة ... غير أن ذلك ليس أكبر مخاوف الخمسة في هذا المجال.

أحمد: وما ذاك ؟

Mark: محاولات إنشاء تحالفاتٍ جديدة بدأت تظهر خارج نطاق سيطرة الخمسة ... لقد بدأت بعض فروعهم التي تفكر في الانشقاق عنهم، بالتفكير جدياً في التوحد فيما بينها لتشكيل قوى اقتصادية جديدة .. بل إن منهم من فكر في الاستقلال بإصدار النقد.

Paul: وما هورْدُ الفعل المتوقَّع من الخمسة ؟

Mark:

أحمد: بروفيسور Antig .. لقد وعدتنا بقول كل شيء.

Mark: حسناً .. ردُّ الفعلِ المتوقَّع هو ... هر مجدون.

Paul: ماذا! ... الحرب الثالثة ؟

Mark: بل الأكبر .. والأخيرة.

أحمد: اسمُها الحقيقي: الملحمةُ الكُبرى .. هر مجدون
تسميةٌ عبريّة ... لكن - عموماً - على ماذا تبني توقُّعَكَ
هذا؟ أعني .. على أيّ أساس؟

Mark: أبنيه على ما أعلمهُ مِن مصائب التطوّر الذي
وصلت إليه علومُ التسلُّح التي لا يدري بها أحدٌ، ما
عدا القلّة القليلة الدمارُ سيكون غيرَ مسبوقٍ في
التاريخ، وسيستنزف الكوكبَ بالكامل تقريباً.

Paul: ألا يخافون أن يطاهم الدمار ١؟

Mark: بلى ... ولذلك فإن هر مجدون - حسبما خطّطوا
لها - ستكون ذات نطاق جغرافي محدد هو الشرق
الأوسط.

أحمد: ونطاق بشري محدد أيضاً، لا تَسْتَحِيا مِنّي تكلّماً.

Mark: كسرُ شوكةِ كتلةٍ بشريةٍ يبلغ تعدادُ أفرادِها أكثرَ من ثلثِ سَكّانِ المعمورة؛ وكلهم مسلمون.

Paul: ولكن - حسبما أعلم - كل طرف يقول أنه سيقضي على الآخر.

Mark: نعم .. ولكن مهما تكن النتيجة ... وكائناً مَنْ كان المنتصر، فالدمار سيكون هائلاً وشاملاً ومخيفاً ... وعندئذٍ سَيَمَكَّنُ السَّجِينُ الذي عندهم مِنَ الانطلاق.

أحمد: ماذا قلتَ ؟

Mark: السَّجِينُ الذي عندهم؛ الأعور الدَّجَال .. المسيحُ الدَّجَال .. The Antichrist ... إنه عندهم.

الفصل الحادي والثلاثون

أَنْ يُهْدَمَ بِنَاءٌ تَارِيخِيٌّ كِي يُبْنَى مَكَانُهُ بِنَاءً آخَرَ، هَذَا
مِمَّا فَعَلَهُ كَثِيرُونَ عِبْرَ التَّارِيخِ ... فَالْحَضَارَاتُ الْمُنْتَصِرَةُ
تَأْتِي أَنْ تُبْقِيَ عَلَى أَيِّ شَيْءٍ يَذْكُرُ النَّاسُ بِمَا مَضَى. وَكَمَا
التَّارِيخُ يَكْتُبُهُ الْمُنْتَصِرُ، فَالْصُّرُوحُ أَيْضاً يُشَيِّدُهَا
الْمُنْتَصِرُ.

وَبَيْنَ مُنْتَصِرٍ وَمُنْكَسِرٍ .. بَيْنَ طَيَّاتِ هَذَا التَّبَادُلِ
فِي الْأَدْوَارِ الَّتِي اسْتَعْرِقَ تَارِيخُ الْبَشَرِ، يُطْرَحُ سَوَالٌ:
هَلِ الْمُنْتَصِرُ فِي مَعْرَكَةٍ، هُوَ الْفَائِزُ فَعَلَاءً؟ أَمْ أَنَّ
تَصْنِيفَ الْمَعْرَكَةِ الْوَاحِدَةِ كَجُزٍّ مِنْ حَرْبٍ، هُوَ أَيْضاً
تَصْنِيفٌ قَصِيرُ النَّظَرِ، لَهُ مَا بَعْدَهُ؟!

فَلِلسَفَةِ أَسْلَافِ السَّادَةِ الْخَمْسَةِ الَّذِينَ أَشَادُوا
الْقَصْرَ الْكَبِيرَ فِي الْجَزِيرَةِ، كَانَتْ أَكْثَرُ عَمَقاً مِنْ مَجْرَدِ
الْقَوْلِ بِأَنَّ التَّدْرَجَ يَبْدَأُ بِمَعْرَكَةٍ هِيَ جُزءٌ مِنْ حَرْبٍ.

فعقيدتهم تذهب أبعد من ذلك بكثير، لِتَصِلَ إلى حربٍ كُبرى. إلا أنه وفي آخر البُعْدِ الاستراتيجي، يَتَرَبَّعُ بندٌ أخير... الحربُ الأكبر.

ولهذا السبب كانت اعتباراتُ الهدم ثم البناء، غيرَ واردةٍ في حساباتهم. وهكذا فقد أَبَقُوا على الدَّيرِ القديم، بهيئته التي تُشَبِّهُ القَصْرَ، وقاموا فقط بتدعيمه. ثم إنهم بنوا حوله قصراً أكبر، حَرَصَ البَنَّاؤون الذين يظنون أَنفُسَهُم أحراراً... على تشييده بشكلٍ يجعله يضمُّ القصرَ القديم ويحميه. أولئك البَنَّاؤون أيضاً.. مثل نَحَّاتِ مجسِّمِ العين الوحيدة، ومثل التقني صاحب فكرة عضلات الوجه... كلهم نالوا شرفَ دخولِ الجزيرة، ونالوا أيضاً شرفَ البقاءِ فيها إلى الأبد، في قبورٍ غير معروفة.

وفي الوقتِ الذي كانت فيه الإمبراطوريات المالمية تُبنى على جثث مُتقاتلين يعتقد قُودُهُم أنهم على حق،

مع مُتقاتلين آخرين يَظُنُّ قُودَهُم أَنَّهُمْ عَلَى حَقِّ أَيْضاً ..
كانت أجزاء لا يُستهان بها من أرباح تجارة السلاح
وأشباهها، تُصَرَّفُ على الحرب الأكبر: الأبحاث.

أولئك الذين يقولون أن عصر اقتصاد المعلومات
بدأ منذ بضع عقود مَضَتْ مِنَ القرن العشرين، لم
يقرؤوا التاريخ جيداً.

عندما بدأ X1 يمشي في ردهة القصر القديم،
كانت العين الوحيدة قد صارت وراء ظهره .. ولطالما
كانت كذلك. كان يمشي متسلحاً بِثَرَاثِ أسلافه ممن
كانوا يقرؤون. صحيحٌ أَنَّهُمْ قرؤوا دائماً بِاسْمِ
مُصَالِحِهِمْ وَتَكَبُّرِهِمْ، إِلَّا أَنَّهُمْ كانوا يقرؤون بِتَمَعٍ
ودقة.

كان النَّصُّ الذي يروي قصة راهبٍ مسيحيٍّ
فلسطينيٍّ، قُدِّرَ لَهُ أَنْ يصل إلى جزيرة يسكن فيها
الأعورُ الدجالُ مُقَيَّداً في داخل دير ... كان ذلك النَّصُّ

موجوداً في كتب المسلمين. البعض كان يقرؤه للبركة،
وآخرون يقرؤونه لمجرد الإعجاب السليبي ... في حين
كان أسلاف X1 يضخّون أموالاً طائلة على
الاستكشافات البحرية، لا ليكي يكتشفوا أمريكا
ثم يقتلوا مئات الآلاف من الهنود الحمر بهدف
استبدالهم بالمساجين والرُّعاع والقَتلة ... ولا ليكي
يجدوا بديلاً عن المرور الإجباري في الطرق البحرية
القديمة .. اكتشاف رأس الرجاء الصالح لم يكن إلا
جائزة إضافية ... كان الأساس باختصار: البحث عن
تلك الجزيرة، وعن ذلك الأعور الضخم الجثة.

ولربما استطاعت عبقرية البشر يوماً ما، أن
تكتشف طريقةً لالتقاط الموجات الصوتية المتلاشية
في الفضاء لأناس عاشوا قبل مئات السنين .. وقتها
فقط، يمكن عندئذٍ سماعُ أصواتِ صراخ الرهبان
المسيحيين الذين تمَّ تعذيبُهم ثم ذَبَّحُهم في الدَّيرِ

القديم، عندما صدرت الأوامر بالسيطرة على الجزيرة، بعد أن تكللت بالنجاح جهودُ البحثِ عنها وتمَّ تحديدُ موقعها لم يكن أسلافُ السادة الخمسة يريدون تركَ أيِّ شيءٍ للمصادفة.

وأما لماذا هي جزيرةٌ وسطَ الماء .. فهذا موضوعٌ آخر ستظلُّ العينُ الوحيدةُ الذليلة تتحرَّس عليه حتى نهاية العالم، بل إلى الأبد. فالشيطان الذي أخذ على نفسه عهداً بإغواء بني آدم إلى يوم القيامة، لم يخطر له على بال أنَّ خمسةً من أتباعه القدامى سيكونون أكثر ذكاءً منه، وأنهم سيستغلُّون تبعه المستمرَّ وعدم قدرته على التمثُّل لمدةٍ طويلة على هيئة بشر. فأولئك اتَّبَعوه لفترةٍ كافيةٍ لِفَهْم استراتيجياته وأساليبه .. عَبَدُوهُ لِفَتْرَةٍ ثم انقلبوا عليه.

فاوست مجردُ شخصيةٍ وهميةٍ لا أكثر ولا أقل .. فالتوبةُ بابٌ إلهيٌّ مفتوح لا يُغلقُ إلا آخرَ الزمانِ في

لحظةٍ معيّنة. وأما أولئك الخُمُساتُ المتسلسلون مِن
مرحلةٍ شياطين الإنس إلى مرحلةٍ مَرَدَةِ الإنس
القياديين، فقد قرروا إحالةَ معبودِهِم السابق إلى
التقاعد الجزئي المبكر ... يمكنه فقط إغواء الأفراد
بالزنى أو المقامرة أو شرب الخمر؛ هذه هي حدوده.
وأما المصارف العابرة للقومية، والشركات التي تحكمُ
العالم، فذلك شأنُ السادة الخمسة وحدهم، وشأنُ
دُرِّيَّتِهِم مِن بعدهم.

ولهذا فقد تركوا عرشَ الشيطانِ حيث هو؛ في
البحر .. تلطمه الأمواجُ على وجهه التَّعِسُ كُلَّ يومٍ
آلاف المرات، لِتُشْعِرَهُ بالندم أكثر مما هو نادم أساساً
... فَبَقِيَ هناك، مجرد نصبٍ تذكاريٍّ مُهْمَلٍ.

مشى X1 المسافةَ الفاصلةَ بين الجهة الخلفية
لجدار العين الوحيدة وبابِ الدَّيْرِ القديم. لم تكن

هنالك إجراءاتٌ أمنية أخرى لفتح الباب هذه المرة؛
فهذا المكان لا يدخله إلا خمسة أشخاص فقط.

الدرج المُفضي إلى القبو، ولسببٍ ما، تمَّ الإبقاء
على طريقة إضاءته التي يعود تاريخُها إلى أكثر من
ثمانمائة عام؛ بالمشاعل المعلقة على الجدار ... انعكس
وهجُ النارِ على وجه X1 وهو يهبط بتؤدة على الدرج،
فازدادَ تَجَهُماً. وبعد بضع درجات، بدأ يسمع نفسَ
الصوتِ ...

سماعُ ذلك الصوت الأَجَش المتحشرج الذي
يتردد صداؤه في أرجاء قبو الدَّير القديم، أمرٌ اعتياديّ
بالنسبة للسادة الخمسة. فما إنْ يَصِلُ صوتُ خطواتٍ
أحدهم على الدرج، إلى أَسْماع السجين المقيّد في
الأسفل، حتى يبدأ هذا الأخيرُ بالصراخ مُكرِّراً نفس
الجملة .. مُعيداً نفسَ السؤال الذي يسأله منذ زمنٍ
بعيدٍ جداً.

وصل X1 إلى الدرجة الأخيرة، وصكَّ سمعه
صوتُ السلاسلِ الحديدية الضخمة التي تربط يدي
السجين برجليه. كان يصرخ، وينفُضُ رأسه مُحاولاً
بقوة جذعه أن ينتزع معصميه من رباطِ عُمره مئات
السنين.

أخرج X1 منديلَه الفاخر ووضعه على أنفه ..
انعطف يساراً فصارت المسافةُ بينه وبين الأعور
الدجال ... بضعة أمتار فقط.

نَفَضَ الأعورُ الدجالُ رأسه مرةً أخرى، وكرر
نفس السؤال:

- هل حان الوقت؟

ردَّ X1 كالعادة:

- لا .. ليس بعد.

ازداد غضبُ الأعورِ السجينِ إذ سمع الجوابَ
الذي يسمعه في كل مرة، وبنفس التوقيت منذ قرون

... فأعاد السؤال بصيغة معدلة، لكن بالفرنسية هذه المرة:

- هل حان الوقت .. هل بدأت المعركة؟

وعلى الرغم من إتقانه للفرنسية، كرر X1 نفس الجواب الذي كرهه أسلافه لمئات من السنين، لكن بالإنكليزية:

- لا .. إنها لم تبدأ بعد.

أخذ الأعور يكرر نفس السؤال بلغات متعددة ... بالعربية، والتركية، والفارسية، والعبرية، والسريانية .. ولا يسمع إلا جواباً واحداً وبلغّة واحدة. وفي كل مرة ينتفض محاولاً الانفلات من قيوده .. دون جدوى. ثم - وكما هي عادته - بدأ يسأل السؤال نفسه بلغاتٍ قديمة مندثرة .. والجواب واحد.

حافظ X1 على هدوئه كما هي عادته في كل زيارة فردية. رَمَقَ بِظَرْفِ عَيْنِهِ الصندوقَ الفولاذيَّ الذي تَمَّ

وَضَعُهُ عَلَى بُعْدٍ كَافٍ مِنَ السَّجِينِ؛ مُثَبَّتًا عَلَى الْأَرْضِ
بِأَحْكَامٍ .. فَازْدَادَ اطمئنناً.

ذلك الصندوق هو الحقيقة الفعلية التي نَسَجَ
حولها الأفاقون وكتبته الأكاذيب، عَبَرِ العصورِ ..
آلاف القصص الوهمية التي أنفق سادتهم الخمسة
وأسلافهم آكاماً من الذهب في الترويج لها .. فقط كي
يجعلوا البشر يظنونَ واهمين أنهم يعرفونها.

ذلك الصندوق الذي أُخْرِجَتْ عنه أفلام، وُكِّبَتْ
روايات، وأُلِّقَتْ أساطير ... ليس كنز سليمان، ولا
كأساً تُشْبِهُ قَرَجَ المرأة وترمز إلى عبادة الأنثى ... ولا
حتى رمزاً مُخْتَلَقاً كاذباً لِمَاسُونِيَّةِ زرقاء أو حمراء أو
صفراء تَقْبَعُ كُلَّ صَلاحيَّاتِها تحت أحذية السادة
الخمسة.

ذلك الصندوق ببساطة، كان يحتوي على جهازٍ
إلكترونيٍّ فائق التطور.

لم يَنْسَ X_1 ، بعد عودته إلى الصالة الخاصة في
القصر الجديد، أن يُلقِي نظرة احتقارٍ على العين
الوحيدة الكسيرة ... قَبْلَ أنْ يغادر الجزيرة ..
مصحوباً بتمنيات Robert برحلة سعيدة.

الفصل الثاني والثلاثون

حَلَّ الليل .. و Mark يتكلم، وأحمد و Paul يزدادان فهماً للأمور، واستيعاباً لقصةٍ كُبرى لا تقتصر على ظاهرةٍ كونيةٍ واحدة ستكون إيذاناً بانتهاء الحياة على الأرض. فالفراعين الخمسة لم يريدوا أن يُروا البشرية إلا ما يَرَوْنَهُ هُم.

كان مجردُ صَحْوِ البشرية على وَفْعِ بحثٍ أكاديميٍّ يُذكرُ فيه تطابقُ حقيقةٍ كونيةٍ واحدة مع آيةٍ قرآنيةٍ واحدة، رعباً يقضُّ مضاجعَهُم. فالبشرُ عندئذٍ سيبدؤون بالتساؤل، ثم التفكير، ثم الاستنتاج. وهكذا إلى أن يصلوا إلى السؤال الأكبر: مَنْ هو خالقنا ؟ .. ولماذا خَلَقْنَا ؟ .. وما الذي يريده مِنَّا أن نفعل ؟ ... عندئذٍ ستبدأ مشاكلُ الفراعين، لأن عندهم ما يُخفونه.

بقاء ذلك الأعور الدجال على قيد الحياة؛ تحت
أنظار الخمسة، كان بالنسبة لهم ثروة لا توازيها أيُّ
ثروة أخرى ... فَهُمْ سيكونون أولَ مَنْ يعلم - حين
ينطلق - أنه انطلق.

ومع ذلك فقد كانوا يخافون منه ... يجهلون ماذا
سَيَجْلُ بهم عندما يأتي الأمرُ الإلهيُّ بإطلاق سراحه
... فاشتروا الجزيرة، أو احتلُّوها، ثم ضَحُّوا ذَهَبَهُمْ في
عروق الدول العطشى الخاضعة لهم، وجعلوا الجزيرة
غيرَ تابعةٍ لأحدٍ سواهم.

يكفي أن يفكّر رئيسُ إحدى الدول التي يُقالُ
عنها أنها عظمى، في السؤال ... مجرد السؤال عن تلك
الجزيرة .. كي تبدأ مصائبُ الديون والحروب والقلق
بِقَرَعِ رأسِهِ صباحَ مساء، حتى يَكُفَّ ... وَلِنَقُلْ - إنْ
صحَّ التعبير - أن الدول كلها، احترمت نفسها ولم
تسأل.

والهدف الحقيقي الوحيد الذي يعمل الفراعين على تحقيقه أثناء انتظارهم لانطلاق المسخ، كان يتلخص في شيءٍ وحيد ... إيصال البشرية إلى مرحلة البهائية الكاملة.

كانوا يعلمون تماماً أنه، بعد أن يعود عيسى المسيح عليه السلام، إلى الأرض .. ويقتل ذلك الأعور الدجال .. سيمضي وقتٌ ما، ثم يقبضُ اللهُ أرواحَ كلِّ المؤمنين في الدنيا .. أي أن الخمسة لن يبقى لهم أعداء حقيقيون، إذ لن يبقى على وجه الأرض آنذاك إلا شرارُ الناس يتهارجون تَهَارَجَ الحُمْر؛ يمارسون الفاحشة في الطرقات جِهَاراً.

عندها، وعندما لا يبقى على وجه الأرض مَنْ يقول: الله .. فمن الممكن، إذا ظلَّ للخمسة سيطرةٌ ما .. أن يصبحوا ملوكاً حقيقيين .. ملوكاً على البهائم فقط. ولن تنازعهم على مُلكِهِم ذاك أيةُ بهيمة.

وقع الخبرُ كالصاعقة .. نزلَ على رأسي المستمعين
بسرعةٍ خلخلتِ الضغطَ الجوي وكادت أن تُفقدَهُما
صوابُهُما ... سَمِعَ الاثنان جيداً ما قاله Mark .. لكنهما
لم يستوعبا الصدمة.

أحمد: ماذا قلتَ ؟

Mark: الأعور الدجال .. إنه عندهم.

Paul: يتحكمون به ؟

Mark: لا .. يكفيهم أنه تحت أنظارهم؛ يراقبونه
وينتظرون.

Paul: يا إلهي ... أين ؟ .. أعني: في أي مكان ؟

Mark: حسناً .. سأبوحُ الآن بالمعلومة التي ...
ستكون - على ما أظن - السببَ الرئيسي في مقتل.
ولكن قبل ذلك، لي عندكما طلبٌ شخصي؛ أرجو ألا
يسبب لكما إزعاجاً.

Paul: تفضل.

Mark: أريد من البروفيسور نادر بضع دقائق من وقته على انفراد.

أحمد: بكل سرور .. لا مانع عندي أبداً ... لكني لا أخفي شيئاً عن Paul و ..

Paul: لا مشكلة .. سأدعكما لوحكما. أنا ذاهبٌ إلى الداخل.

Mark: بروفيسور Yaghan .. أؤكد لك أن الموضوع شخصي.

Paul: حسناً.

انصرف Paul إلى الداخل .. توجّه نحو البار، صبّ لنفسه كأساً من الويسكي؛ شربه دفعةً واحدة ... ثم ملأ المزيد وجلس على أريكة القراءة يشرب بهدوء. لم يَدُم الأمر طويلاً .. دخلَ أحمد إلى حيث يجلس Paul ... وقال:

أحمد: تعال .. لقد انتهينا.

Paul: ما الأمر؟

أحمد: لا تشغل بالك .. فعلاً، كانت مسألة شخصية.

Ok: Paul

في الخارج، كان Mark جالساً يتأمل بهدوء. ولاحظ Paul على وجهه شيئاً غريباً لم يفهمه ... كان القلق والاضطراب اللذان اكتسا بهما وجهه طيلة هذا اليوم، وهو ييوح بأسرارٍ مخيفة، وبأمورٍ من الشر كان هو ذاته طرفاً فيها، وأحد المخططين لها ... كان ذلك القلق قد زال تماماً، وحلَّ محله اطمئنانٌ وسكونٌ واضحان جليّان. وكأنَّ مسحةً من نور أزالَت الاضطراب، وجعلتُ بدلاً منه أماناً وأماناً.

ابتسم Mark ابتسامةً وديعة وهو يقول: «ألا تريدان أن تعرفا مكان الجزيرة؟!» ... بادر Paul بالقول: «الجزيرة! ..

لم يُجِبْ Mark .. لم يُتَّحْ له أن يجيب ... فما إن قال Paul كلمة: الجزيرة، حتى تالت الأحداث بسرعة.
رَنَ هاتفُ Mark رنةً واحدة .. نظر إلى رقم المتصل، فتغيّر وجهه. كاد أحمد أن يسأله إن كان كل شيء على ما يُرام، لكن صوتَ أزيزٍ خفيفٍ آتٍ من الجوّ منعه من ذلك.

نظر الرجال الثلاثة نحو جهة الصوت .. فلم يروا إلا ضوءاً أحمر خفيفاً جداً يومض بشكلٍ متقطع .. ضوءاً ليزرياً خفيفاً. وبعد ثوانٍ اقترب منهم جسمٌ طائرٌ متوسط الحجم؛ لا أجنحةَ له، بل أربعة قوائم غريبة الشكل. كانت تلك الطائرة الموجهة عن بُعد، واحدةً من أكثر الأجهزة تطوراً على وجه الأرض.

نظر Mark إلى الطائرة مبتسماً .. تمتَمَّ بِجُمْلَةٍ لم يسمعها Paul .. لكن أحمد فَهَمَ مؤدّاها من خلال حركة الشفتين، فسارعَ إلى Mark محاولاً أن يُنْزِلَهُ إلى

الأرض ... لكن الشخص المراقب لهم من بعيد عبر
الكاميرا المركّبة على متن الـ Drone ، كان أسرع من
أحمد ...

انطلقت رصاصةً من السلاح المرفق بالطائرة
والمجهّز بكاتمٍ للصوت، لتدخل في رأس Mark ...
سأل دَمٌ طاهرٌ نبيل على جبينه الذي بقي مرفوعاً .. مال
جذعه قليلاً إلى الوراء، فعاجلته طلقه ثانية في
الصدر.

الفصل الثالث والثلاثون

استنفرَ المفتش Boirot كلَّ طاقاته الداخلية،
ومعها غضبه المشهور عنه أيضاً، منذ أن أتاه الاتصال
مساء هذا اليوم. «كنتُ أعرف أن وراء أولئك
الثلاثة شيئاً ما» ... فكّر في ذلك وهو ينهض من وراء
طاولة الطعام قبل أن يُنهي عشاءه.

سأله زوجته بتذمر:

- أليس هنالك ضابط مناوب .. أكمل عشاءك على
الأقل.

لم يُجِبْ Boirot بكلام واضح، بل مضى نحو
غرفة النوم وهو يتمم ببضع شتائم تتعلق بعمل
الشرطة ومتاعبه .. وبالنساء أيضاً.

كان الضابط المناوب يعرف مدى اهتمام Boirot
الأقدم منه في سلك الشرطة والأعلى رتبةً أيضاً،

بمحاولة السرقة التي طالت البيت الريفي الذي يسكن فيه Paul مع أحمد وإستر منذ فترة ... غموض الظروف المحيطة بتلك الحادثة، بما في ذلك وجود شخص مسلم وامرأة غامضة تملك مسدساً مرخصاً من السلطات المحليّة؛ كل ذلك جعل من القصة حديثاً متداولاً في قسم الشرطة.

وأما أن يتمّ التبليغ عن جريمة قتل في نفس المكان ... فذلك كان تأكيداً لشكوك الجميع وخصوصاً Boirot. ولذلك حرص الضابط المناوب على تبليغ المفتش هاتفياً قبل الذهاب إلى مكان الحادثة.

وصلت سيارة الـ Citroën التي لا يتخلّى عنها Boirot أبداً، إلى مشارف المنطقة التي يقع فيها البيت الريفي، ففوجئ المفتش بكل تلك الإضاءة التي رآها تنبعث من جهة البيت ... «هل وصل جيروم قبلي؟»، تساءل في سرّه.

ركن المفتش سيارته بسرعة. كان صوت جيروم -
الضابط المناوب - واضحاً ... كان غاضباً، ويتناقش
بصوت عالٍ مع مجموعة من الرجال الواقفين قبالة
بهدهءٍ يختلط بلامح التجهّم البادية على وجوههم ..
السيارات السوداء المركونة بجانب سيارة جيروم، لم
تكن تابعة للشرطة الفرنسية.

همّ Boirot بالنزول من سيارته، فرنّ جواله. توقع
أن تكون زوجته، لكن المتصل كان شخصية بارزة
ذات نفوذ هائل ...

تحدّث المتصل مع المفتش بلهجة صارمة،
وبتعليماتٍ شديدة الوضوح؛ لا تحتل التأويل ...
حتى صوته كان مختلفاً عما اعتاد عليه Boirot.

- Boirot أنا أعرف أنك هناك الآن، أو قاربت على
الوصول. اسمعني جيداً .. الموضوع لم يعد في أيدينا ...
لم يكن في أيدينا أصلاً .. هل تفهمني ؟

- نعم سيدي.

- احتو ذلك الشاب ولا تدعه يرتكب حماقات ..
الموضوع أكبر منك ومتي .. هل تسمعي .. أكبر منك
.. ومتي.

- هل ألتخذ أي إجراءات، سيدي؟

- اصرف جيروم وعُد إلى بيتك يا Boirot .. عُد إلى
بيتك.

- حاضر، سيدي.

نزل Boirot من السيارة. ألقى التحية على
الموجودين، قال لـ جيروم أنه يريد التحدث معه على
انفراد .. رفض جيروم في البداية، لكن المفتش كان
صارماً، لدرجة أنه سحبه من يده، ومضيا إلى مكان
قريب ... كان Paul وأحمد ينتظران أن يطلب أحداً ما
إفادتهما .. وجلسا على كرسيين من كراسي الحديقة
ينظران إلى ما يجري باستغراب.

تبادل جيروم و Boirot محادثة قصيرة؛ كان الضابط الشاب خلاها يلوح بيديه غاضباً، ثم هدأ ... توجه Boirot بعدها نحو الرجال ذوي السيارات السوداء، وحيّاهم ثم انصرف مع جيروم الذي أصدر محرك سيارته صوتاً مزعجاً.

والغريب في الأمر كله، أن أولئك الرجال الذين لم تُعرف هويتهم، لم يتوجهوا إلى أحمد أو Paul بأي سؤال ... فقط أخذوا الجثة ومضوا، دون أن ينظروا ورائهم.

- هل فهمت شيئاً؟ (سأل Paul صديقه)
- الكثير .. على ما أظن.

نظر Paul باستغراب نحو أحمد .. أحمد الذي قام ومشى نحو صنوبر الماء الموجود في الحديقة؛ وبدأ يتوضأ. أخرج أحمد من جيبه هاتفه الجوّال .. فعَلَّ خاصيّة برنامج ضبط القبلة، ثم توجه نحوها.

قال Paul:

- ألا تريد السجادة؟

لم يُجِبْهُ أحمد .. بل قال بالعربية وبصوتٍ

مسموع:

- صلاة الغائب .. يرحمكم الله.

الفصل الرابع والثلاثون

تَقَلَّبَ أحمد نادر في فراشه. حاول جاهداً أن يسترخي كي يحصل على قسطٍ من الراحة بعد يومٍ طويلٍ متعبٍ، ولكن دون جدوى .. العلماء دائماً يعيدون القراءة؛ يبحثون عما وراء الكلمات، وتحت الأحداث، وفيما بين السطور ... كلماتُ Mark الذي عرف الحقَّ، كانت تَحْمِلُ الكثيرَ على مُتونها؛ كانت أشبهَ بقافلةٍ من الجمال الصابرة تمشي بتؤدة، وعلى ظهورها الخير.

«اللَّهُمَّ ارحمه وثبِّته عند السؤال» .. دعا أحمد بهذا الدعاء دون أن يستطيع مَنَعَ دموعِهِ من الانحدار على خديهِ.

«يا لِعَظْمَةِ هذا الدِّين .. مَنْ ذا الذي يصدِّق، أو حتى يتوقَّع، أنَّ إنساناً عَمِلَ لِعُقُودٍ من الزمن على

محاربة الحقيقة وإخفائها، يأتي من مكانٍ بعيد، لِيُلْقِي
كُلَّ ما في جعبته خلال محادثةٍ دامت يوماً كاملاً؛
يعترف .. يندم .. يتوب .. ثم ينطق بالشهادتين، وبعد
ذلك بدقائق يُقَتَّل اللَّهُمَّ تَقَبَّلْهُ في الشهداء يا أرحم
الراحمين» ... وَهَمَّتْ عينا أحمد ثانيةً.

ولمّا أبى النومُ إلا أنْ يطيعَ الأمرَ الإلهي
بالانصراف، فَهَمَّ أحمد .. فقام إلى مُصَلَّاه وصَلَّى
ركعتين؛ أطال السجودَ في الثانية منهما. ثم فتح
حاسوبه المحمول وبدأ يدوّن ملاحظاته ... العنوان:
يُضاف إلى الملف 273 - الملخص: الخمسة.

وشرَعَتْ أصابعُ أحمد في السياحة على أزرار لوحة
المفاتيح؛ بانسيابٍ وسرعة .. فما عاد البروفيسور نادر
يعرف؛ أَهوَ الذي يكتب .. أمْ أنَّ الفكرة أُمِرَتْ -
كما أُمِرَتْ يَدُهُ - فأطاعتا ... كَتَبَتْ الفِكرُ: «لقد
أَنَاهُمْ اللهُ على حرير .. لكنه حريرٌ مسموم؛ تسري

العقوبة القادمة من خلاله إلى جلودهم التي ستشهد عليهم يوماً.

لقد أساء الخمسة تقديرَ مقدرة العقل البشري على الفلترة. فالفوضى المعلوماتية التي أشاعوها عبر الإنترنت، أدّت إلى أثرٍ عكسيّ لم يكن في صالحهم. لقد انحاز العقل البشري نحو الفطرة السليمة التي فَطَرَهُ اللهُ عليها، وأخذ العقل يسأل الأسئلة الكبرى وبصوتٍ عالٍ .. ثم بدأ يجد الأجوبة شيئاً فشيئاً.

ويبدو أن الذي لم يفهمه الخمسة، أو يتوقعوه، أن الانحلال الأخلاقي الكامل والمطلق - مثل الشر المطلق - لا وجودَ له في الكون؛ لأنه - أي الشر المطلق - يتناقض مع وجود الله تبارك وتعالى ... لقد وضعوا بمعيّة إبليس هدفاً لا يمكن تحقيقه بالكامل. وقد جَهَدَ القوارينُ كي يجعلوا العقل يعبد ذاته إذ يعبد العلم، كي يجعلوا النتائج العلمية والمخترعات أنبياء

وهميين .. ففشلوا فشلاً ذريعاً ... نظرية التطور
المضحكة، أو التي ربما عكّس فيها داروين نتائجهُ
الحقيقية المخفية التي تُثبت أن مجموعاتٍ من البشر
قد تمّ مسخُّها إلى قرود .. وليس العكس، تلك
المهزلة نَقَضَها وتندّر بها الغربيون أنفسهم، ثم كلُّ
صاحبٍ عقلٍ وقلبٍ سليمين ... فرويد اليهودي الذي
حاول أن يُقنِعَ العالم أن الإنسان الذي يحب أمه
ويحترمها، إنما يغار من أبيه الذي يمارس معها
الجنس ... لم يناقضه - ابتداءً - عالمٌ مسلم، بل
طبيب مسيحي هو كارل غوستاف يونغ ... والمادية
الجدلية رَدَّتْ عليها حضارة الغرب المسيحي ردوداً
مُفجِئةً، فضلاً عن ردود المسلمين.

إنَّ العقلَ الحرَّ الكارة للعطالة، والذي أرادوا له أن
ينام مُتعباً من شهواته، وألاّ يستيقظ إلا على مزيدٍ من
عبادة الهوى ... قرر ألاّ ينامَ إلا وهو يقرأ، وأن

يستيقظ صباح كل يوم ليبحث عن أدلة صحة ما قرأ في الليلة الماضية ... لقد انقلب السحر على الساحر».

انتبه أحمد إلى أن شيئاً ما قد أبطأ من سرعة أصابعه التي كانت تتنقل على أزرار لوحة المفاتيح ...

مارست الفكر سلطتها التي أُعطيَتْها باسم الله؛ لأنها ما قرأت إلا باسمه سبحانه .. مارستها على الجوارح التي انصاعت ... فاستسلم أحمد - هو الآخر -

للفتوح الرباني يُلهم العقل والفكر والجوارح ما شاء الله أن يُلهم عبده الطائع ... ثم تابع فكتب:

«المرايا الكبيرة النقيّة الطاهرة .. إذا انتشرت في الشوارع والبيوت، وفي المدارس والمصانع والجامعات، لا تؤذي أحداً ... لم يسمع أحدٌ عن مرآة نقيّة قتلت أحداً، أو حَزَمَتْ نفسها بحزام ناسف، أو لَعَمَتْ سيارة ... كل ما هنالك أن الذي تزعجه صورته إذا رآها على صفحة المرأة التي لا تكذب، يكره المرايا .. يسعى

لتكسيـرها .. حتى إذا سُئِلَ: لماذا تكسـرها ؟ .. تعلَّلَ
بأنها تغيـر من ثقافة الشارع وتقاليده».

توقَّف أحمد عن الكتابة .. فقد أصدر برنامجُ
الأذانِ في جواله تسجيلاً لصوت النداء الحبيب ... حَيَّ
على الصلاة .. حَيَّ على الفلاح.

تفقَّد جواله قبل أن يقومَ إلى الصلاة .. كانت
رسالة نصيَّة قد أتت ولم ينتبه إليها.

«أؤكِّدُ: .. إِفْعَلْ ولا حَرَجَ».

المُرْسِل: خالي عبد القادر.

الفصل الخامس والثلاثون

دمشق - الشام

لا يعرف معنى الجلسات الخاصة للعلماء المسلمين، إلا مَنْ كان مِنْ رُؤَادِهَا. فَعَبَّرَ قرونٍ من الزمن، كان لأهلِ الذِّكْرِ، أي لِمَنْ يسميهم العامَّةُ: المشايخ، مجالس خاصة تضمُّ عدداً محدوداً من الناس ... أصدقاء وأقارب، طلاب مميزين، وفي كثيرٍ من الأحيان علماء آخرين؛ يَغُضُّ النظر عن درجة التفاضل العلمي.

فَكَّرَ مازن جيداً قبل أن يتخذ قراره بزيارة الشيخ عبد القادر هذا المساء. كانت الأفكار التي تشغله قد نضجت حتى لكأنَّها انتظمت في سياقٍ متصلٍ مترابطٍ الأطراف، أقرب ما يكون إلى منظومة. وأما تلك الأفكار في حدِّ ذاتها، فقد كان مازن - لكثرة ما أخضعها للمحاكمة العقلية -

مستعداً للدفاع عنها في أي نقاشٍ مهما طال ... لم تكن هذه هي المشكلة، بل ترابط القناعات والأفكار الذي بدأ يأخذ في ذهنه صورةً منهجٍ عقليٍّ مُوجَّهٍ للسلوك، بل ومسيطرٍ على المشاعر في كثيرٍ من الأحيان. وهذا تحديداً ما جعله يفكر في قول كلمته جِهارةً أمام الدكتور عبد القادر، الذي كان بالنسبة لصهره مازن، الطرف الآخر من المعادلة.

وعلى الرغم من أن الشيخ وزوج ابنته كانا أبعد ما يكون عن عقلية (هم ونحن)، إلا أن بعض الجُمْل المتناثرة في جنبات بعض نقاشاتهما السابقة، والتي لَمَحَ فيها مازن لوجهة نظره ولو من خارج السياق، كانت قد أظهرت بشكلٍ جليٍّ أنهما لا يبتآن على نفس الموجة، إن صحَّ التعبير.

وكما هي عادتها إذا طالَ بها الأمد، مارست القناعات الفكرية ضغطاً على لسان مازن، محرّضةً

إياه على الكلام؛ على قول كل شيء دفعةً واحدة ... ألا
تَضجُّ الأفكارُ الحبيسةُ في كيان صاحبها مُطالبةً إياه
بتركها تنطلق !؟ ... ألا تمارس التحريض على نوعين
من الكائنات .. اللسان والقلم !؟

خَفَّفَ مازن من سرعة السيارة قليلاً، بعد أن
شَغَلَ المصباح الخاص بالتنبيه للانعطاف. ولَمَّا تَأَكَّدَ
من أن الوقت بات مناسباً، انعطف تجاه الجامع الذي
يؤمُّ الناس به الشيخ عبد القادر ... عندما وصل، كان
المصلّون في منتصف الركعة الأولى، فالتحق بهم.

«آخرُ الزمان .. ما الفائدة التي يمكن أن تُرجى
من إشباع تفصيلات أخباره بحثاً وتدقيقاً !؟» ... كاد
هذا السؤال الذي ضغط على أفكار مازن، أن يُفقدَه
خشوعه.

وما إن قُضِيَت الصلاة .. حتى اتَّجه نحو الشيخ
عبد القادر الذي سلَّم عليه والسرورُ بادٍ على وجهه.

- أين الأولاد ؟

- في البيت ... لقد أتيتُ لوحدي.

- خيراً إن شاء الله.

- كل خير .. أودُّ أن نتحدث لوحداً.

- حسناً .. نصليَّ السنّة ثم نذهب.

في منزل الشيخ، تصرف الرجلان كما يفعلان عادةً عندما يجتمع الخاصّة من أحباب الشيخ .. وكأنهما يشيران إلى أهل البيت أنْ أقصروا الكلامَ والمجاملاتِ ودعونا لوحداً، وهكذا كان ... أحضرَ لهما الشاي الأخضر - راحُ المسلمين - إلى غرفة المكتب، وتُركا لوحدهما.

بدأ مازن حديثه بكلمتين فقط .. كلمتين أقصّتا مضجعه، وشغلّتا حتى كادت أن تصبحان هاجسه الوحيد.

مازن: آخرُ الزمان

الشيخ: يا لهذا الموضوع الذي طالما ناورت حوله من بعيد .. قُلْ.

مازن: لن أبدأ نقاشاً في حُجَّةِ الأخذِ بأحاديث الآحاد في العقائد .. فالذي في بالي يتعلق بالعامّة .. بالناس العاديين.

الشيخ: ما لهم ؟

مازن: كيف سيؤثر الكلامُ عن شيءٍ مثل الأعور الدجال مثلاً، على سلوكهم .. على سعيهم في الحياة لإصلاح أنفسهم .. وتدارك أخطائهم .. وتطوير أعمالهم ومصالحهم ؟

الشيخ: ذكُرَ ذلك حافِزاً، وليس مثبِّطاً، إذا طُرِحَ في سياقٍ مناسب.

مازن: سيتواكّل المتواكّل منهم أكثر مما هو متواكّل أصلاً .. وكأنَّ لسانَ حالهم يقول: الأعور سيقته سيقتله سيدنا عيسى .. ثم يدعو على يأجوج ومأجوج فتنتهي

قصتهم .. ثم ریح طيبة تحملنا من تحت آباطنا ...
فلماذا نُتعب أنفسنا !؟

الشيخ: وكأنك لا تعلم !
مازن: أعلم ... لكني أحاول أن أرى الأمور من وجهة
نظرهم.

الشيخ: هل أكرر ما قلته .. إذا طرَحَ في سياقٍ مناسب.
مازن: يا شيخنا .. مَنْ يتناول هذا الموضوع .. ليس
الكل طبعاً .. يحوِّله إلى فيلم رعب .. حتى أن أصوات
بعضهم إذ يرفعونها وهم على المنابر .. هي في حد ذاتها
أحياناً مرعبة.

الشيخ (بلهجة عتبٍ وتحذير): ... مازن !
مازن: سامحي .. سامحي ... ماذا لو انتقلنا إلى الجزء
الأهم مما في بالي .. هل ستتحملني ؟
الشيخ: سأتحملك وأمري إلى الله ... هاتِ ما عندك ..
توكَّل على الله.

مازن: يا سيدي .. سأقولها هكذا وبكل بساطة .. لو أن تقنياً متوسط القدرات، يعمل في مجال التجسس عبر الأقمار الصناعية، أراد أن يتنصّت على حديثنا هذا، وتوافرت له الإمكانيات، لاستطاع ذلك وقَدِرَ عليه. فكيف يُعَقَّل أن مسخاً أعور متواجداً على أرض إحدى الجزر .. ومن مئات السنين أيضاً .. ولن أدخل في قضية كيف ظلّ حياً طوال هذه المدة .. كيف لم تعثر عليه كل هذه التقنيات؟! ... هل يمكن أن تفسّر لي هذا الأمر؟

الشيخ: وأنا أيضاً سأقولها لك هكذا وبكل بساطة ... وما أدراك أن أحداً لم يعثر عليه؟!

مازن: ماذا!

الشيخ: وأما كيف ظلّ حياً .. ومن أين أكل وشرب، وهو مقيّد ... فلا أظن أن معلوماتك في العقيدة تحتاج إلى مزيد؛ فأنت إمامٌ مسجدٍ سابقاً .. هذه مشيئةُ الله

القادرِ على كل شيء. وهذا ينسحب أيضاً على قضية وجدوه أو لم يجدوه.

مازن: لحظة، أرجوك .. عُدْ إلى سؤالك.

الشيخ: حسناً .. ما هو دليلك على أنَّ أحداً لم يعثر عليه بعد؟

مازن: مع أن مجرد التفكير في هذا السؤال، مرعب .. ولكن ...

الشيخ: بإمكانني أن أتوقَّع ما الذي كنت تريد قوله بعد هذه الـ (ولكن) ... قل؛ حتى نكمل هذا الحديث بشكلٍ متوازن. أنتَ غيرُ مُصدِّقٍ بوجوده أصلاً .. أليس كذلك؟!

مازن: بصراحة ..

الشيخ: بصراحة أنت في مشكلة، ولكن دَعْنَا مِنْ هذا الآن .. أسأَلُ الله أن يهدي قلبك. أولاً، وكى لا ينشغل بالك كثيراً ... مسألة العثورِ عليه مِنْ قِبَلِ

جهةٍ ما، مجرد احتمالٍ واردٍ خَطَرَ على بالي، وليس
عندي دليلٌ عليه .. وللأمر جانبٌ آخر .. ولكن،
أليس الله القادرُ على أن يُبقيَهُ مخفياً طيلة قرون،
بقادرٍ على أن يجعلَ أحداً ما، يعثر عليه؟!
مازن: بلى.

الشيخ: يا بُنَيَّ، لن أقول لك: لا تُناقش ولا تُجادِلْ،
ولن أقول لك: عَطِّلْ عقلَكَ عن العمل، فليس هذا
من الدِّين في شيء ... إنما أقولُ لك: أعد القراءة ..
أعدْ قراءةَ الوقائع والحقائق والاحتمالات؛ باسمِ رَبِّ
الوقائع والحقائق، ولن أُضيفَ إليها كلمة الاحتمالات؛
فهذه من شأننا نحن المخلوقين ... وكما أنَّ الكونَ
موسوعةٌ هائلةٌ أمرنا ربُّنا تبارك وتعالى أن نقرأها .. أن
ننظرَ في آفاقها، فضلاً عن النظر في أنفسنا ... فوقائعُ
الحياة والظواهر على اختلافها، هي الأخرى قابلةٌ
للقراءة .. ولكلِّ مفرداتٍ وسياقٍ خطابيٍّ خاص ..

والمُعَوَّلُ على الذي يقرأ ... يجب أن تكون لديه إرادة
القراءة والقدرة عليها .. فاقراً يا مازن .. اقرأ باسم
رَبِّكَ الذي خَلَقَ.

مازن: ولكننا هنا نتعامل مع نَصٍّ .. مع نصوص
أحاديث شريفة .. ألا ينبغي أن نُعْمَلَ عقولنا في مؤدَى
تلك النصوص .. في فحواها، فضلاً عن التثبّت من
صحة السند؟!

الشيخ: بلى .. ولكن المشكلة تكمن في نقطة
الانطلاق.

مازن: كيف؟

الشيخ: لِنَقُلْ أننا نتعامل مع النص التالي؛ مع الحقيقة
العلمية التالية: الأرض كروية .. كمثالٍ طبعاً.
مازن: طيب.

الشيخ: بَلَّغَكَ هذا النصُّ عن إنسانٍ يستحيل أن
يكذب، من خلال رواية نقلوه لك .. وقد ثَبَّتَ لديك

بعد دراساتٍ معمّقة لتاريخ حياة كلّ منهم، أنهم جميعاً
صادقون متّزنون ولا ينسون، وأن لا أحد منهم عُرِفَ
عنه الكذب .. جيّد إلى الآن ؟
مازن: جداً.

الشيخ: فإذا انطلقت أساساً من أنك لا تريد أن
تصدّق المحتوى .. لم أقل أنك انطلقت من عدم
التصديق، بل من أنك لا تريد .. لا تنوي .. لا تُحبّذ
تصديقه .. لم يَلَقَ النصُّ في شعورك وعواطفك
وكيانك، بل وفي عقلك .. لم يَلَقَ قبولاً في هذه
الحالة، المشكلة فيك أنت ابتداءً، لأنك لست راغباً في
التصديق. وعندها، مهما أخضعت النصّ للتدقيق
العلمي كمحتوى، فإن كلّ الاحتمالات ستدوب في
نقطة انطلاقك الأولى التي بينها وبين العلميّة بؤنّ
شاسع. هل فهمتني ؟ ... إنك في هذه الحالة بعيدٌ عن
التجرّد والحياد العلمي بُعْدَ السماء عن الأرض. وهذا

كله، وأنت تبحث في نصّ مؤداه ذو طبيعة علمية
يمكن لعقلك المحدود أن يناقشها من خلال
معطيات معينة، وقائل النصّ إنسانٌ في مثل مرتبتك
أو أكثر علماً بقليل ... فما بالك إذا كان محتوى النص
غيبياً ليس بإمكانك نقاشه، وقائله نبيّ مُرسَل لا
ينطق عن الهوى؛ صلى الله عليه وسلّم؟!!

مازن: صلى الله عليه وسلّم ... ماذا عن احتمال أن ..
الشيخ: اسمح لي أن اقاطعك .. لا لأنه لم يعد لديّ ما
أردُّ به، فعندي من فضل ربّي الكثير، ولكنني أظن أن
ما أريد قوله الآن، أكثر أهمية.
مازن: تفضّل.

الشيخ: بل تفضّل ربي تبارك وتعالى، عليّ وعلى عباده
أجمعين .. اسمعني يا بُنَيّ اترك مسؤولية التحكّم
في الفرامل لسائقي أرعن، ولن تحصل إلا على مزيدٍ من
التهور والسرعة والحوادث المميتة إحرمه من

الفرامل تماماً، وستستمع إلى قصائد ومعلقات في الشكوى من سوء الحظ، لا من مخاطر الرعونة
تَحَكَّمْ في الفرامل عن بُعْد بِجَهَازٍ مَتَطَوَّرٍ، كَفَرَضِ
نَظَرِيٍّ، وستتحوّل الشكوى إلى أغاني أوبرالية متوارثة
تشجب العبوديّة وتطالب بالحرية هكذا الإنسان،
يجادل باستمرار ... أَلَسْنَا نَقْرَأُ في كل يوم جمعة في سورة
الكهف، قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ
جَدَلًا﴾ ١٩؟

وعلى الرغم من أنّ أحداً لم يُجْهِرِ الإنسانَ الكثيرَ
الجدل، على تحمّل مسؤولية قيادة تلك السيّارة، وعلى
الرغم من أنه - هو، ولا أحد سواه - اتَّخَذَ ذلك
القرار، فهو يتفلسف دون انقطاع ... يحلّل .. يستنتج
.. يُوازِن ... مع أنه يكون أحياناً، يقوم بكل ذلك
الجهد الفكري، أثناء قيادته للسيارة باتجاه خمارٍ أو
بيتٍ للدّعارة.

حتى أولئك الذين يقودون سياراتهم بتؤدة،
متجهين إلى أعمالٍ مشروعة، أو عائدين إلى بيوتهم
بعد يوم عملٍ طويل ... لن يَسْلَمُوا مِنْ رِعُونَاتِ
سائقين آخرين، يحشرونهم أو يتجاوزونهم بعنف .. أو
يُطلقون أبواقَ سياراتهم بِقِلَّةِ أدب وبدون سبب.

وكأنِّي بالحياة مجموعةٌ مِنَ الحركات المرورية
الصغرى، تدور ضمن دوائر .. ضمن حلقاتٍ ينتظمها
سياقٌ أسطوانيٌّ كبيرٌ مُوحَّدُ الاتجاه نحو الآخرة
حلباتُ سباقٍ فرعيةٌ كثيرة، تَمَّ بناءُ كُلِّ منها وكأنها
العالمُ الأكبر .. وكأنَّ كُلَّ واحدةٍ منها هي المنطلق
والطريق والهدف، ولا شيء وراء ذلك .. وكأنَّ كل
حلبة سباقٍ فرعيَّة صغيرة هي الكون كله، بما في ذلك
الغاية من الخلق .. وما ذلك إلا وَهْمٌ، أو بالأحرى
إيهام. ودَعْ عنكَ التَّفَكُّر؛ هل هو إيهامٌ ذاتيٌّ أو مِنْ
قِبَلِ آخرين .. فالأولُ أرضُ خصبةٌ لظهور الثاني.

حلبة سباقٍ للمال، وأخرى للجنس، وثالثة
للفوز .. وهكذا ... حتى الأشكال المضحكة من الفوز
.. بدءاً من الجري لمدة ساعة ونصف وراء كرة
منفوخة من الجلد أو المطاط، وركلها باستمرار، في
ذلك الكازينو الكبير المخصّص لإقمار المراهنات،
والمسمّى - زوراً وبُهتاناً - رياضة ... مروراً بمُراهقة
تزيد من فتنة ملابسها وزينتها كي ينظر إليها الشباب
أكثر مما ينظرون إلى صديقتها أو ربما كبير خَدَم
في مطعم فندقٍ ضخم، يُمعِنُ في انتقاد أداء نادِلٍ أقل
منه درجة، ويزجره بسببٍ وبلا سبب؛ فقط كي يقول
لنفسه: ما زلتُ كبيراً للخَدَم ...

ملايين من البشر، كلُّ يوم، يقتبسون من سلوك
الديك .. الديك الذي يتجول متفاخراً بين دجاجاته،
في أرجاء مُلكِه المكوّن من مزبلةٍ في إحدى حارات
دول العالم الثالث أو الرابع أو العاشر ... ولعلّ الديك

غَابَ يوماً لِبَعْضِ حاجته، فخلا الجوّ للدجاجات،
وصارت تُقَاقِي بين السواقي ... حتى تلك الدجاجات
لم تَسَلَمْ مُلْكِيَّاتُهَا الفكرية من السرقة والاقتباس
دون الإشارة للمصدر.

باختصار .. صارت البشرية بحاجةٍ إلى فرامل
رَبَّانِيَّة تُوقِفُ حركةَ الضياع البشري، بعدما أدمَنَ
البشرُ تجاهلَ العوائقِ الفرعيةِ الصغيرة التي وُضِعَتْ
في طريقهم لِصالحهم وَمِنْ أجل سلامتهم في الدنيا
والآخرة.

فَكَّرْ في الفرامل يا مازن .. فَكَّرْ بِعُمُقٍ ... واتركني
الآن، فقد تعبْتُ.

الفصل السادس والثلاثون

عادت إستر بعد يومين جرى فيهما الكثير مما لم يكن Paul وأحمد يتوقعانه .. والكثير أيضاً مما كانت هي نفسها على استعدادٍ للمخاطرة بحياتها مقابل ألا يحصل. مع أنها أحرص الناس على حياة.

لم يسألها الصديقان عن فترة غيابها، ولم تسألها هي بالمقابل عن أي شيء. فالأمور اتضحت والمواقف أُعلِنَتْ، وما بقي إلا وضع النقاط على الحروف.

بدأت إستر الجلسة بإظهار بادرة حُسن نية:

- يا سادة .. لقد عطّلتُ أجهزة التنصّت بالكامل ..
تأكّدا إن أردتُما ذلك .. كما أنني أنصح بأن ننزع
شرائح الاتصال من هواتفنا.

نزع الثلاثة شرائح هواتفهم، وبدأت إستر الكلام فوراً:

- إذن أنتما بصدد البحث عن مكان جزيرة؛ تعتقدان أن الأعور الدجال محبوس فيها من قبَل خمسة أشخاص هم سادة العالم الحقيقيون. السؤال: فإذا عرفتم مكانها .. فماذا بعد؟

أصابَ هذا السؤال مكاناً حساساً جداً في عقل كلِّ من الأستاذين. فمن بين مئات، بل ربما آلاف الأسئلة، كان ذلك السؤال .. السؤال الوحيد الذي لم يخطر على بال أيِّ منهما.

مجرد المعرفة بالنسبة للعلماء .. مجرد الكشف عن الحقيقة .. كان عبر العصور نصراً علمياً تسعى إليه عقولُ أهل العلم المتعطّشة لأجوبة أسئلة من قبيل: أين؟ ولماذا؟ ومتى؟ ... بل وتسعى إليه مشاعرهم كبشّرٍ عاديّين يحبون أن يقولوا لأنفسهم آخر النهار: حسناً، لقد فهمتُ.

قال Paul، وقد غلبه حياده العلمي:

- فعلاً .. وماذا بعد ؟

قال Paul الجملة الأخيرة وهو مُطَرِّقٌ إلى الأرض؛ كأنه يخاطب نفسه ... نظرتُ إستر إلى أحمد الذي لم يكن قد استفاق بعدُ من قوة تأثير السؤال، فقالت بلهجةٍ خطابية:

- اسمح لي الآن أن أقولَ ما سكتَ عنه عقلاً كما.
أنت يا أحمد كمسلم، تتوق إلى إثبات صحة كلامكم عن أن المسيح سيعود إلى الأرض فيصلي صلاة المسلمين ثم يقودكم إلى النصر علينا وعلى المسيحيين ... وأنت يا Paul تريد إثبات نفس القصة لكن بنهايةٍ وتفصيلاتٍ مختلفة .. أنت تستمتع بتحقيقِ نبوءات جدتك ماري، ويحلوك أن تتخيّل العالم بعد أن يقضي المسيح علينا وعلى المسلمين ... نفس القصة القديمة.

ابتسم Paul وقال لها:

- لم تذكرني نسختكم من الرواية؛ أن تقضوا علينا
وعلى المسلمين، فيصبح العالم يهودياً .. ثم ترعوننا
كالبهائم.

تنحنح أحمد وقال مُصَحِّحاً لصديقه:

- أقلُّ من البهائم يا صديقي .. (غوييم) كلمة عبرية ذات
ترجمة أقل شأنًا من البهائم.

سارعت إستر إلى القول:

- يا بروفيسور نادر .. من بينكم أنتم المسلمين، مَنْ
يطلق على بعض المسلمين الآخرين أوصافاً أحطَّ شأنًا
... لا تؤاخذني.

أجابها أحمد بِحُزْن:

- هذا صحيحٌ .. للأسف.

تابعت إستر قائلةً:

- لم يَقْدِرْ أيُّ طرفٍ - ولا أظنُّ أن أحداً سيقدر -
على إقناع الآخرين بوجهة نظره، أو بالأحرى: بعقيدته

... فلماذا لا نعترف بأن هذا الخلاف التاريخي
والمستقبلي في آنٍ واحد .. ليس له مِن فَيَصِلُ إلا شيءٌ
واحد ... الانتظار لرؤية ما سيحدث فعلاً .. أليس
كذلك!؟

قال Paul :

- صحيح.

فسألها أحمد:

- ما الذي تريدین قوله ؟

وصلتُ إستر إلى النقطة الرئيسية في مبتغاهَا،

فقالت:

- السؤال الأهم: ما الذي يفعله كُلُّ طرفٍ أثناء

الانتظار؟ ... عذراً، فقد سمعتكما تتحدثان عن هذه

النقطة سابقاً ... لكن لماذا لا تعترفان لِنَفْسَيْكُمَا ولي

أنا أيضاً، بأنني أنا - وأعني: شعبي - عدوُّكما المشترك

الأقل شأنًا؟! .. وأن كلاً منكما إذا نجحَ في افتراس

الآخر فسيأكلني كتحلية ... لن أنتظر منكما إجابةً،
لأني ببساطة أعرف أنها الحقيقة. ولكن ما أردتُ
قوله لكما عندما وضعتُ المسدس على الطاولة في
المرّة الأخيرة .. أننا لسنا ننتظر كمتفرّجين .. هل
فهمتُما!؟

سأل Paul :

- لَمَحْتُ لهذا من قبل .. ولكن من حيث النتيجة ؟
أجابت المرأة بِجديّة:

- طالما أنه إذا انكشفت الأمور على حقيقتها لكل
البشر، فلن يغيّر هذا من سيرورة الأحداث؛ كما قال
أحمد في المرّة الماضية ... إذن ما من نتيجة فعلية
لأبجائكما إلا مجدٌ علميّ سيناله كلّ منكما .. مع
الكثير من المتاعب أيضاً ... وأما المجد العلمي فأنا
أريدُ ثلثه ... وأما المتاعب فلا ثلقيان بالاً .. سأدبر
أموري.

سأل Paul بِتَحَدُّ:

- الثلث ! ... مقابل ماذا ؟

أخرجت إستر مسدسها من حقيبتها هذه المرة،
وبهدوء ... أمسكته من السبطانة .. وضعتَه على
الأرض، ثم ركَلته برجلها نحو الأستاذين في إشارةٍ منها
إلى أنها تريد السلام ... وقالت:

- مقابل أن أدلَّكما - وفقاً لشروطي - إلى مكان
الجزيرة.

الفصل السابع والثلاثون

ليس التمويلُ كُلُّ شيءٍ ... فمدّخرات Paul التي جمعها من عوائد بعض براءات الاختراع المسجلة باسمه، بالإضافة إلى الوضع المالي الممتاز لوالد أحمد، فضلاً عن مشاركة إستر ببعض النفقات، كل ذلك لا يساوي شيئاً أمام الدعم اللوجستي .. فالرحلة مثل التي قرر الشركاء الثلاثة القيام بها، كانت من نوع فريد.

الجهة التي تمّ استئجار وسيلة النقل البحرية منها، وباسم من تمّ تسجيل عقد الإيجار، فضلاً عن جهة الإبحار التي صرّح عنها، ثم الدعم التقني الملاحي ... وتفصيلات أخرى كثيرة تولّت أمرها بالكامل قطّة Paul Yaghan التي تبين فعلاً أنها شرسة. تلك المرأة التي عاش البروفيسور الأمريكي

لسنوات في وهم أنه يعرف عنها كل شيء، فتبين له أنها هي التي تعرف عنه كل شيء.

- والدُّك رجلُ أعمالٍ دوليٍّ، يا بروفيسور.

أخرجتُ هذه الجملةُ البروفيسور نادر من تأملاته التي كانت تتهادى مع حركة اليخت على الأمواج ... لم يكن في كلام إستر سؤالٌ استفساري، بل جملةٌ تقريرية؛ الهدفُ منها إعلامُ السامعِ بِـ (أننا) نعرفُ عنك أكثر مما تتوقع .. وأراد أحمد أن يحثها على المزيد من الكلام، فلم يزد على القول: «صحيح».

تابعت إستر التي فهمت اللعبة:

- وخالك الدكتور عبد القادر أستاذٌ جامعيٌّ في الفقه المقارن ... سوريٌّ من دمشق.

رفعَ Paul رأسه دون أن يغلق الكتابَ الذي بين يديه، وسأل ساخراً:

- ألا تعرفين أين التقى بزوجته أيضاً؟

تجاهلت إستر ما قاله Paul .. نظرت نحو الأفق ...
كانت الشمس على وشك المغيب. داعبت نسمة من
هواء البحر خصلات شعرها بنعومة بالغة، في الوقت
الذي كانت فيه نظرتها وتعابير وجهها خالية تماماً من
أي لمحة من تجليات الأنوثة.

انصرف أحمد للوضوء؛ استعداداً لصلاة المغرب ...
وعاد Paul إلى كتابه، لكنه في منتصف الجملة الأولى،
رفع رأسه مجدداً .. كان جوال إستر الخليوي الفضائي
يرن بنغمة خاصة لم يسمعها قبل هذه المرة.
- آلو .. نعم ... صحيح حسناً.

اللحظات التي تلت هذا الاتصال، كانت الوعاء
الزمني الحاضن لحالة غريبة شملت للمرة الأولى كل
أطراف هذه القصة. فقد تنازعت الثلاثة حالة غير
مفهومة، هي مزيج من عدم الفهم .. وعدم التصديق،
فضلاً عن المفاجأة. وعندما قالت إستر وقد أصابها

الذهول: «هنالك مَنْ يرحّب بنا على الجزيرة» ... لم يفهم Paul أو أحمد شيئاً.

زال التوافقُ النبضي بين أمواج البحر الهادئة التي حَمَلَتْ ممثلي الديانات السماوية الثلاث على سطح اليخت، وبين أفكارهم التي حَلِمَتْ بما فيه الكفاية، فاستفاق الجميع ... استفاقت البشرية.

وبدأ نقاشُ خوارزمية الحالات الممكنة التي يُتَوَقَّعُ أن تكون مخبأة وراء ذلك الترحيب الغامض والمفاجئ ... هل هو استدراج ؟ .. هل هي خدعةٌ من نوعٍ آخر؟ ثم لماذا انتظروا إلى الآن؟

كان الصديقان يناقشان إستر والشكوكُ حول شخصيتها الحقيقية ما تزال تخيم بظلالها على كل ما تقوله أو تفعله. وحاولت هي بالمقابل أن تُفهِمَهُمَا أنها هي ذاتها فوجئت بالدعوة ... وبرهنتُ لهما على ذلك

في آخر الأمر؛ بأنَّ أَظْلَعَتْهُمَا على صندوقٍ أخرجته من تحت سريرها.

مجموعة من الأجهزة التقنية المتطورة؛ فَهَمَّ الأستاذان طبيعتها فوراً، بِحُكْمِ اختصاصهما العلمي ... كانت إستر قد وضعت خطةً محكمة لاستكشاف الجزيرة؛ بدءاً من التشويش على كل ما يمكن لبشر أن يتصوره من خطوط دفاع مراقبة المياه ... المياه الإقليمية للجزيرة إنَّ صَحَّ التعبير .. مروراً باختيار نقطة وقوف اليخت، والمتابعة سباحةً .. وصولاً إلى إجراءات البحث على اليابسة ... كُلُّ ذلك لم يعد له من داعٍ، بسبب عبارة واحدة: أهلاً بكم !

وَتَوَحَّدَ الثلاثة .. وَحَدَّهما الشكُّ، بعد أن وَحَدَّهما التوقُّ لمعرفة الحقيقة ومشاهدتها عياناً. حتى الشكُّ المتبادل بين الثلاثة حول بعضهم البعض ..

بِنَسَبِهِ المختلفة .. تلاشى شيئاً فشيئاً أمام انتظار
المصير الواحد ... على مركبٍ واحد.

وبما أن الوصول إليهم تقنياً من حيث الاتصال
الفضائي، يعني - فيما يعني - سهولة الوصول إليهم
مكانياً ... فلم يعد بإمكانهم التراجع. ولذلك، وبعد
مداولات، تمَّ اتخاذ القرار بالمتابعة حتى النهاية.

في مكتبٍ فخيم كائنٍ بأحد طوابقٍ مبنئٍ شديد
الحراسة، في إحدى دول العالم المتقدم ... رنَّ هاتفٌ
موصولٌ بشبكةٍ خاصة تتبَّعُ قمرأً صناعياً خاصاً،
وتخضع بروتوكولات استخدامهِ لتقنياتٍ لا تدري
بوجودها أيُّ وزارةٍ دفاعٍ في العالم ...

الأحاديث الدائرة عبر هاتفٍ كهذا، تكون

مختصرة:

- لدينا ضيوفٌ تمَّ استقبالهم.

- تمَّ استقبالهم!

- نعم، سيدي.

بعد انتهاء الاتصال المختصر بحوالي نصف ساعة، كانت أربع طائرات خاصة تقلع من أربعة مطارات خاصة، وتتجه نحو الجزيرة أربع طائرات فقط.

الفصل الثامن والثلاثون

من رحمة الله تعالى بِخَلْقِهِ، أَنَّ للأذن البشرية حدوداً لا تستطيع التقاط ما يصدر بعدها من أصوات، وإلا لكان الضجيج قاتلاً ... تلك الذبذبات التي تقع خارج نطاق السمع، تُرى هل هي أصداًء أصواتٍ تسبيح مخلوقاتٍ لا نفقه تسبيحهم، أم أنها هي ذاتها - الذبذبات - تُسَبِّحُ خالقَ السماوات والأرض؟! أيُّ ضجيج ذلك الذي يَصْدُرُ عن الأفكار الدائرة في العالم الداخلي للإنسانِ واحد! .. كم ستبلغ درجة ضجيجهِ لو أُتِيحَ لإنسانٍ آخر أن يسمعه؟ كم سيفهم السامعُ من خفايا النفس البشرية .. وإلى متى سيتحمّل الاستماع؟

ولئن كان الشخص المفكّر نفسه، عاجزاً أحياناً عن متابعة التفكير، لشدة اللغظ الدائر، والمشاحنات،

والتحليلات التي تدور في داخله .. وما يُستبعد لحين،
ثم يتبين بعد فترة أنه كان صواباً ... إذا كان هو نفسه
لا يتحمل ضجيج عالمه الداخلي طويلاً، فيهرب إلى
التسلية .. إلى ممارسة اللاشيء .. فكيف بذلك
المستمع الافتراضي؟!

هذا المساء كان واحداً من الفراعين الخمسة
مضطرباً لمتابعة الاستماع بدقة واهتمام، لكل تلك
الخواطر التي كانت تتدفق في داخله وكأنها حمم
منصهرة يقذف بها بركان ... كانت بعض الأفكار
الأخرى أيضاً، ما تزال تَعْتِمِلُ في باطنه؛ يأكل بعضها
بعضاً .. وتنتظر أن تَصِلَ أدنى مساحةٍ صغيرةٍ من
قشرة ذلك الباطن التَّجَسُّسِ إلى الرِّقَّةِ المناسبة .. كي
تنطحها حمم الأفكار فتثقبها ثم تندفع من خلالها،
لِتَزِيدَ مِنْ عَذَابَاتِ واحدٍ من أخرى أثرياء الأرض،
فَتُحِيلَ حياته جحيماً تمهيدياً لا يدري به أحد .. ولم

يَذُقُ طَعْمَهُ أَحَدٌ ... إلا أمثاله ممن ينتظرون الجحيم
الحقيقي الأكبر.

وَقَفَ قَارُونُ العصر الحديث في شرفة قصره،
يتأمل الحديقة المُحيطة به من كل مكان، وقد
أضاءتها إشاراتٌ خفية ... وَقَفَ بعجرفة فرعون
عجوز؛ تسنده بصعوبة ركبتاه الصناعيتان اللتان قال
له أطباؤه - قبل إجراء العملية الجراحية - أنهما
مصنوعتان من أفضل المواد، فابتسم يومها بمرارة
وقَفَ يستمع لضجيج حقدِهِ الداخلي.

حتى الحديث الهادئ يكون له وَقْعٌ مزعجٌ إذا ما
امتلاً بالكراهية. والكراهية التي في داخل ذلك
الفرعيين، كانت من نوع خاص .. كان يكره نفسه
إلى حدِّ الاحتقار الكامل.

استدار نحو الأريكة الوثيرة التي وراءه، ومشى
نحوها بتثاقلٍ وهو يشير بيده إلى أقرب حارسٍ شخصيٍّ

إليه؛ أن إبتعد ... أطاعت - طبعاً - كتلة العضلات التي لم تمارس التفكير منذ زمن بعيد، الأمر فوراً ... ابتعد الحارس وهو يهمس في جهاز اللاسلكي الصغير الموضوع على مُعصمه، مُعطياً التعليمات لباقي الكتل العضلية المنتشرة في زوايا الحديقة والبيت، وربما في بيوت الخلاء أيضاً.

لَمَّا جلس X1، بدأ يقول لنفسه؛ لِعُدْوَتِهِ اللدود: «إلى متى سنظل نُصنِّعُ أصناماً ومعبودات لا تنحني لها إلا رؤوس الأغبياء والجهلة وعابدي الفُروج؟! يا لهذه الأرض التي ينبع ذهبها ولا ينتهي. كلما توهمنا أنه صار لنا بالكامل، فاضت المنابع بمثله وأكثر .. فإلى متى؟! ها قد بدؤوا يستيقظون. معقول! .. معقول!! ... كل تلك المخدرات .. حشيش الصُور التي نحركها كما نريد .. وأفيون المعتقدات الفاسدة .. وكل ذلك الهراء .. ويستيقظون! أذلاءً نحن، كُنَّا وما نزال ... حتى

لو لم يبقَ في أيديهم سَنَدُ تمليكِ واحد، سنبقى هكذا.
لماذا لا أحاولُ كَسْرَ قيدِ ذلك المسخ .. ولكن لا .. لا
.. لستُ أعلمُ ما الذي يمكن أن يحصل إذا ما ..
حاولتُ ... بل لا أعلم إن كنتُ قادراً حتى على كسر
قيده وإطلاقه ... أيُّ سلطةٍ كاذبةٍ هذه، وأيُّ بؤس. أودُّ
فقط لو أظهر على العلن وأقول لهم .. أنا ... أنا يا
لِشَقَائِكَ مِنْ كلمة، ويا لِشَقَاءِ مَنْ يَقِفُ وراءك يتلظى
خلف معدني أصفر. هل أَهْزَمُ من خلال محادثة! ...
من خلال كلامٍ دار بين ثلاثة ممن لم يستطع بريقُ
معدني الأصفر أن يُعْمي بصائرهم؟! ما الذي
يستهوهم في معرفة الحقيقة؟! ... أعرفُ الحقيقةَ من
قبل أن يولدوا، وأكرهها ... تُرى هل يرون فيها ما لا
أراه؟ أم أن حقيقتي غير حقيقتهم. ثلاثة .. بدأتُ أكره
هذا الرقم ... غادرتُهم عاهرتي الصغيرة لفترة، فَتَقَصَّ
العدد .. ثم زارهم ذلك الحقير فعادوا ثلاثة ... قَتَلْتُهُ ..

نعم، قَتَلْتُهُ. ولكن ما الذي أخبرهم به خلال نهارٍ كامل؟ لعلّها العلامة .. لعلّها العلامة التي كنتُ أنتظرُها ... مسلمٌ ومسيحيٌّ ويهوديّةٌ يجتمعون .. ثم واحدٌ من عبيدي ينضمُّ إليهم .. إنها العلامة. لقد حُسِمَ الأمر. يريدون معرفة الحقيقة .. حسناً .. سأريهم بأنّ أعينهم. ولكن قبل ذلك هنالك بهائم تزايد عددها أكثر مما ينبغي. وها قد جاءت العلامة المؤدّنة بوجوب إبادتها ... يريدونها حرباً عليّ .. إنها الحربُ إذن، فليكنّ».

بعد دقائق، رَنَّ هاتفٌ جوالٍ موضوعٌ على منضدةٍ صغيرة، بجانب سريرٍ تنامُ عليه امرأةٌ ... إلى جانبها رجلٌ.

ذلك الجوال لا يعرف رقمه إلا بضعة أشخاص على هذا الكوكب. حتى صاحبُ الجوال لا يستعمله إلا نادراً جداً؛ فلهواتفُ الأرضيّة التي يستعملها بدلاً

عنه، مؤمَّنةٌ تأميناً على أعلى مستوى. ولا تأتي اتصالاتٌ إلى الجوّال المذكور إلا من قبَلِ رجالٍ آخرين، ممائلين لصاحب الجوّال؛ ينامون أيضاً على أسِرَّةِ نومٍ مشابهة ... وإلى جانب كلِّ منهم امرأة. يتصلون فقط لبعض الأمور الشخصية .. تهنئة .. تعزية .. دعوة ... وأما باقي أعمالهم فيستعملون للحديث حولها الهواتف الأرضية المؤمَّنة على أعلى مستوى. والمضحك في الموضوع أنهم يستعملون الهواتف الأرضية أحياناً، كي يعبروا لبعضهم البعض عن الاحتجاج .. وربما العتب ... لأن بعض موظفيهم سمحوا لأنفسهم بالتنصّت على مكالمات بعضهم البعض ... وعموماً فالتكليفُ مرفوعٌ بين أولئك الناس.

رَدَّ الرجلُ على الكلامِ المقتضب الذي سمعه من X1، بكلامٍ مقتضب هو الآخر ... جلس على طرف

الفراش، فرك عينيه قليلاً .. سألته زوجته التي
استيقظت على صوت رنين الجوّال؛ إذا ما كان كل
شيء على ما يرام ... أجابها بصوتٍ متهدّج: «عودي
إلى النوم يا عزيزتي .. عودي إلى النوم».

في جانبٍ آخر من خريطة العالم .. بدأت
جوّالاتٌ أخرى ممائلة، تصدر رنيناً ... ورجالٌ آخرون،
كُلُّ واحدٍ منهم ينام إلى جانب امرأة؛ يستيقظون ..
يجيبون بكلامٍ مقتضب .. يجلس كُلُّ واحدٍ منهم على
طرف السرير، يفرك عينيه قليلاً .. ويطمئن زوجته
قائلاً: «عودي إلى النوم يا عزيزتي .. عودي إلى النوم».
بعد حوالي ساعة أو أكثر بقليل، بدأت ترنّ
هواتفُ أناسٍ آخرين؛ أقلُّ أهميةً من الرجال الذين
استيقظوا قبلهم.

بعض أولئك الأقل رتبةً بقليل .. ارتدى كُلُّ منهم
ملابسه .. كتب ورقةً لزوجته يقول فيها أنه سيتأخر

على الأغلب. والبعض الآخر ارتدى بذّته العسكرية،
وغادر البيت بسرعة.

في مواقع عسكرية عِدّة عبرَ العالم، بدأت أجهزةُ
Speakers تُذيع:

Attention, this is not a training..

Repeat, this not a training.

الفصل التاسع والثلاثون

بذل Paul كل طاقاته الفكرية؛ مُحاولاً فهم طبيعة الكرسي الغريب الذي كان جالساً عليه ...
لم تكن هناك قيود تربط يديه أو رجليه .. كان بإمكانه أن يعدل وضع نظارته أو أن يحكّ وجنته، لكن حركاته كانت بطيئةً بشكلٍ غريب، هذا بالإضافة إلى شعوره بثقلٍ زائدٍ جداً يشده إلى الكرسي.

أحمد وإستر أيضاً كانا جالسين على كرسيين مماثلين، ويشعران بنفس شعور Paul .

- أحمد .. هل لديك فكرةٌ ما ؟ (سأل Paul)

أشار أحمد إلى السقف، قائلاً:

- يبدو لي أنه نظامٌ مصممٌ لإحداثِ شللٍ جزئيٍّ مؤقتٍ بفعلِ أشعةٍ ما .. لستُ متأكداً ... إستر .. هل تشعرين بثقلٍ؟

هَمَّتْ إِسْتَرْ بِأَنْ تَقُولَ شَيْئاً .. لَكِنْ صَوْتاً رَخِيماً
سَبَقَهَا إِلَى الْقَوْلِ:

- أَتَمَنَّى أَلَّا يَفُوتَ أَحَدٌ مِنْكُمْ فِرْصَةَ الْمَشَاهِدَةِ ...
حَاوِلُوا الْقِيَامَ مِنْ أَمَاكِنِكُمْ، وَسَتَدْخُلُونَ فِي غَيْبُوبَةٍ
مِنَ النَّوْمِ اللَّذِيزِ .. إِلَى الْأَبَدِ.

التفت الجميعُ ببطءٍ نحو مصدر الصوت ... كان
واحدٌ من الخمسة واقفاً في عمق الصالة الفسيحة.
ولم يتمكن أحدٌ من ملاحظة الباب الذي كان وراءه
.. فقد بدا لهم وكأنه ظهر فجأةً.

اقترب X1 بخطواتٍ متزنة نحو المعتقلين الثلاثة.
توقّف على بُعْدِ خطواتٍ منهم .. نظر إلى عيني Paul
قائلاً:

- هل تعرف كيف وصلتَ إلى هنا فعلياً يا
بروفيسور؟

أشار Paul بيده نحو إستر وقال:

- من خلال عميلتكم.

- الولاء مفهومٌ معقّد يا سيد Yaghan. أنت أذكى من أن تظن أن ولاءها المزدوج كان تجسيداً لحُسنِ حظك.

قال X1 تلك الكلمات، ثم توجّه إلى أحمد بسؤال:

- هل تبادر إلى ذهنك - ولو في الأحلام - أنك ستصل إلى هذه الجزيرة التي طالما ترنّمت بقراءة أخبارها في كتبكم؟

استجمع أحمد قوّاه، وردّ على السؤال بسؤال:

- أنتم إذن الذين تُشرفون على راحته أثناء الاحتجاز .. ذلك الأعور الدجّال؟!

نظرَ X1 مليّاً في وجه أحمد قبل أن يجيبه:

- الأعور .. الدجّال ... غيرُكم يسمّيه: ضد المسيح The Anti-Christ ... تعبيراتُ محمد دقيقةٌ للغاية.

قال أحمد بالعربية؛ دون أن يوجّه كلامه لأحد:

- صلّى الله عليه وسلّم.

التفت X1 نحو إستر وخاطبها:

- أترين يا إستر.. البروفيسور نادر ليس بخيلاً.. ففي كل مرة يُذكر فيها اسمُ نبيّهم، يقول المسلمون هذه الجملة، وإلا اعتُبروا بخلاء.

إستر التي كانت كل هذه الفترة صامتةً؛ تُنصِتُ لكل ما يُقال.. سألت عن الشيء الأكثر أهميةً بالنسبة إليها:

- ماذا ستفعلون بنا؟

- أبداً (قال X1) ... ستكونون ممثلي البشرية لمشاهدة حقيقة كبرى.

صدرَ صوتُ Beep من جهازٍ في جيب X1.. قال على إثر ذلك:

- سأترككم الآن مؤقتاً.. يبدو أن الحدث قد تكامل.

الفصل الأربعون

وَدَبَ الخلاف .. نَبَعَ مِنْ فتحات مَجاري المصالح
التي انسَدَّتْ؛ لكثرة ما أُلْقِيَ فيها مِنْ نَتْنِ المالِ الحرام
كي تَصُبَّ في حاوياتٍ ضخمةٍ شديدةِ الحراسة.

لم يَعُدِ التَّقَاشُ المُسْتَكْبِرُ يُجدي .. ولا تقليبُ
الآراءِ بعنجهيةٍ ينفع. حتى الدهاء بات أعمى.

ارتفعت الأصوات ... وبدأت الأيدي تخط على
طاولةِ صالة الاجتماعات الخاصة في القصر الجديد
بالجزيرة.

بَيَّدَ أَنَّ أحداً لم يَهْدَدْ أحداً ... فالجميعُ - الخمسةُ
كلُّهم - في مركبٍ واحد؛ هكذا يُفْتَرَضُ .. هكذا كانوا
هُم وأسلافهم، وهكذا يجب أن يظلّوا ...

وأما أن يَتَّخِذَ أحدهم قراراً فردياً ومصيرياً مثل
هذا، ثم لا يدرون به إلا بعد أن نُقِّذَ ... فذلك ما

أشعل حريقاً ضخماً في أربعة قلوبٍ سوداء قاتمة .. لم يكن خامسها بأفضل منها حالاً.

ومهما عُلّت أصواتُ الأربعةِ المعترضين، فإن في يد خامسهم ورقةً رابحةً غيرَ قابلةٍ إلا للقبول بها كأمرٍ واقعٍ .. لقد دخل ثلاثةٌ من الغرباء إلى أرض الجزيرة، بموافقةٍ - بل بدعوةٍ - منه شخصياً، وتمّ احتجازهم أيضاً على مَقَرَبَةٍ من قبوِ القصرِ القديم؛ هناك .. حيث يقبع مخلوقٌ طالما اعتبره الخمسات المتتالون ورقَتَهُمِ الراجحة ... فقط لأنهم سيكونون أول مَنْ يعلم - عندما ينطلق - بأنه انطلق.

This is The Sign ... هذه هي العَلامة؛ هي بعينها ..

هذا ما نطقَ به تحت التعذيب في يومٍ من أيام التاريخ القديم، واحداً من الرهبان المسيحيين الذين كانوا في حَقَبَةٍ ما، معتكفين في الدير القديم .. لا لكي يحرسوا مسخاً دَجَّالاً وجدوه بالصدفة محبوساً في قبوِ بناءٍ

قديم، فحوّلوه إلى مكانٍ لإقامتهم ... بل لكي يجنّبوا
البشرية فتنةً ستقع يوماً ما، لا محالة، لكن لا داعي
لإذاعة خبرها قبل وقتها أولئك الرهبان الذين
قتلهم أول خمسةٍ نجحوا في العثور على الجزيرة؛ قُتلوا
بعد تعذيبٍ شديدٍ كي تُستخلص منهم كلُّ معلومةٍ
ممكنة .. فباح أحدهم بأن سرَّ الجزيرة سينكشف
عندما يدخلها ثلاثة أشخاص؛ بينهم امرأة .. مسلم
ومسيحي ويهودي .. يأتون سويةً ويرون الأعور رأيَ
العين ... هذه هي العلامة التي توارثَ خبرها الرهبانُ
الذين توارثوا أيضاً مسؤوليةَ تجنيبِ أهل الأرض فتنةً
قبل الأوان.

وعندما وصلَ النقاشُ إلى حدِّ اتِّهام الأربعة
خامسَهُم بأنه هو الذي افتعل العلامةَ افتعالاً؛ بأن
تركَ المجالَ لممثلي الديانات الثلاث كي يبحثوا ويُعملوا
عقولهم دون أن يوقفهم عند حدّهم .. دون أن يقتلهم

... فَجَرَ X1 قبلته الثانية في هذا الاجتماع الذي ربما كان الأخير ... فاجأهم بأنه لم يقف عند هذا الحد فقط، بل تجاوزه إلى ما هو أكثر خطورة ... لقد أعطى الأوامر ببدء الحرب الأكبر ... هرمجدون.

خَرَسَ الجميع ... لَجَمْتُ ألسنتهم المفاجأة التي ينتظرونها، ولا ينتظرون .. التي يريدونها، ولا يريدون ... وَيَتَمَنَّوْنَ نتائجها، ولا يُوقِنُونَ وما كان عندهم من إيمانٍ في مثل هذه اللحظات؛ يرشدهم .. يدهم .. يُهْدِي من رَوْعِهِم ما كان في يدهم إلا متابعه ما كانوا يفعلونه سابقاً .. الانتظار.

ولأول مرة في هذا الاجتماع الذي بدأ صاخباً ... شعر الأربعة بالتعاطف مع خامسهم ... فَهَمُوا أنه مثلهم؛ قد طَفَحَ به الكَيْلُ ... أَكَلَهُ السؤال الذي يتردد في داخله، كما أَكَلَهُم: إلى متى؟! ... إلى متى؟! ... ها نحنُ الأسيادُ الفعليون المَخْفِيُّون، فإلى متى؟! أما آنَ

الأوان لنقول للعالم أجمع: ها نحن ولا أحد سوانا؟! ...
ثم مِمَّ نخاف؟! .. أَيْنَقْلِقُ البحرُ، ولا موسى؟! ... أَيْنَشَقُّ
القمرُ، ولا محمَّد؟! ولكن هنالك عيسى ... الإشكالية
التي ما بعدها إشكالية .. إنه عائد.

وهُرِعَ الخمسةُ إلى ما جعلوا البشرية تُذَمِّنُ عليه
.. إلى المشاهدة .. إلى الفُرجة ... هُرِعوا إلى الانتظار.

أُعْطِيَتِ الأوامرُ إلى Robert بإنزال شاشة
الهولوجرام إلى القبو ... ولأول مرةٍ في حياته المهنية،
اضطر Robert Watcher للاستيضاح: «القبو! .. قبو
القصر الذي أعرفُ، يا سيدي؟» ... نزلَ الجوابُ على
رأسه كالصاعقة:

- بل القبو الأخير يا حيوان.

- حاضر، سيدي.

المسرح عريقٌ في القِدَم .. الجمهورُ مؤلَّفٌ مِن
عشرة متفرّجين؛ يمثّلون بِضْعاً وسبعة ملياراتٍ
ونصف المليار من البشر، فضلاً عن أعدادٍ أخرى
غير معروفة من المخلوقات العاقلة غير المريّة ...
أقْدَمُ المتفرّجين خبرةً في مجال الانتظار، مخلوقٌ أعورٌ
العين ينتظر بدءَ هذه المسرحيّة منذ مئات السنين،
وكان يسأل كلّ حينٍ عن موعد بدءِ عرضها، واليومَ
سيبدأ العرض ... وهو سيشاهده بالنيابة عن عددٍ
غفير من شياطين الجنّ والإنس أيضاً ... ثلاثة آخرون
من المتفرّجين، يمثّلون العدد الأكبر من أهل الأرض،
والأكثر عقلانيّةً؛ بحثوا طويلاً عن مكان المسرح،
ولمّا أبحروا نحو جزيرته بِنِيّة الدخول خِلْسَةً، تمّ
استقبالهم والترحيب بهم ثم احتجازهم.

وعلى الرغم من قِدَم المسرح، وخُلُوه من
مَقصوراتٍ فخمةٍ خاصة بكبار الزوّار، إلا أن خمسةً

من أولئك .. حَضَرُوا للمشاهدة، متوهِّمينَ أنهم هم
الذين حَضَرُوا لهذا العرض الذي هو برعايتهم
الحصريّة ...

ثم خادمٌ واحد؛ مُخْلِصٌ جداً وكتوم، تطأ قدماهُ
هذا المسرحَ للمرة الأولى، مع أنه يعمل في مكانٍ يحيط
به منذ سنوات.

تقنيّات العرض المسرحي، شاشةٌ هولوغرام كبيرةُ
الأبعاد، خرافيةُ الدقّة .. التصنيف المسرحي: تراجيديا
قاتمةُ السواد ... نسبةُ الواقعيّة: غيرُ مسبوقة في تاريخ
البشر؛ فالأحداثُ منقولةٌ عن الواقع الفعليّ عبر قمرٍ
صناعيّ خاص ... الممثلون: البشريّة جمعاء إذ تتقاتلُ
قتالها الأخير.

لم تُظفأ الأنوارُ بعدُ ... ما زال المتفرّجون
يتعرّفون وجوهَ بعضهم البعض ... الأعورُ ينظر بعينٍ
واحدة إلى وجه السيّد المستجدّ الذي يراه اليومَ للمرة

الثانية فقط ويحاول أن يقرأه؛ إذ كانت الأولى للتعارف ... الثلاثة تعتر بهم دهشة عظيمة جعلتهم يذهلون عن مشهد الشاشة الضخمة التي ما تزال مُطفأة، إذ يرون الأعور الدجال رأي العين ... واحد من الثلاثة يقرأ فواتح سورة الكهف من القرآن الكريم، ويستغفر الله ... فقد سعى - بشكلٍ ما - لرؤية ذلك المسخ، وقد نُهي عن ذلك الخادم المطيع فاغر فاه ككلب يلهث حتى ولو لم يحمل أحد عليه شيئاً؛ ينظر بغباء من لا يفهم شيئاً ...

وأما الخمسة من الطبقة المعروفة؛ المشهور عنها أن لا أحد يشم الرائحة السيئة التي تفوح من قلوبها المتعقنة، فكانت تتنازع نظراتهم تعبيرات مختلفة ... يلتفتون لبرهة نحو الناس، فيبدون الاحتقار .. ثم تتردد أعينهم بين الشاشة والأعور، فيكاد القلق يقتلهم.

لم يخل الأمر من بضع دردشاتٍ متشنّجة؛ بين متفرّجين أرادوا التنفيسَ عن بعض قلقهم من خلال الحديث، ريثما يبدأ العرض.

توجّه الخامسُ المغامرُ نحو الضيوفِ الثلاثة المُجبرين على أمرهم ... اتّجه نحوهم كي يقول ما انتظر اللحظة المناسبة لقوله منذ سنوات ... :

- لن أقتلكم .. اطمئنّوا ... أريد أن تكونوا ناقلي أخبار الحقيقة الكبرى لأقوامكم ... أترون تلك الشاشة الضخمة .. ستشاهدون عليها الآن نقلاً حياً ومباشراً للملحمة الكبرى؛ كما تسمونها يا بروفيسور نادر ... هر مجدون؛ كما تسمونها أنتم يا مستر Yaghan ... ويا إستر ابنة راشيل ... وهي قد بدأت بأوامر منا نحن .. نحن ولا أحد سوانا ... وأما ذاك المشوّه الذي قرأتم عنه كثيراً، فما رأيتموه إلا لأننا سمحنا لكم بذلك ... انظروا إليه؛ إنه أكبرُ فتنةٍ ستجعلكم

وأقوامكم تقتتلون أكثر وأكثر، فلا يبقى من منتصرٍ حقيقيٍّ إلا نحن ... نحن سادتكم وسادة أمثالكم.

بعدما انتهى المتغطرس من خطبة ما يظنه نصراً ... توجه نحو Robert الذي تجمّد الدم في عروقه عندما اقترب منه سيده .. همس هذا الأخير بضع كلماتٍ في أذن خادمه، فازداد الدم في جسد هذا الأخير كثافةً ... عاد X1 إلى مكانه بجانب أمثاله ... واتّجه Robert نحو الصندوق الفولاذي ... الصندوق الفولاذي الموضوع في مكانٍ خاص؛ على بُعْدٍ كافٍ من مكان الأعور وقف بجانب الصندوق، وقد اتّخذت يده بالقفازين الأبيضين شكل حرفٍ X ... وقف باستعدادٍ؛ منتظراً أوامراً أخرى.

وبدأ العرض بدأ القتال ... وسَمَحَ الأعورُ لِصَوْتِهِ الأَجَش أن يكونَ المُعلّقَ على تطوّر أحداثِ المعركة ... لم يكن يقول شيئاً، مِن حيثِ النطق ...

بل عُلِّقَ على كل مرحلة؛ مستخدماً لغةً جسديه إلى جانب صرخاته ... إنْ فَرِحَ، نَقَضَ يديه الثَّنتين بقيودهما إلى أعلى؛ مُحاولاً القفز وهو يصرخ صرخة نصرٍ تَحَسُّبُها صادرةً عن وحشٍ نصفِ آدميٍّ وإنْ ساءَ أمرٌ، بدأ بشدِّ قيوده إلى أسفل؛ كي يضرب الأرض بيديه وهو يُصْدِرُ أصواتاً يَخْتَلِطُ فيها أنينُ الغيظِ بالحسرة حتى إذا هَدَّأتِ الأمورُ مؤقتاً، صَمَتَ مُهْمَمَها؛ ينتظر .. ويعبثُ بأجزاءٍ من قيوده الحديدية ريثما يشتدُّ الوطيسُ ثانيةً.

تعلَّقت أعينُ باقي المتفرجين بالشاشة ... وآذانهم لا تسمع تقريباً إلا صوتَ المَسْخِ الأعور، والذي طغى على باقي الأصوات وأما القلوب، فكان تفاعلها مع المَشاهد شيئاً آخرَ مختلفاً ... منها ما وَحَّدَت المصالحَ المرتقبةَ هَواها؛ في حين أنها - في حقيقة الأمر - شَتَّى، وذلك كان شأنُ الخمسة ... ومنها ما

أيقنَ بأنَّ ما يحصل هو بدايةُ النهاية، فأخذ يدعو رَبَّهُ
الواحدَ الأحد؛ وذلك شأنُ أحمد نادر ... بل إنَّ منها ما
استغلَّ فرصةَ اختلاطِ المشاعر، ففكرَ في اغتنامها
ولو على صعيدٍ تافه؛ وتلك كانت إستر إذ مدت يدها
نحو يد Paul الذي أبعدَ يده متجاهلاً إيَّاهَا بقرف ...
وأما Paul فقد كان عقله يعمل بسرعةٍ عجيبة، لكنها
في نفس الوقت تتسم بالدقّة

كلُّ جزئيةٍ من الأحداث كانت تمرُّ أمامَ ناظرَي
Paul، كان عقلُهُ يُتْبِعُهَا فوراً بِمقارنةٍ مع بَنَدٍ من
البُنودِ مخزونٍ في الذاكرة ... مرةً كلامٌ من كلام الجدة
Mary ... ومرةً بضْعُ جُمَلٍ من أحاديثه مع أحمد ...
كانت أجزاءً من الـ Puzzles تتجمّع أكثر فأكثر؛
تكادُ تقترب من اكتمال الصورة النهائية.

وظلَّ الأمرُ على هذه الحال ... إلى أن قامت إحدى
الكاميرات التي كانت تصوِّرُ جانباً من المعركة، بحركةٍ

Arc أتبعَتهَا بتراجعٍ إلى الخلف مع الارتفاع ... فبدا
حجمُ الدمارِ الهائل، والأعدادُ المَهولةُ من جثث
القتلى والجرحى الملقاة على الأرض.
هدأت الأصواتُ .. كان المشهد مروّعاً، ولونُ
الدماءِ الأحمرُ القاني يعمُّ الصورةَ بأنيبٍ مرئٍ غيرِ
مسموع؛ إلا من قلوبٍ تعرف معنى الإنسانية.

وفي حركةٍ بدتْ وكأن الأوامرَ العصبية التي
سببتها، أتت من القلب لا من الدماغ ... التفت أحمد
و Paul في وقتٍ واحد؛ كلُّ نحو الآخر ... التقت
عيناهُما وقالتا لبعضهما البعض كلاماً بليغاً ..
كان البريقُ صامتاً في الظاهر فقط، وتردداته
تتواصل بين قلبين ... قلبين تعارفاً، وتآلفاً، وتحاباً؛
حتى توافقَ نبضاهُما في تناغمٍ أحاديّ المصدّر ...
أحاديّ الهدف ... أحاديّ المصير.

كانت فترة قصيرة من الهدوء ... قَطَعَهَا صَوْتُ
الأعور فجأة؛ وقد ارتفع هذه المرة أكثر من أي مرة
سابقة .. حتى أن المتفرجين التفتوا جميعاً نحوه؛ ذاهلين
عن الشاشة وعن مجريات المعركة ..

كان الدجَالُ يَنْزُؤُ وينتفضُ بعنفٍ شديد، ويصرخ
صرخاتٍ بصوتٍ عالٍ جداً ... حتى أنه بدأ يضرب
وجهه بيده ... ويشير بالأخرى نحو الشاشة

التفت الكلُّ نحو الشاشة ... كان الأمرُ قد حُسِمَ ..
وتبيَّنت النتيجةُ النهائية ... تلك النتيجةُ التي لم تأتِ
كما يشتهي الخمسة، ولا كما يشتهي الأعور ... فبدأ
غضبُ ذلك المسوخ شديداً للغاية، لدرجة أنَّ
Robert نظر نحو سيِّده وعيناهُ تكادان تنطقان
بسؤال: «هل أنقذ؟».

لم يترك الأعورُ وقتاً لسيِّدِ Robert كي يجيب ..
فقد حان الوقتُ ... وصلتِ البشريةُ - أو بالأحرى

أَوْصَلَتْ نَفْسَهَا - إِلَى مَسْتَوًى مِنَ الانْحِلَالِ؛ اسْتَحَقَّتْ
بِسَبَبِهِ أَنْ تَعِيشَ الْآنَ، وَاعْتِبَاراً مِنْ هَذِهِ اللَّحْظَةِ،
الْفِتْنَةُ الْأَكْبَرُ فِي تَارِيخِهَا كُلِّهَا ... انْطِلَاقُ الْأَعْوَرِ
الدَّجَالِ فِي الْأَرْضِ.

لَمْ يَكُنِ الْأَمْرُ بِبَيْدِ أَحَدٍ مِنَ الْمُتَغَطَّرِسِينَ الْخَمْسَةِ
.. وَلَا بِبَيْدِ Robert .. وَلَا حَتَّى بِبَيْدِ الْأَعْوَرِ الدَّجَالِ
نَفْسِهِ ... كُلُّ مَا هُنَاكَ، أَنَّ الْإِذْنَ الْإِلَهِيَّ قَدْ حَانَ وَقْتُهُ
... وَفِي مِثْلِ هَكَذَا وَقْتٍ، يَتَوَهَّمُ كُلُّ جَاهِلٍ مَكَّنَهُ اللَّهُ
مِنْ فِعْلِ شَيْءٍ مَا؛ لِحِكْمَةِ إِلَهِيَّةٍ بِالْغَةِ مُتَعَلِّقَةٍ بِالْخَيْرِ
الْمُطْلَقِ ... يَتَوَهَّمُ كُلُّ جَاهِلٍ مِثْلَ هَذَا، أَنَّ الْأَمْرَ قَدْ
صَارَ بِبَيْدِهِ.

بَدَأَ الْأَعْوَرُ الدَّجَالُ يَقُولُ كَلَاماً غَيْرَ مَفْهُومٍ؛ بِلُغَةٍ
غَيْرِ بَشَرِيَّةٍ ... كَانَ يُوَجِّهُ الْأَمْرَ إِلَى أَحَدِ شَيَاطِينِ الْجِنِّ
الْكَافِرِ مِمَّنْ صَارُوا تَحْتَ إِمْرَتِهِ اعْتِبَاراً مِنْ هَذِهِ

اللحظة ... يأمره بأن يتهيأ لناظره من الإنس، على
هيئة امرأة .. امرأة معينة.

طار الجنّي المأمورُ بسرعة الضوء إلى مكانٍ يتواجدُ
فيه قرينُ المرأة التي حُدِّثَتْ له .. كان ما يزال على قيد
الحياة، في الوقت الذي ماتت فيه تلك المرأة منذ
عقود.

نسخَ الجنّي إحداثيّات شكلِ المرأة وصوتها؛ من
قرينها الذي تجاوب بسرعة هو الآخر، ثم عاد المأمورُ
بنفس السرعة إلى القبو.

أشار الأعورُ بعينه الوحيدة إلى Robert ... فَفَهِمَ
الجنّي المأمورُ أن هذا هو المستهدف.

تماهى الجنّي مع صورة المرأة وتلبَّس بصوتها، ثم
قام بتشكيل إيهايميّ ثلاثيّ الأبعاد، حاجزٍ بين مكان
الأعور ومكان وقوف Robert ... فما عاد هذا الأخيرُ
يرى الأعورَ ... بل صار يرى أمامه امرأة لم يَرها منذ

زمنٍ بعيدٍ؛ مقيداً بأصفادِ الأعور ... فأصاب Robert
حالةٌ من الذهول وانعدام التركيز.

حصلَ كلُّ ذلك في ثوانٍ قليلة، وما من أحدٍ من
الموجودين يرى شيئاً مما تمَّ، إلا Robert ... إذ لم ينسَ
الأعورُ أن يأمر جنياً آخر بتشكيل صورةٍ إيهاميةٍ
أخرى ثلاثية الأبعاد ؛ تتراءى أمام أعين الباقين
وكأن شيئاً لم يتغيَّر كان كلُّ من أحمد و Paul وإستر
والخمسة أيضاً، لا يرون إلا الأعورَ يصرخ وينتفض ..
و Robert واقفٌ ينتظر أوامر أخرى وأما ما كان
يتراءى أمام Robert فقد كان شيئاً آخر تماماً.

- روبرت .. روبرت، يا بُنيَّ الصغير .. ألم تعرفني ؟!

لم يعد Robert يعرف هل هو نائمٌ يهذي، أم أنه
مستيقظ .. إنها أمُّه .. يكاد يُقسِم على ذلك .. نفس

الصوت، ونفس الشكل .. حتى طريقة تصفيف الشعر، وملابس البيت العادية.

- روبرت يا صغيري ... أتظنُّ أني غاضبةٌ منك!؟

حَرَصَ جَنِّيُّ ثالث أن يُدْخَلَ في هذه اللحظة بالذات؛ أثناء محاكاة الجنِّيِّ الأول لصوت الأم وهي تقول: «غاضبةٌ منك» ... صورةٌ غائمةٌ Fade تماهتْ مع صورة الأم الأساسية ... صورةٌ انطبعتْ في ذاكرة Robert ... صورةٌ وجهِ أمه الذي بدأ لونه بالتحوّل إلى الزرقة الخفيفة، أثناء تنفيذ الابن المجرم لِفِعْلَتِهِ .. ثم - بعدها مباشرةً - صورة ثانية لوجه الأم وقد أتمَّ Robert إغلاقَ عَيْنٍ واحدة من عينيها، بعد أن قتلها بِدَمٍ بارد.

- أيها الشقيُّ الصغير .. لماذا البكاء الآن!؟

أعطى الأعورُ الدجّالَ الأمرَ التالي، بعد أن تبَيَّن
له أن الهدفَ قد تفاعلَ مع الحيلة، وصار جاهزاً
تجاوَبَ الجنيُّ الممثلُ فوراً:
- إني أسألكَ يا روبرت .. سأمُحُثُكَ منذ زمنٍ بعيدٍ ...
. ولكن ساعدني .. أرجوك ساعدني.

اختلطت دموعُ Robert مع نظرةٍ جديدةٍ
ارتسمت على وجهه .. تدلُّ على الاستعداد لفعل أي
شيء، فتابعَ الجنيُّ فوراً:
- لقد استعملوا سحرَهُم كي يمسخوني هكذا .. كما
ترى ... وسجنوني هنا .. هنا في هذا القبو البارد القذر
.... روبرت أرجوك.

توقفت الدموعُ، وصار Robert جاهزاً تماماً ...
جاهزاً حتى لمخالفة أوامر أسياده، بعد أن نجح الأعورُ
في إثارة حقه عليهم.
تابعَ الجنيُّ بلسان الأم:

- هذه فرصتك لِتَمْحُوَ خطاياك ... حَرَّرْنِي يا روبرت،
هذه القيود تؤلمني ... روبرت أرجوك، هذه فرصة
خلاصك أطلقني .. أطلقني.

نظرَ Robert وقد تَمَّتْ بنجاح عمليةُ غسيلِ
دماغه .. نظرَ بحقدٍ إلى الصندوق الفولاذي الذي
أمامه ... لم يضغط الزرَّ الوحيد البارز من فتحةٍ
دائريةٍ خاصة في غطاءه العلوي .. بل ضربه بقبضة
يده ضرباً، وكأنه ينتقم من سنوات الذلِّ كلها.

وبأقل من ثانية، باشرت رُقاقات الجهازِ
الإلكترونيِّ المُخَوَّسَب عملها ...

انتقل الأمرُ إلى مُوصِلاتٍ فائقةِ الحساسية
مرتبطةٍ بشكلٍ غير مرئيٍّ، بالقيود الحديدية الثقيلة
التي تربط يَدَي الأعورِ الدجّالِ برجليه، وتثبته في
نفس الوقت بالأرض ... فبدأ الأعورُ يشعر بحركةٍ غير
طبيعية تسري في قيوده.

فوراً .. أعطى الأعورُ الأمرَ لكل شياطينه
العاملين في المهمة، بالتوقف والانصراف، فتمَّ التنفيذُ
بسرعةِ الضوء ... وعادت الرؤية بالنسبة إلى جميع
الحاضرين إلى طبيعتها. ثم وِلمَج البصر، تواصلَ
الأعورُ مع شيطانٍ قديم أكثر خبرةً ... مختصَّ بتشكيلِ
إيهاماتٍ بصريةٍ أكبر بكثير ... أعطاهُ الأمرُ، فجاء
الردُّ بالجاهزية للتنفيذ فورَ إعطاءِ الإشارة.

أصدرَ الأعورُ الدجَّالُ أمرَهُ الأخير؛ قبل
المجاهرة بالظهور ... أرسلَ جنِّيًّا إلى خُرَاسان؛ يُخَيِّرُ
الأعوانَ اليهود السبعين ألفاً أن يستعدَّوا ويَرْتَدُّوا
طياالسهم .. جاء الجوابُ بالبُشرى ... فصرخَ الأعورُ:
- أيها التعساء ...

خرجَ المتفرجون التسعة من حالة الاندماج
الكامل بمسرحية الحرب الكبرى. استيقظوا على صوت
الصرخة الموجهة إليهم .. التفتوا نحو الأعور ... كانت

القيود قد بدأت تتكسر؛ مصدرّة صوتاً مربعاً ..
وأطرافُ الأعورِ تتحرر الواحد تلو الآخر بسرعة.
وبثوانٍ صار الأعورُ الدّجال حراً طليقاً؛ يقفُ
أمام المتفرّجين وقد مدّ قامته .. يحرك كلتا يديه اللتين
ذاقتا أخيراً .. طعمَ الانعتاق.

شخصٌ واحدٌ فقط من بين الموجودين، استطاع
قراءة الأحرف العربية الثلاث التي كانت مدموغةً
على جبين الأعور ... أحمد نادر .. الذي قرأها واضحةً
بشكلٍ جليّ ك .. ف .. ر فعاد فوراً تلاوة
فواتح سورة الكهف.

أغلق الأعور عينه الوحيدة ثم فتحها؛ بسرعةٍ ...
فباشر الشيطان القديم تنفيذ الأمر فور ملاحظته
للإشارة الآمرة ... وقام بتشكيل الصورة الإيهامية
الأكبر، وبقيت فقط مسألة الإضاءة مدّ الأعورُ
يده مدّاً كاملاً نحو عُمقِ القبور وراء المتفرّجين

التسعة؛ يشير إليهم أن التَفَتُوا وشاهدوا .. وقال بصوتٍ عالٍ رددت صداه في أرجاء خيالهم إيهاماتٌ شيطانية:

- هذا ما تتقاتلون من أجله ... هذا ما تعشقون .. هذا ما تعبدون ... ذهب .. ذهب.

وما إنْ نطقَ الأعورُ الدجَالُ كلمته هذه، حتى أُضيءَ القبوُ بإنارةٍ شديدةِ الوهج من خلف الموجودين، فالتفتوا كلَّهم إلى الورا .. كان المشهدُ عجيبيّاً. بدا القبوُ للناظرين، وكأنه أوسعُ بآلاف المرات. تمَّ إيهامهم بصرياً بأنه مساحةٌ متراميةُ الأطراف .. وأخذت الإضاءةُ بالتتالي تَباعاً وبسرعة، وكأنها سلسلةٌ طويلة من الـ Projectors تمَّ صفُّها وراء بعضها البعض، وتصمِّمُ لوحةَ تشغيلها بحيث يكون الفارقُ الزمنيُّ بين إضاءة الواحدة منها والتي تليها .. نصفَ ثانيةٍ فقط. وفي كل مرةٍ يُضيء فيها واحدٌ من

مصادر الإضاءة المُختلقة، كانت تتراءى لأوهام
الناظرين آكامٌ من ذهب التاريخ وتُحفّه.

إجمالي المنظر .. كان بريقاً يُعمي البصر، وبعض
البصائر .. كان وهاجاً، لكنه مجرد ضوء .. كان قوياً،
وتلمع تحته الكنوز ... لكنه لم يكن نُوراً.

وأنا رضى الرحمن قلب عبد طالما سجد لربّه
والناس نيام .. قلب أحمد ... فكشف نور البصيرة
الفتنة على حقيقتها، وذكَر بوجوب الإعراض حالاً.
أغمض أحمد نادر عينيه فوراً؛ وهو يتعوذ بالله ...
التفت إلى وراء نحو مكان الأعور، فلم يجده .. فصاح
بأعلى صوته:

- لقد اختفى.

التفت الجميع .. فلم يجدوا في القبو أحداً .. كان
الأعور الدجال قد انطلق.

الفصل الحادي والأربعون

دمشق القديمة - في زمن لم
يُعرف بعدُ على وجه التحديد.

مشى الحاجُّ أبو عادل في نفس الطريق الذي
اعتاده منذ أكثر من خمسين سنة ... وُفِّقَ في العثور
على مكانٍ لصَفِّ سيارته أولاً، خلف القلعة؛ قُبَيْلَ
مرقد صلاح الدين الأيوبي .. ثم باشر السير.

مرَّ أمام الباب الغربي للجامع الأموي .. تابع
حتى آخر الجدار الحجري، ثم انعطف يساراً إلى سوق
القباقبيّة ... ومضى باتجاه دكانه الصغير الكائن قرب
بحرة النوفرة.

قَلَّةٌ قليلةٌ من التجّار تلك التي ظَلَّتْ - حتى
هذه الأيام - تفتح دكاكينها في مثل هذا الوقت من
الصباح الباكر ... ولهذا فقد مضت الأيام التي كانت
فيها يدُ أبي عادل تكاد لا تنزل من كثرة التحيات
خلال هذه المسافة القصيرة؛ صار الأمرُ مقتصرّاً على
بضع مراتٍ فقط. فصلُ الشتاءِ هذا العام ضنَّ
بأمطاره التي اعتاد عليها أهل الشام، فالسماءُ يَزُرْقَتِها

الصافية اليوم، لم تكن لِتُشْعِرَ أبا عادل بالسرور ..
كانت في واقع الأمر تذكّره بالاستغفار وتحثّه عليه.
- يا فَتّاحُ يا عَلِيم .. يا رَزّاقُ يا كريم.

قالها أبو عادل وهو يرفع الـ (غَلَقُ) كما هي عادته
في كل يوم .. رفعَ الرفعة الأولى بصعوبة؛ بسبب
اضطراره للانحناء، فارتفع الغلقُ أقلّ من مترٍ بقليل
... للسبعين عاماً ونيف ضرائبها .. هداً قليلاً، ثم همّ
برفعةٍ ثانية، فقاطعهُ صوتُ ولدٍ صغيرٍ ممن يذهبون إلى
مدارسهم في هذا الوقت ...

- يا عمّ .. يا عمّ ... انظر إلى فوق.
- لا حول ولا قوّة إلا بالله العليّ العظيم ... ما هذا
الجيل.

قالها أبو عادل وقد توقّع أن يكون الولد يريد
التقاط صورةٍ له من خلال جواله؛ كما يحصل كثيراً.

غير أن الصبيّ تكلمَ ثانيةً بِصَوْتٍ يوحى بشيءٍ من
الخوف ...

- يا عمّ ... يوجد رجلٌ فوق.

- يا ابني وَكَلَّ الله ... أين الرجل .. وأين فوق ؟!

شَهَقَ الصبيُّ شهقةً جَعَلَتْ أبا عادل يأخذ الأمر
على محمل الجدّ ... تركَ الغلقَ .. التفت نحو الصبيّ ...
كان الصغيرُ رافعاً رأسَهُ نحو السماء، وقد ارتسمت على
وجهه ملامحُ الدهشة والخوف.

نظرَ أبو عادل نحو الاتجاه الذي ينظر نحوه الولد ...
فرأى ما لم يكن يتوقَّع الآن أن يراه ...
وبنفس الوقت، رأى أبو عادل ما كان - كلَّ يوم -
يتمنّى أن يراه

- سبحان الله العظيم.

وقفَ أبو عادل يراقبُ المشهدَ؛ يكاد لا يصدّق
نفسه ... جمدت عيناه لبضع ثوانٍ؛ تأكّد خلالها مما

يراه .. ثم صارتا تُتَابِعَانِ نُزُولَهُمَا رُؤَيْدًا رُؤَيْدًا باتجاه الأرض تَبَعًا لِنُزُولِ الرَّجُلِ.

الاتّجاه: هبوطاً بتؤدّة نحو المئذنة ... السرعة: معتدلة؛ وكأنّها هبوط طائرة شراعية الرَّجُلُ: يبدو في الأربعين أو نحو ذلك؛ واضحُ القسّات، يُكَلِّلُ رَأْسَهُ المِطَاطِىءَ بنبالة المتواضعين شَعْرٌ مُبْتَلٌ تَقْطُرُ مِنْهُ حَبَّاتٌ سَائِلٍ صَافٍ وكأنّها الجُمان اليَدَانِ: مستندتان إلى مخلوقَيْنِ كريمين غيرِ واضِحِي المعالِم؛ يَهْبِطَانِ بِالرَّجُلِ بِجَنَانٍ بِالْغ ... وتبدو من ظَرْفِي المَشْهَدِ أَطْرَافُ أَجْنَحَتِهِمَا ... ثَبَّتَتِ الرُّوْيَا.

إنه المسيح عيسى ابنُ مريمَ عليه السلام.